

علي الجارم بك
هاتف من الاندلس
دار المعارف بمصر

ہاتفِ من الأُندلس

علي الجارم بك

هاتف من الأندلس



ملتزم الطبع والنشر
دار المعارف بمصر

(١)

فى يوم من أيام الربيع رقّت فيه أنفاس النسيم ، وجمّلت أفقه أضواء الأصيل ، ظهرت قرطبة عروس المدائن وأم قرى الأندلس ، وحولها البساتين والخمائل ، تحيط بها أشعة الشمس الذهبية فتبدو كأنها صورة فى فى إطار من ذهب ، وقد انحدر تحت قدميها الوادى الكبير نقيًّا صافياً كأنه خالص اللجين ، وجرت به السفن ترِفّ قلاعها البيض كما ترفّ الحمائم رأت ماء وخضرة فحنّت إلى الورود . وانطلق الملاحون ينغّمون أهازيج لهم ، فيها حب ، وفيها أمل ، وفيها مجد و بطولة ، فسرت ألحانهم مع هبّات النسيم ناعمة مطربة ، وتوثّبت كلّ موجة علّها تقتنص منها لحناً . وامتدّ فوق النهر الجسر العظيم الذى أمر ببنائه عمر بن عبد العزيز ضخما تياهاً يباهى بأقواسه السبع عشرة ما بناه الأولون ، و يتحدّى أن يكون له مَثَل فى الآخِرين .

هذه قرطبة فى سنة ثلاث وعشرين وأربعمائة ، وفى حكم أبى الحزم بن جَهْوَر ، انطلقت قبابها فى السماء شامخة معجَبة على الرغم مما لاقت من الويلات والفتن والحروب وضروب التخريب والتدمير .

هذه قرطبة التى كانت أيام الناصر لدين الله بهجة الدنيا وقبلة الأمم ، وملتقى الشرق والغرب ، وشعلة النور التى تعشو إلى ضيائها الأبصار ، وتفد إليها طلاب العلم من أقاصى الأرض ، لعلهم يأتون منها بقبَس أو يجدون

على النار هدى ، والتى لا تزال إلى اليوم تحتفظ بآثار مجدها القديم ، وشرفها الصميم .

هـذه قرطبة فى سنة ثلاث وعشرين وأربعمائة ، تراها فترى صفحة عجزت الخطوب عن محو سطورها ، ودوحة لم تعبث الأعاصير إلا ببعض غصونها ، وأملاً ضاحكا لم تبكه عوابسُ الليالى ، وصوتاً مجلجلا لم تخفته رعود الأحداث الجسام . إنها لا تزال تروعك بجمال باهر وقوة كامنة لم تزعزعها الدهارير ! إنها الحسناء الفاتنة وخطها الشيب فأضاف إلى حسنها وقاراً ، والحلية النادرة زادها قِدَم العهد ثمانة وغلاء . تزدان بالقصور السامقة ، والمساجد الفسيحة ، ومعاهد العلم الزاخرة بالطلاب ، والأسواق العامرة والتجارات الرابحة ، وحولها من الأرباض ما يجاوز العشرين عدّا ، بكل ربَض ما يقوم بأهله حتى لكأنه مدينة قائمة بذاتها . أما الحدائق والمروج التى تحيط بها فلن تجد لها فيما سجّله التاريخ فى ألواحه مثيلا . وكان القرطبيون يسمُّون هذه الحدائق بالمُنَى : فهناك مُنية الرُصافة ، ومنية الزُبير ، والمنية المصحفية ، ومنية عَجَب . وكانت هذه المنى ملاعب لهو الأندلسيين ومسرح صباباتهم ، فلقد كانت قرطبة مدينة العلم والزهد والتصوف ، كما كانت مدينة اللهو والعبث والمجون . وكان لشبابها جولات أساموا فيها سرح اللهو . واستناموا إلى النعيم ، وأطلقوا العنان للذات ، حتى ليقول شاعرهم:

لا تنم واغتنم ملَذّةَ يوم ٍ إنّ تحت التراب نوماً طويلا !

ولقد لُدغوا مرات من جرّاء هـذا العبث والتغالى فى حبّ الحياة ،



وقد انحدر تحت قدميها الوادى الكبير نقياً صافياً

فما أغنتهم النذُر ، وما حاكت فيهم العِبر والمَثُلات ، إلى أن جرّهم حبُّ الحياة إلى الموت الذى لا صحوة بعده !

كانت الشمس على وشك الغروب ، وكانت المدينة تتطلّع لاستقبال الليل وما يحمله إليها من لهو ومرح وبهجة ، حينما كان فتى يجلس فى إحدى حُجُرات داره ، وفى يده قلم يخطُّ به كلماتٍ يُثبتها حيناً ، ويشطب فوقها حيناً ، ثم يقف مفكراً حيناً ، وعيناه ذاهلتان فى السقف وفى أرجاء الحجرة ، كأنه يتلقف الخيال الطائر ، أو يستهوى الوحى الحائر ، أو يخشى أن ينزلق قلمه بكلمة تأباها الحيطة ، ولا يرضاها الحذر . ذلك الفتى هو أحمد أبو الوليد ابن زيدون أديب الأندلس وشاعرها ، وهو شاب مؤتلِقُ الشباب ، ناضر العود ، معتدل القامة ، وسيم الوجه ، عربى الملامح والشمائل . حاجبان إذا اقتربا عرفت فيهما التصميم والعناد وقوة الشكيمة ، وعينان فيهما ذهول الشاعرية وبعد مدَى الخيال ، وأنف أشمُّ يدلّ على الكبرياء والثقة بالنفس ، وفم مُفوّه خُلق ليكون خطيباً !

وابن زيدون من بيت علم وأدب وثراء ونعمة ، كان أبوه من كبار قضاة قرطبة ، رفيع المنزلة عزيز الجانب ، فنشأ الفتى كما ينشأ أبناء المترَفين ناعم العيش مدلّلا ، يتقلب فى جنبات النعيم ، ولكن ميوله الفطرية ، ومواهبه الموروثة ، كانت تختطف من فراغه ساعات لدراسة الأدب وفنون اللغة ، فاطّلع على مكنونها ، وظفِر بذخائرها ، وخرج منها وافر النصيب ضليعاً متمكناً .

والعبقرية تكفيها النظرة ، وتُجزئها الإلمامة لتحصل فى قليل على ما تُنفق فيه الأعمار ، وتشيب دون نيله النواصى .

كان ابن زيدون ينظم أبياتاً يجيب بها عائشة بنت غالب التى دعته إلى ندوتها مع ثُلّة من الشعراء والأدباء ، وكان كثير التحرّز ، يُثبت ويمحو ، ويختار كلّ لفظ قبل أن يُجرى به قلمه ، فكتب بعد تردد :

أجِلْ عينيكَ فى أسطار كُتْبى تجد دمعى مِزاجاً للمداد

وبينما كان يَهُمّ بكتابة البيت الثانى ، إذ دخل خادمه علىّ الباجى يؤذنه بقدوم أبى مروان بن حيان مع شاب فى زِىّ المشارقة . وكان ابن حيان مؤرخ الأندلس شيخاً باقعةً عنيف النقد سليط اللسان ، لا يكاد يترك أديماً صحيحاً ، فلم يسلم أحد ترجم له فى تاريخه من غمزة تقضى على محاسنه ، وتذهب بمآثره ، لا يستثنى من ذلك ملكاً جباراً ، ولا ثريّاً عريض الجاه ، ولا عالماً بعيد الشهرة ، فهابه العظماء ، وخافه الأمراء ، وتقرّب إليه بالوُد الشعراء والأدباء . وكان يحمل فى كمّه كراسة لا تفارقه فى ليله ونهاره ، وكلما شاهد حادثة ، أو نما إليه خبر ، أو وقعت واقعة أسرع فدوّن فيها ما رأى أوسمع مصحوباً برأيه وما توحى به إليه نفسه .

كان صديقاً لابن زيدون حميا ، ولكنه كان شديد النقد له ، قاسياً فى نصحه ، حريصاً على أن يجنّبه مزالق الشباب .

دخل ابن حيان على ابن زيدون فلما رأى حوله الأوراق والدواة صاح فى دُعابة قاسية :

— وهكذا يا أبا الوليد لا تفتأ بين أوراق وأقلام! وأشهد أنك لا تخط فيها إلا ما يُمليه الفراغ والشباب . ويلى من أدباء قرطبة ويلى ! كأن الشيطان اشترى أقلامهم فما تكتب إلا عبثاً ومجونا ! فاتجه ابن زيدون إلى الشاب المشرقى وقال فى مزح يشبه الجِدّ : ألا تعجب لهذا الشيخ الذى يقتحم دارى ، ويتجافى عن تحيتى ، ثم يبدأنى بالسخرية والتقريع ؟ والتفت إلى ابن حيان فقال :

— اجلس يا أخى واهدأ فقد كاد يذهب بأنفاسك طول الطريق ، ثم عرّفنى بهذا السيد حتى أقوم له بحق الكرامة . فقهقه ابن حيان وقال :

— على أن نعرف ما كنت تكتب !

— قبِلت شريطتك .

— هذا يا أخى أبو الفضل محمد الدارمىّ ، قدِم إلينا من بغداد تحفِزه رغبة بعيدة المنال ، ويحدوه أمل فى جمع كلمة العرب بعد أن فرّقتهم النوازل والأضغان . فتهلّل وجه ابن زيدون وصاح :

— هذه أمنيتى يا سيدى ! فإنى أعتقد أن العرب لن تعود إليهم قوّتهم إلا إذا اتحدت رايتهم ، واتفقت كلمتهم ، وكانوا بنياناً مرصوصاً لا مطمع فيه لعدو . فزفر ابن حيان ثم قال :

— وأين الثريا من يد المتناول ؟ فأسرع ابن زيدون يقول :

— لا تيأس يا شيخ من رَوْح الله ! وهنا قال الدارمى :

— لقد تنقّلت فى إفريقية ، وحادثت أمراءها ، ثم بلغت الأندلس

منذ عام ، وقابلت ابن عبّاد صاحب إشبيلية ، وابن ذى النون أمير طُلَيْطلة ، وابن صمادح زعيم بَطَلْيَوْس ورأيت منهم ميلا إلى لمّ الشمل وجمع الكلمة .

فهزّ ابن حيّان رأسه فى تهكم وسخرية وقال :

— بشرط أن يكون كل أمير منهم هو الرئيس الأكبر ! فعجِل ابن زيدون وقال :

— اتق الله يا حُطَيْئة التاريخ !

— لو وجدت خيراً ما كتمته .

— إن لك عيناً لا ترى إلا الشر .

— لا والله ! ولكنى لا أكتم الحق ولو طاح فيه رأسى .

— ما رأيك فى ابن جهور عميد الجماعة ؟ قل وكن شجاعاً . فتردّد أبو مروان قليلا ثم قال :

— إنى أقولها فى وجهه يا فتى ، ولو كنت أهاب السيف ما حملت كفى قلما . إن ابن جهور خير من ساس هذه الدولة بعد أن تمزّقت أوصالها ، ورثّت حبالها ، وهو من أشد الناس تواضعاً وعفة ، وأشبههم ظاهراً بباطن ، وأولا بآخر ، لولا أنه يحوط ماله بالبخل الشديد ، ويُغلق باب خزائنه فى وجوه السائلين . فقهقه ابن زيدون وقال :

— لم يسلم الرجل من لدغة الثعبان ! وعجِل أبو مروان يقول :

— أىُّ ثعبان يا فتى ؟ لقد أطريتُ الرجل ، وكفى المرء نبلا أن تُعدّ معايبه . فزفر الدارمى فى أسف قائلا :

— لقد زرته فرأيته على سجاحة خلقه وحرصه على سلامة رعيته ، شديد العِداء لمن جاوره من الأمراء ، كثير الزراية بهم . وهذا هو الداء العُقام الذى أصاب هذه الأمة فهدّ أركانها ، وزعزع بنيانها ، ولن يعود للعرب مجدهم إلا إذا عادت لهم أخلاقهم الأولى ، وكانوا — كما جاء فى الأثر الشريف — فى توادِّهم وتراحمهم كمثل الجسد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الأعضاء بالسهر والحمَّى . فهزّ ابن حيان رأسه وقال :

— ما رأيت دستوراً للمسلمين أجمع ولا أوجز من قول النبي الكريم : المسلمون تتكافأ دماؤهم ، ويسعى بذمتهم أدناهم ، وهم يد على من سواهم .

إن التحاسد والتنافس والاعتصام بالأجنبى والتكالب على الحكم والغلَب ، كل أولئك كان شرّه مستطيرا . فقال الدارمى :

— عندنا فى المشرق استعان المعتصم بالأتراك ، ومكّنهم من رقاب العرب ، فكانوا حرباً عليه وعلى خلفائه من بعده ، وأصبحت الخلافة فى أيديهم لُعبة لاعب ، يولّون من يشاءون ، ويعزلون من يشاءون . فقاطعه ابن حيان قائلا :

— أمّا فى الأندلس فالمصيبة أشدّ وأنكى ، فإن الدولة منذ سنة أربعمائة — وهى سنة الفتنة الكبرى — تتقاسمها ذئاب ضارية : من مضرية ويمنية وصقالبة وبربر وإفرنجة ، فما كادت تنتهى الدولة العامرية حتى نعبت غِربان الشرّ من كل جانب ، وعاثت شياطين الدمار ، واندلعت نيران الفتنة فلم تذر من شىء أتت عليه إلا جعلته كالرميم . ويبدأ عهد

الخذلان ـ والعياذ بالله ـ من ولاية سليمان بن الحكم الذى لقّبوه بالمستعين بالله ، وكانت أيامه شِداداً نَكِدات ، صعاباً مشئومات ، كريهات المبدأ والفاتحة ، قبيحة المنتهى والخاتمة . دولة كفاها ذمّا أن أنشأها « شانجة » ومزّقتها الإفرَنجة !

وكان من نحس رأيه ، واختبال عقله ، أن اختار علىّ بن حمّود ليكون أكبر قواده ، وأقوى مناصريه . اختار بازيا فاصطاده ، وسيفا حزّ أوداجه . وإذا أراد الله شيئاً أمضاه ! ثم اتجه إلى ابن زيدون وقال فى تهكم :

ــ لقد كان شاعراً مثلك يا أبا الوليد ، فاحذر فإن الشعر كثيراً ما يكون شؤماً على قائليه ، وإنى أستطيع أن أعُدّ لك مئات ممن قتلتهم أشعارهم .

فقال الدارمى :

ــ لست أحفظ له إلا قوله :

عجباً يهاب الليث حدّ سِنانى	وأهابُ لحظَ فواتر الأجفان !
وتملّكت نفسى ثلاث كالدُّمَى	زُهْرُ الوجوه نواعم الأبدان
هذى الهلال، وتلك بنت المشترى	حسنا، وهذى أختُ غصن البان

فقال ابن حيان : يزعمون أنه يعارض بهذه الأبيات أبياتاً للرشيد يقول فيها :

ملك الثلاثُ الآنسات عنانى	وحللن من قلبى بكلّ مكان
مالى تطاوعنى البريّة كلُّها	وأطيعهن وهنّ فى عصيانى
ماذلك إلاّ أن سلطان الهوى	وبه قَوِين ، أعزُّ من سلطانى

فقال ابن زيدون :

— هذا من وضع الرواة فإن الرشيد لم يكن شاعراً . فوافق أبو مروان بإشارة برأسه ، واتجه إليه الدارمى سائلا :

— وماذا جرى على قرطبة بعد قتل المستعين ؟

— تولى الحكم أبناء حمّود سبع سنين فكانت كسِنِى يوسف . ثم تولى المستظهر بالله عبد الرحمن بن هشام ، ولم يبق فى الملك إلا سبعة وأربعين يوماً لم تنتشر له فيها طاعة ، ولا التأمت جماعة . وهنا أسرع ابن زيدون وقال :

— هذا كان شاعراً بحق يا أبا مروان .

— ما لنا وللشعر يافتى ، إننا أحوج إلى العقل والسياسة منا إلى خيال رائع أو تشبيه نادر ، لقد كان ابن المعتز فى المشرق أبدع شاعر منذ أن تنفس الشعر بقافية ، فهل أغنى عنه شعره شيئاً ؟

فانبرى الدارمىّ يقول :

— لقد وصلتْ إلينا ببغداد قصيدة للمستظهر بالله من أرقّ الشعر وأروعه ، قالها بعد أن خطب ابنة عمه فلوته أمّها وحجبتها عنه ، يقول فيها :

وجالبــةٍ عذرًا لتصرف رغبتى ... وتأبى المعالى أن تُجيزَ لها عذرا

يُكلفها الأهلون ردِّى جهالة ... وهل حَسَنٌ بالشمس أن تُمنَع البدرا؟

وماذا على أمِّ الحبيبة إذ رأت ... جلالة قدرى، أنأكون لها صهرا ؟

جعلتُ لها شرطا علىَّ تعبُّدى ... وسقت إليها فى الهوى مهجتى مهرا

تعلقتها من عبد شمس غريرةً ... مُحدَّرة من صِيدٍ آباؤها غرّا
حمامةُ عشٍّ العَبْشميين رفرفت ... فطرتُ إليها من سَراتهم صقرا
وإنى لأوْلى الناس من قومها بها ... وأنبهُهم ذكراً وأرفعُهم قدرا
جمالٌ وآداب وخُلْقٌ موطّأٌ ... ولفظ إذا ماشئتَ أسمعك السحرا

فقال ابن زيدون :

— هذا هو الشعر ! ودِدت والله لو كان لى بعضه بنصف شعرى ! فقال أبو مروان :

آلنصف الردىء أم النصف الجيد ؟

— ليس فى شعرى ردىء يا علقمة بن مرة ، وخير لك أن تأخذ فى تاريخك الأسود الذى لاتتقن سواه . فقهقه ابن حيّان وقال :

— هؤلاء هم غلمان بنى أمية الأغرار الذين كنت تخطب الناس فى ميدان الجامع الكبير داعياً إليهم ، معدِّدا مناقبهم ، وكثيراً ما ضحِكت منك فى كمّى ، وأنت تبكى أو تتباكى على مجدهم التليد ، وشرفهم العريق . وإنى أشهد ، والله يشهد أنك لاتبتغى من وراء ذلك إلا منصِبا وجاها .

فقال ابن زيدون غاضباً :

— كنت أدعو لابن المرتَضَى الأموى .

— أعرف ، وأعرف أنه فرّ من قرطبة قبل أن تتم له دعوة ، وأنك لم تنل شيئاً إلّا أن ملأت الصدور عليك حقداً .

ثم طفِق يقول : لاتغضب يا أخى ، فإنى أُكنّ لك من الحب وصادق

الوُد ما أنت به عليم ، ولكن ما ذا أصنع وقد خلقنى الله جافاً شائكا لا أضع فوق الحق ستاراً من الباطل ؟ فقال الدارمى :

— وهذا خير ما فيك يا أبا مروان. وكيف استقر الأمر بقرطبة بعد قتل المستظهر ؟

— لم يستقر لها أمر ، جاء المستكفى بالله ولم يكن من الحكم فى وِرْد ولا صَدَر ، وإنما أرسله الله على قرطبة محنة وبلية ، وفى أيامه هدم البربر بقية قصور جده الناصر ، فطوِى بخرابها بساط الدنيا ، وذهبت بهجة الأيام ، والله يسلط جنوده على من يشاء ، له العزة والجبروت ! ولما اشتد الكرب بالقرطبيين فر المستكفى ، وانتهت الرياسة بعد حين إلى أبى الحزم ابن جهور عميد الجماعة . فقال الدارمى :

— المستكفى هذا أبو ولادة الأديبة الشاعرة ؟

— نعم . وهى والحمد لله لم تُرزَأ بصفة من صفات أبيها . ثم التفت إلى بن زيدون سائلا :

— أتحضُر ندوتها يا أبا الوليد؟ فمد ابن زيدون شفته السفلى فى أسف وقال:

— أنَّى لمثلى أن ينال هذا الشرف ؟ إن ندوتها يا سيدى لا تُفتح أبوابها لمثلى . أتعرف يا أبا مروان أننى لا أزال كاتباً فى الديوان صغير المنزلة أنظر فى شئون أهل الذمة ؟ !

— كيف يا ابن أخى ؟ لقد كنت عند ابن جهور منذ أيام ، وجاء ذكرك فى المجلس ، فأثنى عليك وأشاد بذكائك وعبقريتك .

— ولـكنه أمامى يا سيدى باب مبهم، ولغز مغلق، أنظر فى وجهه فأرى صفحة خلت من لمحات العواطف ، فأنت لا تعرف أراض هو أم ساخط ؟ أمستحسن هو أم مستقبح ؟ قدّمت إليه بالأمس رسالة أراد أن يبعث بها إلى أمير بطليوس ، و بذلت فى كتابتها جهداً ، و بلغت قمّة لم يصل إليها كاتب ، فلما عرضتها عليه وقرأها ، لم يزد على أن قال : لقد أطنبت يافتى! ثم انصرف عنى يخاطب الوزير محمد بن عباس ، كأن إنسانا من بنى آدم لم يكن له وجود بحجرته !

— إن الرجل يخافك يا أبا الوليد .

— يخافنى ؟!

— نعم فلقد لمحت ذلك من حديثى معه حين شبّهك بأبى الطيب المتنبى، والرجل داهية بعيد الغور ، فإنه لم يشبهك بهذا الشاعر بعينه إلا لما وصل إلى علمه من طموحك و بعد غاياتك ، فاحذر يا أبا الوليد وتجنّب مواطن الشبهات ، واحبس لسانك ما استطعت . فصاح ابن زيدون فيما يشبه الغضب :

— يجب أن يكون لمثلى آمال ومطامح، و إلا فلمن خُلقت خطيرات الأمور ؟

— مرحَى مرحَى ! إنى لأجد ريح الشرّ والفتنة .

— لا شرّ ولا فتنة يا أبا مروان ، ولـكن لا بد للمصدور أن ينفُث ، وللأسير أن يتمرّد على القِدّ .

— لا تعجَل أبا الوليد فالأمور مرهونة بأوقاتها ، ولا بد بعد الليلة الليلاء

من فجر باسم . كيف حالك مع الوزير ابن عبدوس ؟

— إنه صديق مُداجٍ وعدوٌّ محاذر

— حقاً لقد جمعته فى كلمة . وهنا تهيّأ الدارمى للقيام فصاح به ابن حيّان: يجب أن نعرف قبل أن نقوم من مقامنا ماذا كان يكتب هذا الفتى العِربيد. فقال ابن زيدون :

— كنت أكتب أبياتا لعائشة بنت غالب وقد جئتما قبل أن أتمّها ، وربما مزقتها وعدلت عن إرسالها . فأمال ابن حيّان رأسه إلى الخلف ، ورفع حاجبيه فى سهوم وقال :

— عائشة بنت غالب ؟ ! إنها فتاة مهذّبة ، يحضُر ندوتها كبراء المدينة وأدباؤها ، ولكنها شؤم على الرجال ، فاحذر من براثنها يا أخى ، فإنها إذا نَشِبتْ قتلت . ثم إن بعض قالة السوء يهمسون بأنها جاسوسة لابن الأذفونش ، ولكنى لا أثق بكل ما يقال ، لأن الكلام صدًى لما فى النفوس من حب وبغض . ثم مدّ يده إلى ابن زيدون وهو يقول : عم مساء يا صريع الغوانى ، وابتعد ما استطعت عن شباكهن ، وكن كما تقول :

وإنى لتنهانى نُهاى عن التى   أشاد بها الواشى ، ويعقِلنى عقلى

(٢)

يمتدّ « طريق الخلفاء » على شاطئ الوادى الكبير بالجهة الجنوبية من قرطبة ، وهو طريق طويل عظيم الاتساع ، قامت على جانبيه الأشجار ، واتّسقت به دور الأمراء والوزراء والعظماء وكبار رجال الدولة ، فبدت ضخمة سامقة ، وغُرست أمامها الحدائق مبتسمة ناضرة فيّاحة تُزْهَى بما حوت من أزهار غريبة النوع رائعة الألوان .

وكان بين هذه الدور دار يدل مظهرها على مجد قديم كادت تعبَث به يد البِلى ، وعزّ سالف داعبته عوادى الأيام . دار ينطق كل حجر فيها بأنه شهد عظمة وسلطاناً ، وشهد جنداً وأعواناً ، وشهد وفود الأرض جاثية على عتبتها بين يأس ورجاء ، وفى استخذاء وذلّة . ولكن هذا الحجر يكمُن اليوم فى جداره باسر الوجه مستكينا ، وقد عبِثت به الأنواء ، ونالت منه عواصف الرياح . والهرَم يدرك كل شىء حتى البناء . والدور كالبلاد والعباد يصانعها السعد ويسطو عليها الشقاء . بنى هذه الدار الناصر لدين الله أعظم خلفاء الأندلس ، فتوارثها أبناؤه إلى أن انتهت إلى محمد بن عبد الرحمن الملقب بالمستكفى بالله ، فلو كانت كتابا لضمّت دفّتاه ما دار على الأندلس فى هذه الفَترة من خير وشر ، ونعيم وبلاء .

كانت الشمس لا تزال تتثاءب فى خدرها بعد صجعة ليل طويل ، وكانت أشعتها تتكسّر على صفحة النهر الكبير كأنها كانت تقبّله قُبلة الصباح ، وكان الطريق هادئاً خالياً من السابلة إلا قليلا ، فلم تكن تسمع به إلا أصوات الملاحين من بعيد ، وهم منحدرون إلى إشبيلية ، أو صوت خادم طروب هزّتها الأريحيَّة وهى تنظف بعض الحُجَر ، فانطلقت فى نَغَم خافت تعيد الأغنية التى سمِعتها بالأمس من بعض القِيان اللاتى كن يغنّين لسيدها فى مجلس أنسه وشرابه . ومجالس الأنس والشراب بقرطبة لا تكاد تخلو منها ليلة فى بيت عظيم أو أمير . إن الأندلسيين خُلقوا للطرب ، وعاشوا على الطرب ، ولو فجأهم الموت ما لقِيَهم إلا بين زِقّ وعود .

تيقظت ولادة بنت المستكفى فى هذا الصباح كما يتفتح الزهر الوسنان بلّله الندى ، وداعب أوراقه النسيم ، فأسرعت إليها وصيفتها مهجة القرطبية تحيّيها وتدلّلها فى محبة وشغف ، كما تدلّل الأم طفلتها اللعوب .

وكانت ولادة فى الثامنة عشرة ، رائعة الطلعة ، فاتنة مباهر الحسن . وجه لم تُشرق الشمس على أنضر منه ولا أصبح ، وقسمات تأنّق فى صنعها الجمال ، وقوام لو أدرك عهده الإغريق لجعلوا منه تمثالا لكل ما يتخيّلونه من رشاقة ولدانة واتساق خَلْق . وكان أجملَ ما فيها تلك النظرات الساحرة التى تنفُذ إلى كل قلب ، وذلك الشمم العَبْشمىّ الذى تراه فتحبه وتهابه ، والذى يوحى إليك أن الجمال معنى من المعانى التى يعجِز البيان عن وصفها ببيان .

وولادة — إلى كل هذا — أديبة شاعرة ، يغشَى ندوتها كبار الأدباء والشعراء ، فيرون أجمل ما يُرى ، ويسمعون أحسن ما يُسمع .

قامت ولادة من سريرها فنالت ما تحب من طعام ، وبعد لأى همّت بارتداء ثيابها ، فأعدَّت لها مهجة ثوباً من الحرير البنفسَجى الموشّى بالذهب ، أُتقن نسجه ، وأحكم تفصيله ، فوقفت أمام مرآتها ، وقد لاح فى وجهها شيء من الدهَش ، كأنها كانت تبحث لها عن مثيلة بقرطبة فوجدتها فى المرآة ! وهنا قالت مهجة وهى تنظر إلى صاحبتها فى إعجاب وزهو :

— لو علم ابن جهور بأن مناسج الحرير بالمَرِّية ستخرج مثل هذا الثوب فى فتنته وإغرائه ، لمنع ورود كل ثوب مثله إلى قرطبة . فتهانفت ولادة وقالت :

— إن هذا الرجل عبقرىّ فى الرياء يا مهجة ، وهو لا يُظهر التحرّج والزهد إلا تملّقا للفقهاء الذين لو أرادوا لأطاحوه عن عرشه فى لمحة عين .

— إنه يا سيدتى أمر بمنع شرب الخمر ، وكان الاحتفاء بكسر دِنانها عظيما فى ميدان الجامع الكبير ، وقد مدحه شاعر قرطبة أحمد بن زيدون بقصيدة رائعة جاء فيها :

أباح حمَى الخمرِ الخبيثةِ حائطاً ... حمَى الدينِ من أن يُستباحَ له حدُّ
فطوّق باستئصالها المصرَ مِنَّةً ... يكاد يؤدى شكرَها الحجرُ الصلد
هِى الرجسُ إن يُذهبْه عنه فمحسنٌ ... شهيرُ الأيادى ما لآلائه جَحد
مظَنَّةُ آثامٍ ، وأمُّ كبائر ... يقصِّر عن أدنى معايبها العدّ

فرفعت ولادة رأسها كالمفكرة وقالت :

— ابن زيدون ؟ ! هذا فتى يزاحم حول سلّم المجد ، ولكنه يلاقى أقداماً أثبت من قدمه ، وسواعد أشدّ من ساعده . وهو يبيع نفسه رخيصة فى سوق الحسان . والمجدُ وعبثُ الشباب لا يجتمعان !

— إنه يا سيدتى فتنة أهل قرطبة ، و بطل أحلام كل فتاة ، وقد أصبح شعره أنشودة فى كل فم ، وقُرْطاً فى كل أذن . غنَّى به المغنون ، وأنشده المنشدون ، ولا يكاد يخلو مجلس فى قرطبة من إنشاد أبيات له تهتزُّ لها الأعطاف ، وتطرَب النفوس .

ذهبتُ يوم الثلاثاء الفائت على عادتى إلى دار مريم العَروضيّة ، لأحضُر بعض دروسها ، لأنها تعقِد فى دارها مجالس لتهذيب بنات العظماء والأشراف فى اللغة والأدب .

— أعرِفها وأعرف أن كثيراً من أدباء قرطبة يأخذون عنها ، وأنها تحفظ « الكامل » للمبرِّد « والنوادر » لأبى على القالى .

— نعم يا سيدتى . جلسنا فى بهو فسيح فى دارها ، وكان هناك بعض الفتيات الجميلات اللاتى تظهر عليهن آثار النعمة ، ودلائل الثراء ، وأخذت مريم تتحدث عن الشعر فى إشبيلية ، وما يبدو من الفروق بينه و بين شعر قرطبة ، ثم أنشأت تشيد بشاعر إشبيلىّ سمّته أبا بكر ، زعمت أن له غزلا رقيقاً ، وأسلوباً ناعماً ، وخيالا لطيفاً ، وأنشدت له :

يا أبدع الخلق بلا مِرْيةٍ وجهك فيه فتنة الناظرينْ

لا سيّما إذ نلتقي خطرةً فيغابُ الورد على الياسمين

وما كادت تنشد البيتين يا سيدتى حتى انبرت لها فتاة طلقة اللسان ، حاضرة الخاطر قويّة العارضة تقول :

إننى لا أريد أن أباهى بمدينتى يا سيدتى ، فكل ما يشرّف بقعة من الأندلس يشرفنى ، والشعر والأدب ليس لهما وطن ، ونحن نعتز بأشعار المشارقة كما نعتز بأشعارنا ، ولكن الشاعر الإشبيليّ الذى أطنبت فى الثناء عليه لا يصل إلى مواطئ أقدام شاعرنا ابن زيدون . أمّا بيته الأول فهُراء مكرر لم يُرد به إلا الدخول على البيت الثانى ، وكلمة « بلا مرية » حشو سخيف . على أنى لا أرى فى البيت الثانى إلا معنى مبذولا ملقى على الطرق ، فتشبيه الخد بالورد والياسمين تشبيه قديم ، سئم منه الشعر ، ومجّه الشعراء . فأسرعت مريم تقول : نعم يا فتاتى، إن تشبيه الخد بالورد والياسمين قديم ، ولكن الشاعر كوّن من هذا التشبيه صورة جديدة ، هى صورة ما يدرك الحبيب من الخجل عند ملاقاة حبيبه فجأة ، فتطغى حمرة خديه على بياضهما .

فهزّت الفتاة رأسها فى عناد وقالت :

وتعجبك « لا سيما » هذه التى جاءت فى أول البيت فكانت أشبه بعبارات الفقهاء ؟ أين ذلك يا سيدتى من قول ابن زيدون ؟

ألداعيكَ مجيبُ ؟ أم لشاكيك طبيبُ ؟

يا قريباً حين ينأى حاضراً حين يغيب !

كيف يسلوكَ محبٌ زانه منك حبيب ؟
إنما أنتَ نسيمٌ تتلقّاه القـــلوب

هذا شعر لو نسب إلى ابن المعتز لأنساه نكبته ، ولأسلاه عن زوال ملـكه .

وهنا صاحت فتاة عصبيّة المِزاج تقول :

نعم إنه الشعر الذى يُغنِّى وحدَه بغير موسيقى . والمؤلم أن يشبِّه دعاة الأدب شاعرنا بالبحترى ، وهل يستطيع البحترى أن يقول ؟

أنىَّ تضيّع عهدَكْ ؟ أم كيف تُخلف وعدَكْ ؟
وقد رأتك الأمانى رضاً فلم تتعدَّكْ
ياليت شعرى وعندى ماليس فى الحب عندك
هل طال ليلُك بعدى كطول ليلىَ بعدك ؟
سلنى حياتى أهبْها فلست أملك ردّك
الدهر عبدىَ لما أصبحتُ فى الحبِّ عبدَك

فقالت مريم : هذا كلام لا مِراء فى حسنه ، وفضل شاعرنا ابن زيدون لا يجحده جاحد ، حتى لقد قال بعض أدبائنا : من لِبس البياض ، وتختّم بالعقيق ، وقرأ لأبى عمرو ، وتفقّه للشافعى ، وروى شعر ابن زيدون فقد استكمل الظَرْف كله .

وهنا تحرّكت ولادة فى مجلسها متأففة وقد بدا على وجهها السأم وقالت :

— أنت متعصّبة لهذا الرجل يا مهجة .

— لست متعصبة ، ولكنى أحسُّ لشعره حلاوة لا أجدها فى سواه ،

ولا أعيب على الرجل إلا شيئاً واحداً : هو صداقته لعائشة بنت غالب .
أتعرفينها يا سيدتى ؟

— أعرفها ، وأعرف أنها فتاة غيور ، تُظهر للناس غير ما تبطن ، وأن لها نفس نِمرة فى جسم امرأة ، وأن صاحبك ابن زيدون صبٌّ بها مفتون .

— من أخبرك بهذا يا سيدتى ؟

— أخبرتنى امرأة تعرف كل شىء فى هذه المدينة ، فلو غاب دلو فى الوادى الكبير لعرفت مستقرّه ومستودعه . ولكنها غِرْبال أسرار . تقول لك الخبر فى صوت خافت . وتستحلفك بأغاظ الأيمان ألا تبوحى به لإنسان . فإذا تجاوزتك إلى الباب أخبرت خادمتك نفس الخبر . وكرّرت عليها نفس الأيمان . وهى من الخيِّرات الكريمات . تفنَى فى محبة أصدقائها ، ولا تأخذها رحمة فى البطش بأعدائها .

— من هذه بالله عليك ياسيدتى ؟

— كنت أظنك أذكى من ذلك وأفطن .

— ان اسمها يجرى على لسانى . ولكنى أبغض الرجم بالظنون . أليست هى نائلة الدمَشْقية ؟

— هى هى ياحبيبتى بعينها تحفة قرطبة . وعجوزها المدللة . وهل يخفى القمر ؟

— إنها امرأة بارعة أديبة . لها أسلوب عجيب فى اجتذاب الرجال . والتسلط عليهم و إخضاعهم لأمرها ، لا يوصد فى وجهها باب ، ولا تخلو منها

ندوة ، ولا تُحجب دونها أسرار القصور . ودارها ملتقَى شباب قرطبة ، حتى لكأنها حينما يئست من بشاشات الشباب ، أرادت أن تراها فى سواها . والغريزة إذا عجزت قنِعت بالنظر ، واكتفت بالخيال .

وبينما هى مهمرة فى الحديث ، إذ دخلت عُتبة جارية ولادة تقول : إن سيدتى نائلة الدمشقية حضرت الساعة ، وهى تنتظر فى بهو الورد . فنظرت ولادة إلى مهجة فى ابتسام وعجب وقالت :

— لو ذكرنا الشيطان ما جاءنا هكذا وثبا ! ماسبب هذه الزيارة فى تلك الساعة ياتُرَى ؟ فهزّت مهجة كتفيها ، ومطّت فمها تقول :

— أغلب الظن أنها جاءت للحديث وإطلاق عنان اللسان ، وذكر أخبار المدينة وما يجرى فيها من خير وشر .

— ولكنها مسلّية حقاً ، ولها أسلوب فى الحديث يقهرَك على الاستماع له ، ويجتذبك إلى الاشتراك فيه ، وهى مزيّة لا يظفر بها ثرثار إلا فى النَدَرى . هلمّ إليها يا مهجة .

كانت نائلة الدمشقية وقد خنقت الستين لا تزال تحتفظ بأطياف هزيلة من الجمال الغابر ، فكانت تشبه حديقة أهملها صاحبها سنوات فصوّح فيها ما صوّح ، وذبُل ما ذبل ، وتهدّلت أغصان لم تمتدّ إليها يد بتشذيب ، وتهدّمت أسوار بقيت أنقاضها حولها صرعى حزينة كأنها ملّت طول القيام . أو لعلها كانت تشبه بيت شعر أصابه التحريف ، وتوالت عليه أغاليط الرواة ، حتى كاد يفقد وزنه ومعناه . أو مِزْهراً

ذهب طِلاؤه ، وتراخت أوتاره فأصبحت رناته طنيناً مائتاً ، وأصواتاً موصولة الأنين . أو رسالة غرام خُطّ على ما فيها من غزل ونسيب ، وأُبقى على ما بها من شكوى السهاد وتبريح السَقام .

كانت نائلة طويلة بادنة مترهِّلة اللحم ، سطت على وجهها التجاعيد ، وعلى جلدها آثار السنين ، فعجزت التطرية ، ولم تُجد الأدهان والأصباغ فى إصلاح ما أفسد الدهر إلا قليلا ، واستبدّت الطبيعة فأبت إلا أن تُظهر آثارها ، على الرغم مما يُبذل فى سبيل إخفائها من صنعة وفنون . كانت شاهداً صادقاً على جريمة السنين ، ومثلا قائماً لمن يترك خلفه أجيالا ليدخل فى جيل جديد . ومن العجيب أن الدهر مع عبثه بجمالها ، لم يستطع أن ينال من سحر عينيها وحسن صوتها ، فقد كان للحاظهما بريق ولألاء لا تعتزّ بهما فتاة فى العشرين ، وكان لصوتها رنين ونغم لم تظفر بمثلهما أفنان الخمائل .

دخلت ولادة البهو فتلقفّتها نائلة بين ذراعيها فى وَلَه وشغف ، وأخذت تمطر خديها قبلات كان لها صوت متلاحق كزقزقة العصافير فى الصباح ، و بعد أن حيّتها ابنة المستكفى فى سرور وترحيب انطلقت نائلة تقول :

— لا لا يا حبيبتى ! لقد أطلت هجرى ، وأصررت على قطيعتى على شدة حبى لك ، وطول حنينى إلى رؤيتك ! هذه هى المرة الثالثة التى أزورك فيها دون أن تسعَد دارى بالمسامة منك تشرق بها رحابها ، وتشمخ على السماء قبابها . لقد كان أبوك — عليه ألف رحمة — مولعاً بى ، مشغوفاً بمجالستى والاستماع إلى حديثى ، وكنت أُعرض عنه أحياناً ، فعاقبنى الله

بإعراض ابنته عنى . كان رجلا يقطر ظرْفاً وأدباً . ثم ضحكت وقالت :
وكان أعرف بسياسة الحياة منه بسياسة الملك . زرته بعد أن خُلع بيوم
واحد ، وقد انصرف عنه الناس ، وجفاه أقربهم إليه ، فأخذت أنضح
عنه الهم ، وأسرِّى عن نفسه بعض ما تجد بالفكاهات والأضاحيك ، حتى
زال عنه الحزن والأسى ، وعندما ودّعته شدّ على يدى وهو يقول باسما :
لو أن الناس كانوا فى وفائك يا نائلة لنسيت مرارة العزل ! والملك امرأة
فَروك ، لا تكاد تنعَم النفس بوصلها حتى تعانى صدّها وقطيعتها . فأجبته
مسرعة : أنتم يا بنى أمية وُلدتم ملوكا ، وستموتون ملوكا ، وإن لكم من
أخلاقكم وقوة نفوسكم تاجاً وصولجانا ، إذا فقدتم التاج والصولجان . هذا
كان حديثى مع أبيك ، وهذا كان آخر العهد به . والآن أصبحت أقاسى
الهجر والملال من فتاته المدلّلة اللعوب ولادة ! فابتسمت ولادة ابتسامة
مشرقة وقالت :

— إن هذه الفتاة يا سيدتى تُكنُّ لك أخلص الحب وأصدق الوفاء ،
ولولا وعكة أصابتنى ما حجبنى عن زيارتك حاجب .

— إنه البرد يا سيدتى ! حاذريه ولا تستهينى به ، فإنه كالحب يبدأ
خفيف الوقع ضعيف الأثر ، ثم يعظم ويستشرى حتى يصبح داء عضالا .
ثم اعتدلتْ فى جلستها وقالت :

— أتخرجين فى المساء يابنيّتى ؟ نزهة مثلا فى قارب فى ليالى البدر ،

أو قضاء ليلة فى مُنية الرُصافة ، أو تسلية مع بعض الصديقات فى حانة « راميرز » فإن بهذه الحانة فتيات أسبانيات لهن رقص عجيب .

— أحياناً قليلة يا سيدتى .

— أحسنت أحسنت يا بنيتى ! فإن هذه الدنيا أقصر من أن تضيع بين همّ وأحزان . ثم رمت ذراعيها إلى جانبيها فى ألم وحسرة وقالت :

— آه لو عرف الشباب ما وراء المشيب ! زارنى بالأمس الشيخ مجاهد الأنصارى خطيب مسجد أم سَلَمَة ، وهو رجل متزمّت متحرّج ، يخاف أن يتكلم فيأثم ، أو يُرسل نظرة فتهوى به فى قعر جهنم . وهو فقيه مُقَلَّص، ولا يلبَس « القالص » فوق رأسه بقرطبة إلا من حفظ الموطّأ للإمام مالك . لم يزرنى الشيخ إلا لأن له ابناً يريد أن يجعله مسجِّلا لأموال الزكاة ، بعد أن عرف صلتى بالوزير أبى حفص بن بُرْد . قابلنى وهو مطرق مغمَض العينين ، يجمع ثيابه فى تحرُّز كأنه يخشى أن يمسها طرف ثوبى . فقلت فى نفسى ساخرة : أفق أيها الأبله وافتح عينيك ، فإنك إن فعلت فلن تصاب بسوء ، وأقسم لو زرتنى من ثلاثين عاماً لحلقت فىّ كما يحلق النمرُ الفاتك ! أخبرنى بما شاء من شأن ابنه ، ورجانى فى أن ألح على الوزير فى قبوله ، ثم انطلق كأنه السيل المدّار يصف جهنم وما فيها من ألوان العذاب المقيم . فلما ذكّرته بأن الله واسع الرحمة ، وأنه غافر الذنب ، وقابل التوب . ذُعر كما يُذعر الصائد حين تجد طريدته منفذاً للفِرار ، وقال على الفور فى حدّة

بهذا يا سيدتى يخدع العصاة أنفسهم ، وإن الاعتماد على رحمة الله مطيّة العابثين . وحينئذ أردت أن أعابث الرجل فقلت :

ولِمَ خلق الله لنا النعم يا مولانا فى هـذه الدنيا ؟ فأخذ يغمغم فى حيرة ويقول : النعم ؟ النعم ؟ فقلت نعم النعم . لِمَ خلق لنا الجاه والمال ؟ لِمَ أبدع الأزهار الناضرة ، والثمار اليانعة ، والأطيار المغرِّدة ، والأنهار الدافقة ؟ لِمَ خلق الصبح السافر ، والأصيل الناعم ، والبدر الساهر ، والليل الساجى ؟ كل هـذه نعم عظيمة يا مولانا ، وفيها يقول جلّ شأنه : و« إن تعُدُّوا نعمة الله لا تُحصوها ، إن الإنسان لظلوم كفّار » . وكأنه خشِى أن أطيل فلبِس خُفّيه على عجل ، وانطلق خائفاً مذعوراً .

فتنهدت ولادة وقالت :

— عجيب أمر هؤلاء القوم يضيِّقون من فضل الله ما اتسع وعظُم . فأسرعت نائلة تقول :

— ولكنّ منهم من يستمتع بالنعيم المباح ، وتهزّه طرائف الشعر والأدب من غير أن يضيع لله حقاً . أخبرنى أبو عمرو المالَقى : أنه كان يزور الجبّانة فى يوم شديد القيظ ، فسعت به قدماه إلى مسجد هناك ، فلما بلغه التقى بخطيبه وكان رجلا حسن السَمت ، ظاهر الزهادة ، فلما ذهبا فى شئون من الحديث ، طلب إليه الخطيب أن يُنشده شعراً لبعض الأندلسيين فأنشده :

غصبوا الصباح فقسّموه خدوداً   واستوعبوا قُضُبَ الأراكِ قدودا
ورأَوْا حصَى الياقوت دون نحورهم   فتقلدوا شُهُبَ النجوم عقودا

فصاح الشيخ من الطرب ، وصفّق بيديه فى مرح خرج به عن وقاره ، فلما عاد إلى نفسه قال : اعذِرنى يابنىّ فشيئان يقهراننى ولا أملك نفسى عندهما : الصوت الحسن ، والشعر المطبوع الرقيق .

وسمعت أن محمد بن عبد الله قاضى الجماعة فى عهد الناصر خرج يوماً لحضور جِنازة ، وكان لرجل من إخوانه منزل بالقرب من مقبُرة قريش ، فعزم عليه فى الميل إليه فنزل ، وأحضر له طعاماً ، ودعا جارية له فغنّت :

طابت بطيب لِثاتكَ الأقداحُ　　وزها بحمرة وجهك التفاح

وإذا الربيع تنسَّمت أرواحه　　نمَّتْ بعَرف نسيمك الأرواح

وإذا الحنادسُ ألبست ظلماءها　　فضياء وجهك فى الدجى مصباح

فطرِب القاضى، وكتب الأبيات على يده ، ثم خرج للصلاة على الميت فرأى الناس الأبيات على ظهر يده ، وهو يكبّر على الجنازة . وقد كان هذا القاضى من أزهد الناس وأعدلهم حكماً . والحقيقة يا فتاتى أن الإنسان إذا خشِىَ ربه فى السر والعلانية ، واجتنب كبائر الإثم والعدوان ، فله أن ينعَم بكل ما خلق الله من متاع حلال . ثم حدّقت فى وجه ولادة كأنها تريد أن تستكشف ما وراءه من أسرار وقالت فى دُعابة :

— ومن الفائز الأول الآن فى خِطبة سيدة الحسن والجمال ؟

— أىُّ فوز وأىُّ حسن وجمال ياناائلة ؟ فتكلفت نائلة العبوس وقالت :

— أنت لا تكتمين عنى شيئاً يا بنيتى ، وما فائدة الكتمان وقد أصبح الأمر حديث الناس ، ومدار سَمرهم ؟ حتى كاد كل غصن فى حدائق قرطبة

ينادى صاحبه هامساً : ولادة وابن عبدوس ، ولادة وابن عبدوس !

— إن ابن عبدوس يزور ندوتى كل ليلة ، وهو فتى أديب شاعر ، عذب الحديث حلو النادرة .

— آه من عذوبة الحديث وحلاوة النادرة ! إنهما يا فتاتى أول ما ينصبه الرجل لنا من حبائل . سليني يا ولادة عن شئون الحياة قبل أن تفقديني . إننى سجلُّها الجامع الذى يجد فيه كل حائر ما يهديه و يسدّد خُطاه . ابن عبدوس رجل عظيم متألّق ، ابن عبدوس شاعر مجيد وكاتب فذّ . ابن عبدوس وزير له جاه ومكانة ، غير أنه ذئب لا يؤمن جانبه ، ولا تُرجى عواقبه ، وكفاه وصمة اسمه الأسبانىّ الذى يدل على سوء أصله ، والذى يجب أن يقصيه عن أن يأمُل فى الاتصال ببنات الخلفاء ، هذا أُسقطه من حسابى ، وأحسَب أنك تسقطينه من حسابك أيضاً ، و بين شباب قرطبة من ذوى الحسب والمجد من يهبون حياتهم ليشرُفوا بالتزوج بك ، ولكن الذى آخذه عليك يا بنيتى أنك طير لا يستقر على غصن ، ولا يطمئن إلى وَكن. أنت شديدة الطموح يا فتاتى ، وكلما ظفِرت بشىء هان عندك ، لأنك ظفرت به ، فطلبت غيره مما يصعب مناله . أنت تائهة فى بحر الحياة المائج ، والسفن تمرُّ بك ، فإذا تشبَّثت بسفينة ظهرت لك فى الأفق أخرى ، فغادرت الأولى وألقيت بنفسك إلى الثانية . إن مجلسك يحوى أكرم فتيان قرطبة أرومة ، وأشرفهم منبِتاً ، وأنت تُلهين هذا بابتسامة ، وهذا بهزّة رأس ، وهذا بكلمة طيبة ، وذاك بوعد كاذب ، لا لأنك لا تحبينهم

جميعاً ، بل لأنك ترغبين فى مهلة حتى يهتدى قلبك الحائر ، أو عقلك المملوء بالمطامح إلى من يحسُن اختياره ، ومن تتحقق به الغاية التى ترمين إليها . أنت يا سيدتى كالبخيل الذى حبس ماله فلا يبيع ولا يشترى مخافة أن يُغبن فى درهم أو درهمين . أسرعى الاختيار يا فتاتى ، فإن للشباب أواناً ، و إن الورد إذا ذبل لم يبق منه غير أشواكه ! أسرعى الاختيار يا ولادة ، وابتعدى عن كلٍّ ما يمتُّ إلى أصل قوطىّ أو بربرى ، فإنى لا أحب البربر . إنهم يُدلُّون علينا بطارق بن زياد ، وأنا لا أحب طارقهم هذا . وأين هو من موسى بن نصير أو من ابنه عبد العزيز الذى قتله البربر ؟

— دعينا بالله يا نائلة من ذكر البربر ومن ذكر الزواج ، وخذى فى الحديث عن المدينة وما فيها من أخبار وأسرار .

— المدينة هادئة ، ولـكنى أظنه هدوءاً لا يدوم ، إنه يا سيدتى هدوء الطفل الغضبان ، الذى طلب لُعبة فلم يظفَر بها ، فطفِق يبربر ويهمهم ، حتى ملّ البربرة والهمهمة فسكت على دخَل ، وتربص لفرصة الوثوب . إن القرطبيين يا ولادة لا يرضوْن بغير الخلفاء بديلا . إنهم يحبون الخلافة ، ويعشَقون مظاهرها ، ويحنون إلى مراسمها . هاتى لهم خليفة من فخّار ثم انظرى كيف يجلّونه ويبجلونه ! إنهم رضوا حيناً بحكم المنصور بن أبى عامر الحاجب ، لأنه بهرهم بتوالى فتوحه وانتصاره ، ولولا ذلك ما صبَروا عليه يوماً أو بعض يوم . وهذا الحكم الذى ابتدعه لنا ابن جهور — ثقى يا فتاتى

أنى أحب الرجل وأكبر فيه الإخلاص والنزاهة — هذا الحكم الذى يشترك فيه جماعة لسياسة الدولة وحياطتها لا أستطيع استساغته .

— إنهم يقولون إن ابن جهور نقله عن قدماء الإغريق والرومان .

— لا إغريق ولا رومان ياولادة . و إنما الرجل رأى رءوس من استبدّوا بالحكم قبله تتدحرج من عروشهم ، فاحتاط لحياته ، واختبأ وراء جماعة ليحكم من غير أن يكون له اسم الحاكم أو تبِعته .

— إنك تعرفين كل شىء يا نائلة !

— إننى أعرف سرّ كل رجل وسرّ كل امرأة فى هذه المدينة ، ولولا ذلك ما لقِيت منهم كلّ هذا التبجيل . إن الإنسان يخضعه الخوف ، ولا يخضعه بذل المعروف .

زارنى ابن زيدون منذ أيام فنصحت له أن يبتعد عن تلك المرأة التى يدعونها عائشة بنت غالب ، إنها أسبانية الأصل ، لئيمة المنبِت ، جاسوسة للأسبان و إن بالغت فى كتم أسرارها . وهى امرأة مخيفة ، تقتنص الرجال، وتُلزمهم التزوج بها ، حتى إذا سئمتهم قذفت بهم من حالق كما تقذفين بقشرة البرتقال . نصحت للفتى كثيراً ، وحدّثته بجملة من أخبارها ، وأخبرته بأنها ألقت شباكها مرّة على أبى القاسم ابن قاضى الجماعة ، فسدّت عليه المسالك ، واجتذبته بأفانينها ، فانقاد إليها مسحوراً مأخوذاً . ثم تزوجها وعاش فى جنة حبها كما يعيش الطائر فى قفص من ذهب ، فلما هدأت نار السحر ، وانقشعت عن عينيه الغيابة ، أراد أن يخرج من هذه

الجنة وأن يلوذ بغيرها من جنات الأندلس العالية ، ولكنها ما كادت تلمح في عينيه ما كان يدور فى نفسه من طلاقها ، حتى ضاعفت من إغرائها ونصبت حوله حبائلها ، غير أنّ شيئاً من ذلك لم يُفلح ، وتشبّث الفتى بالطلاق ، فلما يئست منه ، وعلمت أنه مطلقها لا محالة ، أرسلت فى طلبه فحضر إليها ، وكانت قد أعدّت قرصاً وشطرته شطرين ، ووضعت فى نصفه سمّا ، فلما همّ بوداعها بكت أشدّ بكاء ، وهمّت لعناقه وهى تقول والعَبرة تخنقها ، إن أمها أخبرتها أن الحبيبين إذا تناصفا قرصاً عند الوداع فلا بد أن يعود كل منهما إلى صاحبه ، لأن أحد نصفى القرص لا يفتأ الدهرَ يطلب قسيمه ، فصدّقها المسكين ، وقسمت القرص ، وأعطته النصف المشغول فأكله ، وانصرف إلى داره ، ولم تمرّ به ساعات حتى كان من سكان القبور .

وما كاد ابن زيدون يسمع مني هذا الخبر حتى ذُعر واصفر لونه ، وهاله الأمر ، وأكثرُ ظنى أنه سينفلت منها قبل أن تُحكم انطباق الشبكة . إن ابن زيدون يا ولادة أبرع كاتب ، وأصدح شاعر فى جزيرة الأندلس جميعها ، وسيكون له شأن أىّ شأن ، وأولى بك أن تجتذبيه إلى ندوتك التى تزخَر بأدباء قرطبة وعظمائها .

فتململت ولادة فى مجلسها قلقة مضطربة ، وطاف برأسها أنها لم تسمع منذ الصباح إلا حديثاً عن ابن زيدون ، ومواهب ابن زيدون ، وفتنة الناس جميعاً بابن زيدون . وهى ترى فى الرجل وفى أدبه ما تحنّ إليه نفسها

الطموح ، ولـكنها كانت تخاف إن هى وصلت به حبالها ، واتخذته لها زوجاً ، أن يبقى كما هو أديباً شاعراً ، دون أن يكون له من صفات الرياسة وعلو المكانة ما يحقق آمالها .

أذهلتها هذه الأفكار عن جليستها وقتاً قصيراً ، ثم سمعت نفسها تقول :

— إن ندوتى يانائلة لا تتسع لصغار الـكتاب . وما كادت تتمُّ عبارتها حتى ملأت نائلة فضاء البهو قهقهة ، وصاحت فى عجب ودهشة :

— ابن زيدون من صغار الـكتّاب ؟! أتعيشين يا ابنة الخليفة فى قرطبة ، أم فوق السحاب ، أم وراء سدّ يأجوج ومأجوج ؟ أسرعى يا سيدتى فقد فاتك الركب ، ثم هاتى أذنك أحدثك بسرّ أقسمت على أن أكتمه وألا أبوح به لأحد . ثم قالت فى صوت خافت : إن ابن جهور يضع عليه عينه ليوليه منصب الوزارة بعد وقت قصير .

فظهرت الدهشة على وجه ولادة ، وأحسّت نائلة أنها تشكّ فى صلتها بابن جهور ، وفى أنه يتخذ منها موضعاً لسرّه ، فقالت فى هدوء :

— إن ابن جهور رجل داهية قنّاص للفرص ، يعرف أين يجد ما يطلبه ، ويعرف كيف يستعين لما يطلبه ، وقد عرَف صلتى بالوزراء وكبار الدولة ورؤساء الجماعة ، وعرف أن أخبار قرطبة تتزاحم على بابى كما يتزاحم الموج على ساحل البحر الأخضر ، فليس بعجيب يا سيدتى أن يزورنى بين الحين والحين ، وليس بعجيب أن يتحدّث إلىّ فى شئون الدولة . وقد جرى ذكر ابن زيدون على لسانى عند ما زارنى آخر مرة ورأيت وجهه

ينقبض و ينبسط هكذا كما تنقبض وتنبسط يدى هـذه . فقلت له : ألا يعجبك الرجل ؟ فابتسم وقال : يعجبنى ، ولـكن الذى أخشاه أن يجنى عليه ذكاؤه ، وتتعثر به مطامحه . هذه كانت عبارة الرجل كما قالها . فقلت له : إنه خير لك ألف مرة من وزرائك المهازيل عبيد الحسان ، الذين هم دائماً زينة المحافل ، وهزيمة الجحافل ، والذين لا يحبون أن يروا كأساً فارغة أو مملوءة : فإن كانت فارغة ملئوها ، و إن كانت مملوءة أفرغوها فى بطونهم . فابتسم ابن جهور متألماً وقال : وابن زيدون صاحبك أسبقُهم فى هذا الميدان ، وأخبرهم بقلوب الحسان ، وقد سمعت أخيراً بصلته بعائشة بنت غالب ، وأنت تعلمين من أمرها أكثر مما أعلم . فاجترأت على الكذب وصحت فى وجهه : إنه تركها وقطع صلته بها . فأجاب : هذا حسن ، هذا حسن . ثم هزّ كتفى بيده مازحاً وقال : إن ابن زيدون رجل ستطلبه المناصب قبل أن يطلبها ، وثق أنه سيكون وزيراً بعد أيام . فقلت له : إن الدولة فى أشد الحاجة إلى رأيه وإلى قلمه وإلى دهائه ، وإن حبّ القرطبيين له سيجمع حول دولتك الكلمة ، ويحول دون الثورات التى هزّت عروش من سبقوك ، فهل أسمع غداً أنك اخترته وزيراً ؟

ثم اتجهت إلى ولادة وقالت : أتعجبك هذه الصراحة يا فتاتى ؟ فتكلفت ولادة الابتسام وقالت :

— وبم أجابك ؟

— لم يقل شيئاً ، غير أنه حينما همّ بالقيام همس فى أذنى قائلا : لقد

تبسّطنا الليلة فى الحديث فوق ما كنت أريد يا نائلة ، فا كتُمى هذا السر واجعليه بينى و بينك ، ولا تشرَكى فيه ثالثاً .

ثم قهقهت وغمزت بعينها وقالت :

— أرأيت كيف أنى حِفظت السر ولم أشرَكْ فيه ثالثاً ؟

— وعلى هذا سيصل ابن زيدون إلى منصب الوزارة غداً أو بعد غد ؟

— بعد ثلاثة أيام ، ودعينى الآن أذكر لك ما قدِمت لأجله ، إنى سأدعو ابن زيدون وأصحابه من كبار الكتاب والشعراء والوزراء ، وسأدعو أجمل فتيات قرطبة وأشرف أسرها ، وستكون ليلة مشرقة ضاحكة قلّ أن يجود بمثلها الزمان . وقد جئت لأدعوك ، فإن ندوة لا تكون بها ولادة بنت المستكفى تفقد روح المرح والجمال والبهجة والسرور. أرجو يا سيدتى أن تشرّفينى بقبول هذه الدعوة .

ففكرت ولادة قليلا، ومرّ بخيالها أن القدَر يريد أن يجمعها بابن زيدون، وأنها كيفما حاولت لا تستطيع الفكاك من أيدى القدر . فأجابت :

— إنى أقبل هذه الدعوة مسرورة مغتبطة ، وأشكرك أجزل الشكر على هذه العناية .

وتحركت نائلة للقيام ، وتكررت القُبُلات للوداع ، وغادرت البهو بعد أن ملأته حديثاً مختلف الفنون ، كثير الشجون .

وما كادت تستوى على مِحفّتها حتى أمرت حامليها أن يذهبوا بها إلى

دار ابن زيدون لتدعوه إلى صنيعها . فلما دخلت عليه رأته حزيناً مهموماً ، فسألته عمّا به فى ذعر وقلق فقال :

— لقد نصحنى كل صديق باجتناب عائشة ، وكثيراً ما حذّرتنى من التزوج بها ، ولكنى أخاف عاقبة مغاضبتها ، ولا أجد فى نفسى من الجرأة ما يمكّننى من قطع حبالها .

فضحكت نائلة وقالت :

— أهذا كل ما يقلق بالك ، ويكدر صفاء وجهك الوسيم ؟ اكتب إليها الآن رسالة موجزة فاصلة تقطع كل ما بينكما من صداقة ، ولا تبال ولا تأبه لما تجرّ من عواقب .

— لا أستطيع يا نائلة وأخاف . . . . فقاطعته فى حزم :

— اكتب يا أبا الوليد ، واترك الأمر لى ، فإن الخوف من الثعبان لا يقتل الثعبان . إن جاريتها « غالية » جاسوسة لى عليها منذ زمن بعيد ، وسأعمل كل ما أستطيع لأجنّبك شرّها . قم يا بنىّ فإن الوزارة ترفّ بجناحيها فوق بابك ، وقد خدعت ابن جهور وأخبرته كذباً أنك هجرتها وسللت ثيابك عن ثيابها . فقام ابن زيدون إلى أوراقه يتعثّر ، وكتب بعد تردّد :

« هذه آخر رسالة إليك ، فلا تطمعى بعدها فى لقاء ، وحصّنى نفسك باليأس ، فإن نفسى إذا انصرفت عن الشىء فلن تعود إليه »

ونادى خادمه عليًا وأمره أن يسرع بالرسالة إلى دار عائشة . ثم اتجه إلى نائلة يقول :

أسمعت بقصة طارق بن زياد حين أحرق سفنه على شاطئ بحر الزقاق ؟ أنا اليوم أحرقت سفنى ، ولله الأمر من قبل ومن بعد !

٣

عرضنا على القارئ صورة لنائلة الدمشقية بقدر ما يستطيع القلم أن يصوّر ، وتركناه يستشفّ صفاتها وطبائعها وأسلوب حياتها من حديثها الفياض الطويل الذيول ، الحائر المذاهب ، الذى يطرُق كلّ باب ، ويسلك كل سبيل . ولا نريد أن نتبرع للقارئ بذكر ما نعلم من حقيقة مِزاجها وفلسفتها فى الحياة ، حتى لا نفسد عليه نهج تفكيره . على أنه قد يصل بنفسه وبالقليل مما مرّ ويمرّ عليه من أحوالها إلى أكثر مما نعلمه ، أو إلى أدقّ مما نزعم أننا نعلمه . وأعظم ما يفسد على المرء تفكيره أو يشوّه خياله ، أن تخبره بكل شيء فلا تدع لتفكيره أو خياله مجالا يجول فيه ، ويخلُق من الصور ما تطمئن إليه نفسه .

كانت أسرة نائلة من الأسر الطارئة على الأندلس ، استدعى عبد الرحمن الناصر لدين الله جدّها من الشأم سنة ثلاثين وثلاثمائة ، وكان ذا معرفة بزراعة الأرض وطرق استنبات الفاكهة ، فوكل إليه شئون ضياعه الواسعة ، فقام عليها أحسن قيام ، وأشرف أدق إشراف ، وبذل فيها من جهده وفنّه خير ما يبذُل العامل القوىّ الأمين ، حتى أصبحت بعد سنوات جنات وافرة الثمار ، كثيرة الغلّة ، فمنحه الخليفة جزاء إخلاصه

أرضاً تقرب من قرطبة وتمتدّ على شاطئ الوادى الكبير إلى مسافة بعيدة ، فعمل فيها الدمشقى جادّا ، ونقل إليها من الشام كثيراً من أشجار الفاكهة مما جعلها مضرِب المثل فى النماء والازدهار ، وأخرجت من أنواع الثمار ما يندُر أن يكون له مثيل فى المشرق ، فزاد دَخْله ، وعظمت ثروته وأصبح من كبار أثرياء المدينة . ولما أدركته المنيّة ، ترك ثروته لابنه الذى لم يرزق سواه . وكان ابنه قد تزوج فتاة جميلة لها مجد ومكانة وثروة ، فولدت له نائلة . ثم مرّت سنون مات فى غضونها أبو نائلة وترك لها مالا وجاهاً . وتزوجت بعد وفاته أحد أبناء عمومتها فسعِدت بزواجها ، غير أن سعادتها لم تدم طويلا فمات لها ولد فى ريعانه ، ثم قُتل زوجها فى أعوام الفتنة ، قتله البربر فيمن قتلوا فى ذلك اليوم العصيب حين دخلوا قرطبة عَنوة لإعادة المستعين بالله إلى عرش ملكه . وقد حزِنت نائلة لفقد زوجها ، غير أن الحزن ككل شىء فى هذا الوجود قلِق ملول ، لا يلازم أصحابه طويلا . فما كاد يمرّ عام أو بعض عام حتى عادت إلى مرحها وما فطرت عليه من لهو وإسراف . كان لها مال وجمال وفراغ ، وكانت لها ثروة من أدب وتثقيف ولطف حديث ودُعابة حلوة ، وكان أظهر ما تمتاز به بين أترابها إجادتها اللغة الأسبانية ، شُغفت بها منذ نشأتها ، وتلقّتها عن أساتذة من اليهود والقساوسة الأسبان . كانت امرأة ضحوكا تحب الحياة وتعشَق كلّ ما فيها من بهجة ونعيم ، فأصبحت ندوتها حافلة بوزراء قرطبة وعظمائها وأدبائها .

جلست نائلة فى سريرها وقد ارتفع الضحا ، فأقبل عليها جواريها ليقمن بواجب الخدمة على عادتهن فى كل صباح ، فهذه تملأ أخاديد الوجه بالمساحيق ، وهذه تكحّل العينين وتزجّج الحاجبين ، وهذه تطارد كلّ شعرة بيضاء فى رأسها نصل عنها الخِضاب ، فتعيدها سوداء كحالك الليل ، وهذه تدلُك الساقين الباردتين لتردّ إليهما حرارة الحياة . وجملة القول أنهن كن يُنشئنها إنشاء فى كل صباح ، ويصانعن جيش الطبيعة التتارىّ المدمِّر بألوان من الخداع لا تجوز عليه ولا على الناس .

جلست نائلة فى سريرها تتثاءب فى تكاسل ، ثم دعت إليها سُعْدى قَهْرَمانة القصر فاتجهت إليها وقالت :

— أريد أن تبذُلى كلّ فنونك فى أن تكون حفلة الليلة من أروع ما صُنع بقرطبة من حفلات ، لا تدّخرى مالا ، ولا تتحرّجى من لوم المتزمّتين . وقد أعلمتك أمس بضيوفى ، ولكل منهم ميل ، ولكل منهم نزعة ، فأعدّى لكل واحد ما ترتاح إليه نفسه ، ثم أعدّى لهم جميعاً ما يبعث المرح ويطلق النفوس المكبوتة . أريد أن تتحدث قرطبة كلها بما يكون فى هذه الليلة من مبتدَعات السرور ، أريد أن أعيد بها عظمة الأندلس ، ومرح الأندلس ، وعبث الأندلس ، فماذا تقولين ؟

فأطرقت سعدى كالمفكرة ، وأخذت تمرّ بسبابتها فوق جبهتها ثم قالت :

— أما أنواع الطعام وألوانه فقد دوّنتها فى صحيفة بالأمس ، وهى تجمع

كل ما يخطُر وما لا يخطر ببال من لذائذ الطعام ، و بقبو القصر كلّ صنوف الشراب ، وكل رحيق مختوم مزاجه من تسنيم . أما ضروب اللهو الأخرى فإني أنتظر أمرك فيها .

— أرسلي إلى « غاية المنى » المغنية ، و إلى « جُمانة » الراقصة ، ثم إلى الراقصات الأسبانيات « بجانة راميرز » . وادعى « الزرافة » المضحك المخرق ، ولا تنسيْ يا سعدى شيئاً مما يبهج النفس و يثير الطرب . وهذا مفتاح خزانتي فخذى منها من المال ما شئت .

وما كادت سعدى تغادر الغرفة حتى دخلت إحدى جوّاريها لتنبئها بأن امرأة محجّبة الوجه تُلحّ فى لقائها ، وتأبى أن تبوح باسمها ، أو تذكر حاجتها . فأطرقت نائلة طويلا، ثم رفعت رأسها وقد طافت بوجهها ابتسامة طائرة ، وقالت : دعيها تدخل يا نشوة . فدخلت بعد قليل امرأة ملفّفة بخمارها ، كأنها قطعة من الليل ، فلما جاوزت باب الغرفة ، رفعت قناعها فإذا هي « غالية » جارية عائشة بنت غالب . و بعد أن حيّت نائلة قالت :

— إن الحرب يا سيدتى فى دارنا قد صُفّت جنودها ، وأُرهفت سيوفها ، ولن تمضى أيام حتى يندلع لهيبها فى أرجاء قرطبة .

— أعرف يا غالية أن عائشة ممن يحرق مدينة بأسرها ليقتل فيها عدوا واحدا ، وأعرف أنها لن تترك لعدوها فرصة ليُعدّ عُدته أو يأخذ حِذْره ، ولذلك سبقت للاستعانة بك لتكونى ناقوس الخطر بيننا و بينها حتى نستطيع إحباط كل شرّ تدبّره ، و إخماد كل نار تشعلها . ماذا فعلت حينما وصلت إليها رسالة ابن زيدون ؟

— أرأيت جبال النار يا سيدتى ؟ كانت جبل نار . أرأيت البحر الثائر حينما يشتد النوء ، وتعصف الزعازع ؟ كانت البحر الثائر . أرأيت . . . .

— كفى يا غالية ! أعرف كل هذا وأكثر من هذا ، ولكنى أريد أن أعرف ما اعتزمته ، أريد أن أعرف السلاح الأول الذى اختارته ، ثم ناحية الهجوم التى تصوّب إليها سهامها .

— إن سلاحها الأول مسموم قاتل يا سيدتى ، وهو أحطّ سلاح وأحقره ، وقد تبيَّنت من حديثها أن سيدى ابن زيدون أيام تدلُّهه فى هواها ، لم يحترس ولم يحترز ، فكان يبعث إليها برسائل فيها سخرية وتندّر واستخفاف بعميد الجماعة ابن جهور ورجال دولته . وقد حفِظت الملعونة هذه الرسائل فى خزانتها لتَشهرَها فى وجهه إذا حدثته نفسه بالانفلات من يديها . وأعلنت بالأمس فى صراحة أنها ستضع هذه الرسائل فى يد ابن جهور .

— ويل للفاجرة ! إن لها شيطانا عبقريا . أهكذا ونحن على أبواب الوزارة تنقضّ علينا هذه الحيّة الرقطاء لتفسد كل شىء ؟ ثم صمتت طويلا وقالت :

— سأزورها غداً يا غالية ثم يكون ما يكون . أين تضع هذه الرسائل ؟

— فى خزانة بجانب مرآتها بالغرفة الغربية .

— وأين تحفظ مفتاح الخزانة ؟

— إنها لا تتركه يا سيدتى فى يقظة أوفى منام ، فهو دائماً معلّق بخيط من حرير فى عنقها .

— حسن يا غالية ، حسن جداً . وهنا عادت إلى وجه نائلة ابتسامته ، ومدّت يدها تحت وسادتها ، فأخرجت قبضة من دنانير ألقتها فى يد غالية وهى تقول : شكراً يا فتاة . إن خبرك هذا يساوى أضعاف هذه الدنانير . ثم سألت كأن خاطراً جديداً عرض لها :

— ألا يزال ذلك الأسبانى الطالب بجامعة قرطبة يزورها ؟

— يزورها الآن قليلا يا سيدتى .

— هل بينها و بينه صلة غرام ؟ فابتسمت غالية وقالت :

— لا يا سيدتى ، إنه شاب دميم سقيم الجسم ، لا يتحدث إلاّ عن دروسه بالجامعة ، وأساتذته بالجامعة .

— لعل وراء الأكمة ما وراءها يا غالية !

— يجوز يا سيدتى ، ولكن لا يظهر لى إلى الآن من زيارته شىء إلاّ أن عائشة تعطف عليه لأنه أسبانى ، ولأنه طالب علم فقير .

— ما اسمه ؟

— أسبيوتو . وهو يدرس الطب على ابن زُهْر .

— أسبيوتو ! يدرس الطب على ابن زهر ! ثم تنهّدَت وقالت : ندع هذا الرجل الآن . ولكن افتحى عينيك يا غالية والله معك ومعنا . فشكرتها الفتاة وخرجت محجّبة كما دخلت .

وجاء المساء ، وتوافد على القصر وزراء قرطبة وعظماؤها وشعراؤها ، وأديبات قرطبة وكرائم أسرها . وكان بين الجمع من كبار المدعوّين أبو الوليد محمد بن عميد الجماعة ، وأبو حفص بن بُرْد ، وأبو مروان بن حيان المؤرّخ ، وابن زيدون ، وابن عبدوس ، وابن الحنّاط الكفيف الشاعر الطبيب . وكان بين المدعوات أم العلاء الحِجارية الأديبة الشاعرة ، ومريم العَروضية مولاة ابن غَلْبون ، وقد ازدان الجمع بكثير من الفتيات اللاتى نشأن فى النعيم ، ودرجن فى باحة العز والثراء ، وصوّرهن الله فتنة لخلق الله فى هذه الأرض . والجمال العربىّ الأسبانىّ مزيج عجيب من سحر الشرق وقسامة الغرب ، وصوّرة رائعة لما تستطيع أن تُبدعه الصحراء الجافية إذا نعِمت بالظلّ والماء ، ونفحها بَرْد الشمال . وإذا أضيف إلى هذا الجمال لطف الحديث وأدب الطبع ونزاهة الُخلق ، كان فتنة العيون وشرك الألباب .

وبعد قليل وصلت بِحفّة ولادة ومهجة القرطبية إلى القصر ، فهُرِعت نائلة للقائهما ، وأقبل الضيوف إليهما يحيّونهما فى حفاوة وتكريم . وحينما تقدّم ابن زيدون لتحيّة ولادة ، قالت نائلة :

— هذا يا ابنة الخليفة شاعر قرطبة أحمد بن زيدون الذى جعل شعره مرايا للحسان ، فمدّت ولادة يدها إليه فى ابتسامة زهراء وقالت :

— أرجو أن تكون مراياك صادقة يا سيدى . فبُهِر ابن زيدون وتلعثم لسانه ، ثم قال :

— إننى يا سيدتى سأحطم مرايا شعرى كلها ، لأنها أصبحت لا تعجبنى ، وسأصطنع مرآة جديدة لأجمل فتـاة فى أرجاء الأندلس . فأرسلت ولادة ضحكة هادئة ، ثم قالت فى صوت ساحر ، ودهشة مصنوعة :

— أجمل فتاة فى أرجاء الأندلس ؟ من هى ؟ ليتنى كنت أعرفها !

— لو نظرتِ فى مرآتك لعرفتِها لأول نظرة . فاحمرّ وجهها من الخَفَر ، وأسبلت جفنيها على عينين تأتلقان بوميض الشباب ثم قالت :

— إنك لطيف مجامل يا أبا الوليد ، وإن لكم أيها الشعراء نمطا فى التعبير نعرفه ونعرف أنه محض خيال لا يسكن الحق فى بيت من أبياته ، ومع هذا نُلقى إليه بأنفسنا فى غير خوف أو حذر ، ونستمع إلى أنغامه فى شغف ، وندنو منه رويداً رويداً مأخوذاتٍ ، كأنه رُقْية ساحر .

— قرأت فى بعض أساطير قُدامَى الأسبان يا سيدتى : أن الله حينما خلق الجمال وسوّاه على أبدع صورة وأحسن تقويم ، انطلق مع الناس فى الأرض يضطرب فيما هم فيه يضطربون ويعيش كما يعيشون لا يمتاز عنهم بميزة ، ولا يختصّ بكرامة .

وبينما كان يشرب من غدير ساكن ، إذ رأى خيال وجهه فى الماء ، فبُهر لما راعه من قسامة وجهه ، ووسامة طلعته ، وإبداع الخالق العظيم فى تكوينه ، وسخِط على الناس لأنّ لهم عيوناً لا ترى ، وقلوباً لا تنبِض بعاطفة . ثم أخذ طريقه إلى مأواه حزيناً كاسف البال ، فلما طال حزنه ، هبط عليه مَلَك من السماء فبثّه الجمال آلامه ، وشكا إليه إهمال الناس إياه ،



إنك لطيف مجامل يا أبا الوليد . . .

وأن الله وهب له نعمة ولم يخلق من يقدُرها و يعرف لها قيمتها . فرقّ المَلك لشكواه ، واستجاب الله بعد قليل لدعائه ، وخلق فى الناس الحبّ ، فتهافتوا على الجمال ، وترامَوْا نحوه ، وأخذوا يصيحون حوله بكلام مختلط مضطرب ، حتى كادوا يُصمّون أذنيه . ففر الجمال منهم إلى الغابة فزِعاً مكدوداً ، برِما بما سمِع من صيحات جافية ، وأصوات نابية ، قد تدلّ على حبّ ، ولكنه حبٌّ عنيف قاس ، خلا من الحنان ، وأجدب من رقّة العاطفة . عاد الجمال يبكى ، فهبط عليه الملك غاضباً فى هذه المرة وقال : م تبكى أيها الجمال ؟ فأجابه : إننى أبكى لأن الله أنعم علىّ بنعمه عادت نقمة وشرا مستطيرا ، حتى أصبحت أوثر عليها الموت ، ليتنى كنت دميا ، فإنى أرى كل دميم يعيش فى أمن وعافية . أما أنا فمن الصباح إلى المساء يحيط بى قوم غلاظ عابسو الوجوه ، يدقّون صدورهم ، ويعوون فى وجهى عُواء الذئاب الجائعة ، إن كان هذا هو الحبّ ، وإن كان هذا الصياح اليابس فى لغة البشر تقديراً للجمال ، فإنى فى غنى عن هذا الحب ، وفى غنى عن هذا التقدير ، وأتمنى لو عدت كأول عهدى بين قوم لا قلوب لهم ، فقد كنت — على تعَس ما كنت فيه — قرير النفس هادئاً مطمئناً .

فأشفق عليه الملَك ، وسأل الله أن يمنح الناس الشعر ، فأجاب الله سؤله ، وخلق فيهم الشعر ، وخلق معه الغناء والموسيقى ، فاتجهت هذه الفنون إلى الجمال فى أدب المتوسل ، وذلة المستعطف ، وأرسلت أصواتها رخيمة صدّاحة ، تصوّر خوالج النفس ولواعجها فى نغَم تقف له الطيور فى

سمائها ، وتهتز الغصون فى أدواحها . وما كاد الجمال يُلاقى نحوها سمعه ، حتى أسكرته رنَّاتها ، وأطربته ألحانها . ومرّ به الملك وهو مضطجع فى ظلّ زيتونة مهدّلة الأفنان ، يجرى من تحتها غدير هادىء الخُطا ، يتعثر فوقه النسيم ، والشعراء ينشدون ، وآلات الطرب تعزف ، فقرب من الجمال وقال : لِمَ لا تنادينى اليوم ؟ فظهرت الحيرة على وجه الجمال وقال : لقد ناديتك يا أخى مرتين ، فلم أُرد أن أزعجك بعدهما ، فاذهب إلى السماء موفّقا ، فالأرض بخير ما لقيت حبا شريفا ، وجمالا عفيفاً .

— هذا عجيب . وقد رأيت فى إقليم طالَقة ، وهو من أقاليم إشبيلية ، تمثالا من المرمر لجارية لم تقع العين على أجمل منها ، وعلمت أن الأقدمين كانوا يدعونها إلاهة الجمال . أمّا أسطورتك هذه فلم أسمع بها ، ثم حدّقت فيه النظر وقالت: وأخشى يا أبا الوليد أن تكون من أساطير خيالك ! فأسرع ابن زيدون قائلا :

— لا يا سيدتى ، إن بيننا من اليهود من يتقنون الأسبانية ، وقد عثروا على آثار كثيرة للقوط فى بيت الحكمة بطليطلة بعد هزيمة «لُذَريق» ومن هذه الآثار كتب فى العلوم والشعر والأدب ترجمها اليهود وأذاعوا أسرارها. وبينما هما فى الحديث إذ أقبل عليهما الوزير ابن عبدوس ، وأخذ بيد ولادة قائلا : ألا تحب سيدتى أن تخرج إلى الحديقة قليلا لتتمتع بأنفاس النسيم فى هذه الليلة المقمرة قبل موعد العَشاء ؟ أنا واثق أنك لا تملّين حديث شاعرنا أبى الوليد ، ولكننا نترك فى الكأس بقية إلى ما بعد العشاء .

وقامت معه ولادة وهى تنظر إلى ابن زيدون نظرة مبهمة ، فيها اعتذار، وفيها ألم وإشفاق .

سارت ولادة وابن عبدوس فانطلقا مع الضيوف هنا وهناك فى أرجاء الحديقة يتجاذبون أطراف الحديث ، ويتناقلون الأفاكيه والنوادر فى مرح وابتهاج . وجلس ابن زيدون وحده مطرقا وقد لعِبت به هواجس نفسه ، وعصفت به لواعج حبه : أين أنا ؟ وأين كنت ؟ ومن هذه التى كانت بجانبى حتى أخذَها هذا المنحوس الطلعة ، الأغمُّ القفا ، الوغد المأفون ؟ أهذه ولادة ؟ ولادة بنت المستكفى التى صوّرها الله للجمال مثالا ، وجعلها للظَرف عنواناً ؟ ولادة التى تأنّقت القدرة الإلاهية فى خلقها لتكون نموذجا لما أعدّ الله للمؤمنين من ثواب فى جنات النعيم ، ومعنى مجسّما لما حاول الشعراء أن يبوحوا ببعضه فوقف بهم الخيال ، وضاق النظم ، وعجزت القافية ؟ وأين أنا منها ؟ أين منها ذلك الشاعر التائه المضطرب، الذى أضاع رَدَحا من شبابه فى غزل كاذب ، ونعيم موهوم ، وأبواب الجنة منه على قِيد خُطُوات، وحوراء الفردوس فى دار تكاد تصاقب داره ؟ إنى رأيت فى عينيها حبّا ملائكياً طاهراً ، كاد يحترق له قلبى ، وسمعت فى صوتها رنّةً عذبة سحرت لبى . فهل أنا محبٌّ محبوب ؟ هل أنا بهذا الجمال قمين ؟ هل تُقبل الجنة علىّ هكذا مرة واحدة من غير أن أخوض إليها المكاره ؟ وهل يسعى إلىّ هذا الحسن الفاتن طائعا مرخىّ العِنان من غير أن أقضى فيه ليلة سهاد ، أو أسفح دمعة عين ؟ إننى لا أكاد أصدق . إن قوانين الدنيا

ومناهج الأيام لا تأتى على هذا النحو . إن الدنيا لا تجود بنعيم إلا إذا أخذت من الجهد والكدّ والتبريح ما يساوى ثمنه أو يزيد ، وهى إذا أعطت لا تعطى مرة واحدة هكذا بالهَيْل والهَيْلمان ، ولكنّها تبضّ بقطرة قطرة ، حتى تُفسد معنى العطاء والإحسان . لا . إننى مخطىء . إننى مخدوع . إنها لا تحبّنى . وأنا رجل مغفّل سريع إلى الحكم ، وثّاب إلى التشبث بالوهم . إنها فتاة مهذّبة كريمة النِجار ، مرهَفة الذوق ، رأت رجلا شاعرا مغرورا ، فأرادت أن تجامله وتلاطفه وترفُق به ، فابتسمت له، وأطالت معه حبل الحديث . هذا كل مافى الأمر، لا أكثر منه ولا أقلّ، وهذا هو شأن النفوس النبيلة ، تعطِف على الغِرّ الجاهل المتبجح من أمثالى . أمّا أن أقول إنها تميل إلىّ ، فأمر مضحك .

ثم أخذ فى الضحك ، ولكنه وقف عنه فجأة وقال عابساً : لا . لا . إن نظرتها الأخيرة إلىّ حينما دعاها هذا الغراب المشئوم للخروج إلى الحديقة ، كانت كفلق الصبح ، ليس فيها شك ولا مِرْية ، إن القوة البشرية أعجزُ من أن يصل بها التصنّع إلى هذا الإتقان . إنها كانت نظرة حزينة وامقة . لقد قرأت فى عينيها كلّ شىء ، وفهمت كل شىء ، ولست من الغرارة والغفلة بحيث لا أفهم مثل هذه النظرات . لأترك الآن هذا ، فقد فرغت منه ، و بلغت الغاية ، ولأنظر فى الدنيا التى بُسطت رحابُها أمامى فيّاحة ناضرة ، ترِفّ على جوانبها الورود والرياحين . سأكون زوج ولادة أجمل فتيات الأندلس وأشرفهن ، وسأصعَد إلى أسمى المراتب فى

الدولة . ثم رفع رأسه هنيهة وقال مسائلا نفسه : أسمى المراتب فى الدولة ؟
من أين لى هذا ؟ ابن جهور رجل مغلق ضنين ، والوزراء حوله لئام
عيّابون ، لا يريدون أن يصل إلى مراتبهم ناشىء طموح مثلى ، والشيخان
ابنا عمه محمد بن عباس ، وعبد العزيز بن حسن ، يستثقلان ظلّى ،
وينفران من أدبى وشعرى . ولكن نائلة ألقت فى أذنى بالأمس كلمات
كان لها فى نفسى مواقع الماء من ذى الغلة الصادى . قالت : إن الوزارة
ترفّ بجناحيها فوق بابى . ونائلة وثيقة الصلة برجال الحكم ، وهى تعرف
من شئون الدولة ما قد يجهله ابن جهور نفسه . ثم إنها لا تكذب ، ولماذا
تكذب ؟ وهل لها غاية من وراء الكذب ؟ إنها امرأة خيّرة طبّة لبيقة ،
وإلا فلماذا أسرعت وقدّمتنى إلى ولادة ، وفتحت أمامى بابا للرفعة وعظم
الشأن لا يدخله إلا الوزراء وكبار الدولة ؟ إن ولادة لا تجالس كاتباً فى
الديوان ، ولا تبتسم لصغير من عمّال قرطبة ، فأغلب ظنى أن نائلة لم تدفع
بى إلى هذه المنزلة إلا وهى جدّ واثقة أننى منها قابَ قوسين أو أدنى .
نفرُغ من هذا أيضاً ونحن منه على يقين .

ثم بدا على وجهه العبوس ، وطافت بوجهه غمامة همّ ذهبت بنضارته ،
وأخذ يعَضّ سبابته ويقول :

عائشة بنت غالب ! هذه المصيبة التى قُذِفت علىّ من الجحيم ،
ورمانى بها إبليس اللعين ليفسِد حياتى ، ويبدّد شبابى ، ويقضى على

آمالى . عائشة بنت غالب ! إنها شرُّ بنات حواء ، إنها امرأة فاتكة هبّاشة ، إذا ظفِرت مخالبها بفتى فعليه الرحمة ، وأحسن الله فيه العزاء ! إنها العنكبوت ذو الأيدى الطِوال ، والمخالب الحِداد . إنها الذئبة الجائعة التى لا تترك فريستَها وفيها ذَماء . ويل لى منها ، وويل لمقتَبل أيامى ، وما كنت أرتجيه من هناء وسعادة ! ليت شعرى ما الذى ستصبّه علىّ من صواعق بعد أن وصلت إليها رسالتى ؟ إنها لن تتركنى بعد هذه الرسالة لأهنأ بزواج ولادة ، إنها ستعمل كلّ شيء لتُفسد ما بينى وبينها ، إنها ستهجُم عليها فى دارها ، وتملأُ الدنيا ضجيجا بثلب عرضها وعرضى ، وستنشر فى المحافل والمجامع من التهم ما يتعفف عن سماعه غلمان الحانات ، إنها ستذهب إلى أبى الحزم بن جهور فى دموع البائسة المخدوعة ، فتملأُ صدره علىّ غلاًّ وغيظاً ، ثم ؟ ثم إن عندها رسائل منى كنت أبعث بها إليها أيام جهلى وجنونى ، وأتندّر فيها بعظماء الدولة ، وأتبسّط فيها بالطعن فى ابن جهور ووصفه بالرياء والنفاق وسُخف الرأى والتدبير . وامصيبتاه ! إنها ستجمع كل هذه الرسائل فى أمانة وصيانة ، وستُطلع كلّ وزير على ما يخصّه منها ، وهكذا أرانى سقطت حينما ارتفعت ، وطفوت كما يطفو الغريق ليغطِس فى الماء إلى غير رجعة ! ما الذى دفعنى إلى هذه الحيّة الرقطاء ؟ وما الذى أوقعنى فى حبالها ؟ الجهل والشباب العِربيد والتظرّف الممقوت ! خسِئ أبو الوليد ! ولعن الله لحظات مرّت به تحت سقف هذه الهرة الشكِسة النهوس ! وبينما

هو يتعثر فى هذه الخواطر السود وتتعثر به ، إذ سمع نائلة تصيح بالعبيد والغلمان قائلة :

ادعوا الضيوف إلى العَشاء فقد أُعدّ الطعام . فأفاق من سَبَحاته كما يُفيق المحموم من نوم مضطرب كريه ، وهزّ رأسه فى عنف ، كأنه يريد أن يُميط عنه مخيفات الهواجس ، وقال لنفسه أو قالت له نفسه : إن من الخير ألاّ أسبق الأيام ، ومن الخير ألاّ أفترض الكوارث ، وعلىّ أن أتمتع بالساعة التى أنا فيها ، وأن أترك ما لغد لغد ، ولله أمر هو فاعله ، وحكم هو قاضيه ، لاراد لقضائه ، ولا معقّب لحكمه . ثم تقدّم إلى نائلة باسما وهو يقول :

— لقد أحسنت بى يا سيدتى إذ مهدت لى سبيل الوصول إلى ذلك الملَك السماوىّ الذى كانت تعجِز عن بلوغه الأسباب ، وتتعثر الأوهام . فأجابته نائلة وهى تهزّ كتفه فى حنوّ :

— اصبر يا فتى ، فإنك لا تدرى ما تدبره لك نائلة من رفيع الشأن وبعيد المنزلة . ثم تنهدت وقالت : والله ما أدرى سرّ ذلك الحافز العنيف الذى يدفعنى إلى الاهتمام بأمرك ، والكدح فى الوصول بك إلى أسمى الغايات ، وبذل الجهد فى حياطتك من كل يد تمتدّ إليك بأذى . لعلى أحببتك يا أبا الوليد لأنى بعد أن فقدت ابنى منذ حين بعيد بقى حنان الأمومة فىّ كمينا حائراً متطلعاً ، فلم يجد بين شباب قرطبة إلا إياك ، لقد مرّ بحياتى كثير وكثير ممن تزدان بهم المحافل ، ولكن قلبى لم يهتف

إلا بك ، ولم يرفّ جناحاه إلا لك ، و « لهوى النفوس سريرة لا تُعلم » كما يقول متنبي المشرق . على أنك مع هذا سيد الفتيان وسامة وقسامة وجُرأة و بطولة وأدباً . لست أراك إلا ابناً لى يا أبا الوليد ، وسأكون ملَكك الحافظ، و مِجَنك الواقى فى جوّ قرطبة المضطرب بالفتن والدسائس والأحقاد . هلمّ إلى العَشاء يا ُبنىّ .

ومُدّت المائدة ، ووضعت عليها غرائب الألوان ، ونفائس الأطعمة ، وأحاط الخدم والعبيد بالضيوف فى أدب واحتفاء ، يفهمون الإشارة ، و يكتفون بالإيماءة ، وجلست ولادة و إلى يمينها ابن زيدون ، و إلى يسارها أبو الوليد محمد بن عبيد الجماعة ، وأخذ الضيوف يتنقلون بين الطعام والشراب بطرائف الأحاديث ، ومدّ ابن زيدون يده بطبق من الطعام نحو ابن الحناط الـكفيف وهو يقول :

— ما أبدعَ قصيدتك التى تقول فى أولها :

راحتْ تذكِّرُ بالنسيمِ الراحا وطفاء تكسِرُ للجُنوح جَناحا
أخفى مسالكَها الظلام فأوقدتْ من برقِها كى تهتدى مِصباحا
وكأنّ صوتَ الرعدِ خلفَ سحابها حادٍ ، إذا وَنَتِ السحائبُ صاحا

فقال أبو حفص بن بُرد ، وكان يحقد على ابن الحناط :

— شعر حسن ، ولـكنه يحتاج إلى صقلة الفن .

فرفع الـكفيف رأسه فى غضب ، وكان شيخا فى الثمـانين . وقال فى سخرية :

— ما الذى يحتاج فيه إلى صقلة الفن يا مولاى الوزير ؟ !

— يحتاج إلى كثير يا سيدى: إنك تقول «راحت تذكر بالنسيم الراحا» ثم تصف ليلة مظلمة مُبرقة مُرعدة ، فأين مكان النسيم هنا ؟ إن هذه الليلة يجب أن تكون فيما يقتضى التصور ذات ريح عاصفة . أمّا كلمة «كى تهتدى» فحشو ثقيل أفسد عليك البيت كلّه ، وكان يجب أن تفتح آخرها ، لأن المضارع اليائىّ يظهر عليه النصب ، والعجيب أنك تصف سحابة وطفاء من أول بيت فى القصيدة ثم تقول : «وكأن صوت الرعد خلف سحابها» والضمير فى «سحابها» يعود إلى السحابة ، فيكون مُحصَّل الكلام : وكأن صوت الرعد خلف سحاب السحابة ، وهذا تهافت لا يستطاع الفرار منه ، و بعد أن شبّهت الرعد بالحادى قلت : «إذا ونت السحائب صاحا» والشعر يتطلب أن تقول : « إذا ونت الركائب صاحا » حتى يجىء للحادى ما يلائمه . فاكفهرّ وجه الكفيف ، وانتفخت أوداجه من الغضب ، وصاح : هذا هُراء ! ولكنّ الحق الذى لا مرية فيه أنك أردت أن تسرق منّى هذه المقطوعة، فأسأت الصناعة، ولم تتقن السرقة حين تقول :

ويوم تفنّن فى طِيبهِ وجاءت مواقيتُه بالعَجَبْ
تجلَّى الصباحُ به عن حَياً قد اسقَى ، وعن زَهَرٍ قد شرِب
وما زلتُ أحسَبُ فيه السحا بَ ونارُ بوارقِها تلتهب
بَخاتىَّ تُوضِعُ فى سيرها وقد قُرِعتْ بسياط الذهب

فقولك : « وجاءت مواقيته بالعجب » كلام لم يأت إلاّ لتكملة البيت ،

ثم ما هذه البدعة فى « قد اسق » فإن العرب حقّقوا الهمزة فى « أسق » وأنت تأبى إلا أن تسهّلها ، قد تقول إن هذه ضرورة ، فأجيبك بأن الضرورة لايلتجئ إليها شاعر يتحدّى كبار الشعراء. والبيت الثالث ألفاظ كثيرة متزاحمة ليس فيها إلا أن البرق كالنار . ثم تقول : « وقد قرعت بسياط الذهب » والقرع يكون بالعصا لا بالسوط يا سيدى ! أمّا سياط الذهب هذه ، فهى أدهى وأشنع من « ماء الملام » التى عابوها على أبى تمّام .

وأراد ابن زيدون أن يحول دون الجدل والخلاف ، فقهقه وقال : إن الشعر لا يُبحث فيه على هذا النحو ، ولو تعمّدنا النقد ، وتكلّفنا التدقيق ، لم يسلم بيت لشاعر من المتقدمين أو المتأخرين . فصاح ابن الحناط قائلا :

— لا ياسيدى ، إن آفة الشعر أن ينقدُه من لا يفهمه . فأسرع شابّ فى العشرين قدِم من « المَرِيّة » منذ أيام وقال :

— إذا أُذِن لنا شئ مثلى فى الكلام ، فإنى أقول : إن الأندلس جميعها تدين فى الشعر لثلاثة ، هم : ابن بُرْد وابن الحناط وابن زيدون .

فضحك القوم ، ومال ابن الحناط على من بجانبه سائلا :

— من هذا الفتى ؟

— هذا عبد الله بن الحداد شاعر موسيقىّ مبدع ، وله فنّ فى الغزل عجيب . وقالت نائلة :

— إنه يتغزل فى الأسبانيات يا مولانا الشيخ ، يتغزل فى « نورا »

الأسبانية التي فتنته . فهمست ولادة في أذن ابن زيدون ترجوه في أن يطلب إليه أن ينشدهم شيئاً من هذا الغزل . فصاح ابن زيدون : أنشدنا يا عبد الله بعض نوريّاتك . فتردد قليلا ثم أنشد :

متى أحظى بمرآك ويهدأ قلبي الشاكي؟
رأيت الحسن قد ولاّ ك إحيائي و إهلاكي
ولا أسطيع سلوانا فقد أوثقتِ أشراكي
فكم أبكي عليك دماً ولا ترثين للباكي
فهل تدرين ما تقضى على عينيّ عيناك ؟
وما يذكيه من نار بقلبي نورك الذاكي؟
نويرة إن قليتِ فإ نني أهواكِ أهواك

ثم أنشد :

و بين الحِسانِ الغيد لي سامريّة بعيدٌ على الصبِّ الحنيفيّ أن تدنو
مثلّثةٌ قد وحّد الله حسنها فثنّى في قلبي بها الوجدُ والحزن

فطربت ولادة وقالت: يعجبني الشعر الواقعيّ . فقال أبو الوليد محمد في شيء من الدعابة : إن شعر صديقنا ابن زيدون كله واقعي ، وأبياته الجديدة تغنى الآن في كل مكان . ثم انطلق ينشد :

متى أبثّك ما بي ؟ يا راحتي وعذابي
متى ينوب لساني في شرحه عن كتابي ؟
يا منية المتعزّي وحجّة المتصابي

الشمسُ أنتِ توارتْ عن ناظرى بالحجاب
ما البدرُ شفّ سناه على رقيق السحاب
إلا كوجهك لما أضاء تحتَ النِقاب

وهنا صاحت نائلة قائلة : هذا هو الشعر الذى يُذهل الفتاة عن نقابها ، ويُبكى العجوز على شبابها . فظهر الكمد فى وجه ابن عبدوس ، وعمد إلى توجيه الحديث إلى ناحية أخرى ، فالتفت نحو ابن حيان وقال :

— عثرت من أيام على نسخة من تاريخك يامولانا ، فأعجبت به ، غير أنه عَيْبَةُ عيوب ، فقد ملأته بمثالب الناس ، ولم تعفُ لأحد فيه عن زَلة .

فاتجه إليه ابن حيان وقال :

— وما ذا أعمل يا فتى الأسبان ، والدنيا خُلقت هكذا ؟ وتاريخى صورة للدنيا التى أعيش فيها ، فأحسِنوا أعمالكم أحسِنْ كتابتى .

— ألم تقل عن أبى عامر بن شُهيْد مفخرةِ الأندلس جميعها فى أدبه وظَرْفه وحلو فكاهته : « كان بقرطبة فى رقته وبراعته وظَرْفه ، خليعَها المنهمكَ فى بَطالته ، وأعجبَ الناس تفاوتاً بين قوله وفعله ، وأحطَّهم فى هوى نفسه ، وأهتكهم لعرضه ، وأجرأهم على خالقه ؟ » فأسرع ابن زيدون وقال : وهكذا والله كان أبو عامر ما ظلمه الرجل فتيلا . وهنا نظرت ولادة إلى ابن حيان وقالت :

— لو بدا لك أن تترجم لى فى تاريخك ، فبحق عليك ماذا كنت تقول ؟ فابتسم ابن حيان وقال :

— كنت أقول : « إنها فى زمانها واحدة أقرانها : حضورَ شاهد ، وحرارةَ أوابد ، وحسن منظر ومخبر ، وحلاوة مورد ومصدر » ثم سكت فصاح ابن بُرد : أتمم يا أبا مروان ، فإن الحيَّة لا بد أن تمُجَّ لعابها : فقال ابن حيان :

— لا . إنى لا أقول فى ابنة المستكفى إلا هذا أو مثله ، و إذا أردت أن أمسَّها مسًّا خفيفاً قلت : «على أنها ـ سمح الله لها ، وتغمَّد زللها ـ اطَّرحت التحصيل ، وأوجدت إلى القول فيها السبيل . » فضحك القوم وتصايحوا . وقال ابن زيدون : وماذا كنت تقول فىَّ ؟ فزفر ابن حيان وقال :

— كنت أقول : « فتى الآداب ، وعمدة الظَّرف ، والشاعر البديع الوصف ، ذو الأبوَّة النبيهة بقرطبة ، والوسامة والدراية وقوة العارضة ، غَير أنه سليط اللسان ، جرىء الجنان ، يذهب به طموحه كلَّ مذهب ، و يهوّن عليه كل مطلب »

وأسرع ابن عبدوس وقدَّم له طبقاً من القطائف فى أدب وملَق ، وقال فى صوت المستعطف : وماذا كنتَ تقول فىَّ يا سيدى ؟

فاتجه إليه أبو مروان وقال : أعفنى بالله فإنى لا أحب أن أجبَهك بما لا تحب ! فألحَّ ابن عبدوس وألحَّ القوم فقال :

— « أديب بلغ به أدبه أبعد مايبلغه سواه ، وقذفت به حيلته إلى مافوق مرتقاه ، يزاحم العرب بدهائه ، و يستر نسبه بجوده وذكائه ، دَنٌ شراب ،

وزير كواعب أتراب ، يعادى كل سبّاق سبَوح ، ويحسُد كل مجدّ طموح »

فوقف ابن عبدوس غاضباً وقال :

— هذا سبّ صريح ، وقذف أملاه حقد كمين ، وإنى أرفع مكانةً من أن آبه لمثل هذا الهُراء .

فأسرع ابن برد وقال :

— إن الشيخ لم يكن يريد أن يقول عنك شيئاً ، ولكنك ألححت وألححت ، بعد أن ألمع لك برأيه فيك .

وهنا صاحت نائلة : إننا لا نغضب لما يكتبه أبو مروان ، والمؤرخ يجب أن يكون حرًّا فيما يكتب ، وإلّا فسد التاريخ ، وضاعت ثقة الناس بالمؤرخين ، ومما يهوّن الأمر أنه لا يحابى صديقاً لصداقته ، ولا يشهِّر بعدو لعداوته . أنا أعرف ما كتبه عنّى واستحلفه بالله ورسله وأنبيائه ألّا يذكر منه الآن حرفاً . هلمّ إلى قاعة الشراب .

فانطلق القوم يتزاحمون ، ودار عليهم السقاة ، وفاحت روائح النَدّ والعود ، وجلست « غاية المنى » المغنية بين جَوْقتها ، وأخذت بعد أن أصلحت عودها تغنّى بصوت كأنه همسات الأمل فى نفس اليائس الحزين ، وكانت تردّد من شعر ابن زيدون :

وضَحَ الحقُّ المبينُ ونفى الشكَّ اليقينُ
ورأى الأعداء ما غرّ (م) تهمُ منه الظنونُ

قل لمن دان بهجرى وهواه لىَ دين
يا هـلالا تتراءا ه نفوسٌ لا عيون
عجبـاً للقلب يقسو فيـك ، والقديلين !
ما الذى ضرّك لو سُرّ (م) بمـرآك الحزين ؟
وتلطّفت لصبّ حَيْنهُ فيـك يحين ؟
فوجوه اللفظ شتى والمعـاذير فنون

وطارالطرب بالقوم بعدأن طار الشراب برءوسهم . ووقف « الزّرافة » المخرق على كرسىّ فمدّ رقبته الطويلة ، وصاح كما يؤذّن الديك ثم قال :

يا أدباء قرطبة ! وياشعراء قرطبة ! إذا كنتم سمعتم قول أبى نواس :

فاسقنى حتى ترانى أحسَبُ الديكَ حِمارا

فاملئوا عيونكم منى جميعاً وتبيّنوا فى وجهى : أكان أبو نواس صادقا ؟ ثم نهق حتى لم يشك من يسمعه من بعيد أنه يسمع حمارا ، ووثب وهو يصيح :

لقد كان اللئيم صادقاً فاشربوا واطربوا !!

وجاء دور الراقصات الأسبانيات فبهرن العقول بفنهن ورنين صُنُوجهن ، وانقضى الليل فى مرح وبهجة ، حتى كاد يبدو عمود الصباح ، فأخذ القوم فى الانصراف آسفين على ساعات حلوة اختطفوها من يد الزمان .

وعندما هم ابن زيدون بشكر نائلة وتوديعها همس فى أذنها قائلا : إنى

أخشى عاقبة الرسالة التى بعثت بها إلى عائشة يا خالتى ، فخلّصينى بالله منها ، فإنها المِعول الذى سيهدم كلّ ما بنيت . فأجابته باسمة : طب نفساً أبا الوليد فسوف أزورها ، وسوف أستلّ ذُنابى العقرب فلا تعود لها صولة .

وأقبلت ولادة عليهما متألقة باسمة ، فودعته وشكرت نائلة على كريم ضيافتها ، وجميل ما أعدّت من أسباب السرور .

(٤)

مَن عائشة بنت غالب ؟ ومن أىِّ أرومة نبتت ؟ فقد ترامت حولها تهم وخُلعت عليها صفات تغرى المتطلع إلى تطلُّب المزيد . فمن عائشة ؟ ومن أبوها ؟ ومن أمها ؟ ومن أىِّ عُشٍّ درجت ، وفى أىِّ الأجواء نشأت ؟

كانت « فلورندا » أمُّ عائشة تقيم بمدينة « شنت ياقب » أو القديس يعقوب ، فى أسرة رقيقة الحال . وكان أبوها « جارسيا » يخدُم فى الكنيسة نهاراً ، ويرتزق من اللصوصية وقطع الطريق ليلا ، وكانت كنيسة شنت ياقب أعظم كنيسة بأسبانيا ، وأكبر مشهد فيها ، يحجّ إليها الناس من بلاد القبط والنوبة ، ومن أقصى بلاد رومة وما وراءها ، فكان جارسياً ينال بالنهار من بعض صدقات الحجاج ، ويسطو بالليل على بعض أمتعتهم .

وفى صبيحة يوم من أيام شعبان سنة سبع وثمانين وثلاثمائة ، شمِل الذعر مدينة شنت ياقب ، واستولى الهلع على أهلها ، ودقت أجراس الكنيسة الكبرى ، وتصايح الناس فى أصوات مرتعدة واجفة قائلين : لقد قرب جيش المنصور بن أبى عامر من المدينة ! !

إنهم كانوا فى أمن آمن ، وكانوا يظنون أن بعد مدينتهم ووعورة المسالك بينها وبين قرطبة تجعلهم فى حِرْز من غزوات العرب ، ولكن أصحاب

الأخبار حملوا إليهم أن المنصور بلغ بجيوشه مدينة « قورية » ، ثم قطع المفاوز حتى بلغ مدينة « البرتقال » على نهر « دُوَيْرة » وهناك أنشأ على النهر جسراً من السفن فعبره جنوده ، وانطلقوا كأنهم شياطين الجن إلى السهول والقيعان ، وما زالوا يقطعون أنهاراً ، ويخترقون جبالا ، حتى بلغوا جبلا شامخ الذُّرا وعر الشِّعاب ، فأمر المنصور الفَعَلة بتمهيد طريق فيه يتسع للجيش ، فأخذوا يشقّونه بالحديد حتى بلغوا أقصاه ، وانهمر سيلهم منه إلى أن وصلوا إلى نهر « أبله » ولم يصبح بينهم وبين شنت ياقب إلا أيام قصار .

ذُعر الرجال ، وولولت النساء ، وبكت الأطفال ، ولم يجد أهل المدينة نجاة من هـذه الكارثة إلا الهرب ، فجمعوا ما خفّ من شملهم ، وانسابوا من المدينة كأنهم أسراب نحل ملأ المشتارون بالدخان خلاياها . شيوخ وشبان وأطفال ، ونساء يحملن صغارهن ، ودموع وحسرات وأنّات . أين يذهبون ؟ إنهم يفرّون من الموت إلى الموت ، ولكنهم يظنون أن موتاً مشكوكا فيه خير من موت محقق . والناس فى ساعات الوهَل يطير صوابهم ، فيركبون من الخطر ما هو أشدُّ مما يتوقعون من خطر . إن غريزة المحافظة على الحياة قد تنقلب جنوناً يودى بالحياة . أليست الفراشة تُلْقِى بنفسها فى النار لأنها تراها مصدر الحياة ؟ ألا تلسَع النحلة للدفاع عن بقائها ، وفى لسعتها موتها ؟ ألا يقتل المنتحر نفسه ، لأنه يحب الحياة ؟ إن السفينة إذا أدركها الغرق جُنّ ركابها وماج بعضهم فى

بعض، فماتوا قبل أن يلتقمهم اليمّ. والدار قد تشُبُّ فيها النيران فيقتل الذعر أهلها قبل أن تلتهمهم النيران . والفارُّ من الثعبان الأرقم لو ثبت قليلا ما عدا عليه الثعبان . والحقُّ أن فى الخوف من الموت موتاً ، وأن الذى يبذُل الحياة توهب له الحياة .

خرج جارسيا وزوجه « مارايا » وابنته فلورندا مع الفارّين الذين خرجوا من ديارهم وهم ألوف حذر الموت ، وكان الرجل فارع القامة ، قوى البناء ، موثَّق العضل ، فحمل على ظهره ما لا يسعهم تركه من خفيف المتاع وكانت زوجه ناحلة سقيمة الجسم ، تنظر فى سهوم واضطراب إلى ما يمتد إليه طرفها من المفاوز والجبال ، ثم تهز رأسها فى حسرة و يأس ، وتدعو جميع القدِّيسين والقديسات لإنقاذها مما هى مقبلة عليه من موت محتوم . وكانت فلورندا فى نحو الخامسة عشرة من سنيها ، وقد خلع عليها الشباب والجمال أغلى ما يخلعه الشباب والجمال على فتاة من حُلِىٍّ وحلل .

سارت الأسرة فى صمت حزين ، وكمد دفين ، وهى لاتدرى : أىَّ مكان تريد ؟ ولا أىَّ طريق تقصد ؟ ولكنها كانت تريد أن تفارق المدينة ، تريد أن تفرّ من ذلك السيل العربى الجارف الذى يوشك أن يبتلعها ، تريد أن تحيد عن طريق ذلك الضرغام الذى سمعت زئيره عن بعد يُصمّ آذان السهول والآكام .

وكان الصباح شديد البرد ، وكانت الريح زعزعاً ، فكانوا كثلاث ريشات ظفِرت بها الريح فى يوم عاصف . فقذفتها هنا وهناك فلم تستطع

ثباتاً ولا دفعاً . سارت الأسرة أياماً حتى نال منها الأيْن ، وهرأ أطرافها البرد ، فلجأت إلى سفح جبل يصدُّ عنها صولة العواصف ، وجلست مارايا القُرْفُصَاء وقد دفنت وجهها بين ركبتيها من البرد ، وأخذت ترسل أنفاساً متلاحقة مضطربة ، ورمت فوقها فلورندا طرفاً من دِثارها، وأخذت تبُثُّ فى أذنها كلمات الحنان ، وتحثُّها فى رفق على الصبر والتجلد . أمّا جارسيا فكان فظّا صخرىّ الفؤاد ، لم ينل منه هذا المشهد المفجع إلا السخريه والتهكم ، فزجر زوجته فى غلظة وعنف على ضعفها وانحلال قواها ، ولكنّ ابنته ، وقد ضاق به ذرعها ، التفتت إليه وقالت : إنها لا تستطيع المشى يا أبى . إن يديها قطعتان من جليد ، وقد لمستُ رأسها فإذا هو يتّقد من الحمى . ثم أرسلت دمعتين يائستين وصاحت : إن أمى مريضة يا أبى . انظر إلى عينيها ، إنك لا تجد بهما بريقاً . ثم احتضنتها إلى صدرها لتُعيرها قليلا من دِفء شبابها ، ولكنّ مارايا كانت فى غير حاجة إلى دِفء ، لأنها خرجت من دنيا العواصف والأنواء ، وتركت شِعاب أسبانيا الوعرة القاسية ، إلى شعاب محجَّبة عن العيون !

صرخت فلورندا حينما رأت أمها جثة فارقتها الحياة ، ونظر جارسيا فى ذهول ووَهَل إلى امرأته وقد أحاطت بها رهبة الموت ، ودارت حولها هالة من ذلك الجلال الذى لا يعرفه الأحياء إلاّ فى لحظات الوداع . ومن العجيب أن هذه اللحظات قلبت طبائع الرجل ، أو أظهرت الجانب الخفىّ المكبوت من طبائعه على الأصح ، فما كاد يستيقن موت زوجه حتى انكبّ عليها

يقبّلها وهو يبكي بكاء الأطفال ، ويندُب ندبَ الثُّكالى ، ويناجيها في لوعة وحسرة بأرقّ ما يناجي به حبيب حبيباً . وكأنه كان يلمح ماضى قسوته وجفائه ، وسابق تفريطه فى جنبها ، فيزيده كلّ ذلك بكاء وألماً وإفراطاً فى الحزن والأسى. وحينما عاد إليه بعض صوابه شقّ لها قبراً تحت شجرة تين ، وعمد إلى غصنين فصنع منهما صليباً أقامه عند رأسها ، ثم حمل متاعه ، وأخذ بيد ابنته ، فسارا مطرقين كأنهما لا يزالان يحسّان رفيف أجنحة الموت . وقالت البنت فى صوت خافت :

— إلى أين يا أبى ؟

— لا أدرى وحقّ العذراء يا فلورندا .

— أرى أن نعود إلى مدينتنا ، فإن العرب لن يكونوا أقسى مما نحن فيه من هول وعذاب .

— نعود إلى مدينتنا ؟ هذا لن يكون يا فتاة . ثم مدّ شفتيه فى سخرية وألم وقال : ماذا فعلنا أو فعل بنا القدَر ؟ أخرجنا لنفقد أعزّ امرأة فى هذا الوجود ، ثم نعود أدراجنا كأننا أدّينا واجباً مقدَّساً ؟ لا يا فتاة . لن نعود إلى شنت ياقب بغيرأمك . إن كل شيء فيها سيذكرنى بها ، وسيهمس فى أذنى بأنى لم أكن لها زوجاً صالحاً، ولكننى كنت كلباً عقوراً . خير لى أن أموت وأن تموت معى هذه الذكريات .

— وأين نذهب يا أبى ؟

— إلى قرطبة .

— إلى قرطبة قصبة الإسلام ، وعرين الضوارى ، ووكر النسور الـكواسر ، الذين فررْنا من بطشهم ، وخاطرنا بالحياة للنجاة من شرِّهم؟ لِمَ لا نذهب إلى الشمال ، ونلجأ إلى « ليون » أو « ناقار » أو « قشتالة » حيث نجد فى ممالك النصارى الأمن والسلامة ، وحيث نعيش مع قوم ديننا دينهم ، و بلادنا بلادهم ؟

— نعيش بينهم شهراً أو شهرين ، ثم تقع الواقعة ، فنعود إلى الفِرار واقتحام الأخطار ، والتعرض لموت محقق !

— كيف يا أبى ؟

— إن هذا الخليفة العربىّ الذى يسمونه المنصور لن يستقرّ له قرار حتى يُخضع جميع بلاد أسبانيا ، وحتى يزحف سيله إلى الأرض الـكبيرة ، على أنه استولى على ليون ، وأذلّ ناقار ، و إذا لم يملك قشتالة اليوم فسيملـكها غداً . أتعرفين أن غزوته لشنت ياقب إنما هى الغزوة السادسة والأربعون ، وأنها ستتلوها غزوات وغزوات . إن من الخير لنا أن نلجأ إلى قرطبة عاصمة الإسلام لنأمن شرّ الغزو إلى الأبد ، ونعيش بين المسلمين أنفسهم ، لأنهم لا يُؤذون ذِمِّيا ولا مستأمِناً ، وكلُّ ما يطلبونه من مثلى جزية لا تزيد على اثنى عشر درهما فى العام . هلمّ إلى قرطبة يا بنيّتى ، فإن المثل الأسبانى يقول : إن صديق الأسد لا يخاف وثبته .

انطلق جارسيا وابنته نحو قرطبة ، وقد فرغ زادهما ، فكانا إذا نزلا قرية استطعما أهلها ، وكانت فلورندا تحسن الرقص والغِناء ، فكانت

تنتقل مع أبيها من باب إلى باب ترقص وتغنّى ، حتى ينالا من صدقات المحسنين ما يكفيهما ، وما زالت هذه حالهما حتى بلغـا قرطبة ، فنزلا منها بالرَبَض الجنوبىّ ، حيث يقيم أكثر النصارى والأسبان المتسلّمين ، ولم يجد الرجل من وسيلة للرزق إلا أن يبيع الفاكهة متنقلا بها طِيلة النهار وطَرَفا من الليل بين طرق قرطبة وأزقّتها ، وأبت فلورندا إلا أن تُعين أباها ، فكانت تجمع كل يوم بعض دريهمات من الرقص والغِناء ، وكانت هذه الدريهمات تزيد فى كل يوم كلما زاد الإعجاب بها والإقبال عليها .

وبينما كانت فى أحد الأيام تُبرز فنونها فى سوق البزّازين ، وقد التفّ حولها حشد حاشد من السابلة الذين أُخذوا برنّات صُنوجها ، إذ مرّ « بترو » الذى ما كاد يسمع الرنين والإيقاع ، حتى هزّه الطرب ، فدنا منها فإذا حسنٌ فتّان ، وجسم ريّان ، وفنّ فى الرقص والغِناء لو ثُقِّف لفتن الناس وهزّ الأندلس .

كان بترو الأسبانىُّ صاحبَ أكبر حانة بالمدينة ، وكانت له عين بصيرة بالجمـال ، وأذن موسيقيّة تُدرك أدقّ الفروق ، وتحسُّ بأخفى درجات النشوز . وكان يجلِب إلى حانته أبرع الفاتنات الأسبانيات وأجملهن ، وامتدّت تجارته إلى ما وراء الأندلس ، فكان سماسرته فى الغرب والشرق يبعثون إليه أجمل بضائعهم من فرنسا ومرّاكش ومصر والشام وبغداد ، وكانت حانته مثابةً لفتيان قرطبة المترَفين الذين أطغاهم الفراغ والشباب وأفسدتهم الجِدة .



صرخت فلورندا حينما رأت أمها جثة فارقتها الحياة

(صفحة ٦٩)

رأى بترو فلورندا فملكه الدهَش ، وعزّ عليه أن يرى تلك اللؤلؤة اللامعة ، وتلك الثروة الفنيّة الغالية ، تتقاذف بها طرقات قرطبة ، هذا يرمى لها بدرهم ، وهذا يلوى وجهه عنها كلّما مدّت إليه يدها بدَفّها .

دَهِش بترو وعجِب ، فمدّ يده إلى جيبه وأخرج ديناراً ، فلما مرّت الفتاة تستجدى بدَفّها ، رمى فيه الدينار . فنظرت إليه مبهورةً وقالت :

— هذا دينار يا سيدى ! فأظهر بترو الحيرة والتردد وقال :

— أصحيح هو دينار ؟ لقد أخطأتُ يا فتاة ، فقد أردتُ درهما وأراد جمالك وفنُّك دينارا . خذيه باركت العذراء لك فيه ! فأخذته فلورندا وهى لا تكاد تصدّق أن أصابعها تنطبق على دينار . وطافت برأسها أمانىُّ وأحلام ، وأخذت تفكّر فى خير الطرق التى تفجأ بها أباها لتطلعه على ذلك الكنز الثمين . ثم سارت لتعقد حلْقة أخرى بسوق الصيارف ، ولكنها رأت بترو يتبع خُطُواتها ، فلما دنا منها قال :

— ما اسمك يا فتاة ؟

— فلورندا .

ما أجمل الاسم ، لولا أنه يُثير فى نفس الأسبانىّ ذكريات لا تطفىء نيرانها الدموع !

— ذكريات ؟ أنا لا أفهم ما تقول .

— عجيب . ألا تعرفين شيئاً من تاريخ أسبانيا يا فتاتى ؟ ألم تحدّثك العجائز بتلك الداهية الدهياء التى حلّت بأسبانيا بنزول العرب فيها ؟

فظهرت سذاجة الجهل واضحة على وجه فلورندا الجميل وقالت وهى تهزُّ رأسها :

— لا . لم يحدثنى أحد .

— إن فلورندا بنت يوليان هى التى أضاعت مُلْك أسبانيا ، ووضعته لقمة سائغة فى فم العرب .

— امرأة فعلت هذا ؟ !

— امرأة ورجل ، وقديماً أخرجت الجنة من ظلالها رجلاً وامرأة . فثارت رغبة فلورندا لمعرفة ما يقصد ، لأنها فى الحق لم تفهم إلا قليلا فقالت : حدِّثنى بحق « جوليوس » كيف أضاعت فلورندا جنة الأندلس ؟

— فلورندا يا فتاتى كانت فى بلاط لُذَريق ملك أسبانيا ، فوصل إلى علم أبيها عن الملك ما يمسّ شرفه ، فغضب ، ودفعه حبُّ الانتقام إلى أن يذهب إلى موسى بن نصير قائد العرب بإفريقية ، ويُمدَّه بالسفن ، ويُرشده إلى مواطن الضعف فى الدولة ، ويذلل له السبيل لفتحها .

— لعن الله لذريق ، ولعن الله فلورندا هذه ! لن أتسمَّى بهذا الاسم بعد اليوم . آه يا سيدى . . . فأسرع بترو يلقِّنها اسمه :

— بترو .

آه يا سيدى بترو لو رأيت ما فعله العرب بولايتنا لرأيت ما تشيب له النواصى ، إنهم شياطين مَرَدة ، ينسفون الجبال ، ويثبون فوق الأنهار ، كأنهم أسود لها أجنحة النسور . وهنا طفرت الدموع من عينيها فلم تستطع

لها دفعا وقالت : بهؤلاء العرب فقدتُ أمى يا سيدى بترو ، لقد وثبوا علي شنت ياقب كأنهم العاصفة الهوجاء التى لا تُبقى ولا تذر، فخرجنا من المدينة ليقتلنا البرد والجوع والكَلال .

— أنت من شنت ياقب إذاً ؟

— نعم .

— مع من تعيشين يا فتاتى ؟

— مع أبى جارسيا .

— وأين تسكنين ؟

— فى قاعة بزقاق الصيادين .

— سأزور أباك الليلة ، ثم مدّ إليها يده فحيّاها وانصرف وهو يحدّث نفسه و يغمغم : إنها كنز ثمين . إنها بوق الساحر الذى إذا نفخت فيه ألقى إلىّ فتيان قرطبة ما فى جيوبهم ذاهلين مأخوذين . عجيب أمر هذه المصادفات ، تُلقى بين يديك فى سهولة و يسر ما لو ضربت فى الأرض إليه أعواماً لم تجده ! وكثيراً ما تضع هذه المصادفات التبر فى الأرض الجرداء ، وكثيراً ما تقذِف باللالى بين القُمامات ، والناس يمرون بها ، وقد نهكهم الفقر ، ونالت منهم البأساء ، وهى على قِيد نظرة منهم . فلورندا ! لو بَعثتُ إلى أقصى بلاد الروم ، وأبعد مطارح التركستان لم أجد لها مثيلا !

والتقت فلورندا بأبيها فى حجرتهما المظلمة بعد أن أجهدهما كدُّ النهار ، فرأته عابساً منهوكا ، فإنه لم يترك بقرطبة وأرباضها سوقاً أو طريقاً إلا سلكه

صائحاً مرغّباً فى اقتناء فاكهته ، واصفاً جمالها ولذة مذاقها ، ولكنّ الناس كانوا فى هذا اليوم فى صمم عنه وعن فاكهته ، كأنهم أقسموا يمينا مؤكدة ألا يذوقوا للفاكهة طعما ، أو كأنهم رأوا فى الفاكهة سماً زعافاً فخافوا أن تمسّها أيديهم .

قالت فلورندا بعد أن قبّلت أباها :

— كيف الحال يا أبتِ اليوم ؟ فابتسم جارسيا ابتسامة اليائس وقال :

— أحسن حال ياحبيبتى ! حملت الفاكهة فى الصباح ، وجئت بها كاملة فى المساء ، بعد أن تمتع التفاح بمشاهدة كل ما فى المدينة من أسواق وميادين ثم غاد سالماً إلى مقرّه ، ولكنّ الخبيث كان يلحّ علىّ قبل أن تدخلى فى أن أريه المدينة غداً و بعد غد ، فقبلت غير أنى اشترطت عليه ألا أحمل الميزان ، فقد أصبحت فى غير حاجة إليه !

— ما الخبر ؟

— لم أبع بدانق . فإذا كان لديك درهم أو درهمان فاذهبى وأتينا بما نتبلّغ به الليلة . فتصنّعت فلورندا الجزع ، وأمرت سحابة من اليأس أن تغيم على وجهها ثم قالت :

— إننى لم أكسِب دانقاً اليوم ، فماذا نعمل ؟

— عظيم ! نبيت على الطوَى ياحبيبتى ، وندعو للمنصور بن أبى عامر بدوام النصر والتأييد ؟ أتعرفين لم حُرِمنا الرزق هذا اليوم يا فلورندا ؟ حرمنا لأنه يوم الأحد ، وهو يوم الراحة منذ خلق الله السموات والأرض.

— نعم إنه يوم الأحد . ثم هزّت ثوبها فسقط منه شيء لامع التـقى بأشعة المصباح الواهنة . فأرسل شعاعاً وهاجاً أسر عيني جارسيا فصاح : ماهذا ؟ ثم مدّ إليه كفّه فالتقطه ، وقد انتابه مايشبه الجنون ، وأخذ يتمتم : دينار ! دينار ! هذا دينار يا فلورندا ! أنَّى لك هذا ؟ .وكيف ظفرت به ؟

فابتسمت فى وجهه وقالت فى خبث :

— ببركة يوم الأحد .

— قولى بحقّ المسيح كيف حصلت عليه ؟ فهزّت كتفه فى حنان وقالت :

— اجلس يا أبى فإنها قصة عجيبة حقاً ، ثم أخذت تنبئه بمقابلة بترو وبما دار بينهما من حديث ، وما كادت تتمّ قصّتها حتى سمِعا قرعاً على الباب ، فوضعت إصبعها على فمها إشارة لأبيها بالسكوت ، ثم أسرعت فقامت تصلح ما فى الحجرة من اضطراب ، وتستر منها مواطن الفاقة ، وبعد قليل أقبلت نحو الباب ففتحته فإذا صوت خشن أصحل يقول : سعِـد مساؤك يا فلورندا . فمدّت يدها وهى تبتسم وتقول : أهلا بسيدى بترو . مساء جميل وضيف كريم لولا أن حجرتنا الحقيرة لا تليق بمثله .

— إن أنضر الأزهار ينبثق من الدِمَن ، وليس فى الفقر من عار يا فلورندا لو جعله المرء سُلَّماً إلى الغنى .

— الغنى ؟ أنت تحلُم ياسيدى ! هلمّ إلى أبى ، ثم صاحت : يا أبى هذا السيد بترو الذى كنا نتحدث بشأنه .

فوقف جارسيا ومدّ يده إلى الضيف مرحّباً وهو يقول : خادمك

جارسيا فرانكسوس ياسيدى . ثم نشر حصيراً إلى جانب الحائط، وأومأ إليه بالجلوس ، وأخذ ثلاثتهم يداولون الأحاديث حول قرطبة وما فيها من ثروة واستبحار فى العمران ، ثم مافيها إزاء ذلك من فقر مدقع ومَتْرَبة ، فقال بترو:

— إن العاقل من يعرف كيف يقتنص الفرص . وأسرع جارسيا قائلا :

— أىُّ فرص يا سيدى ؟ إن لى خمسة أشهر أدور فى شوارع هـذه المدينة الملعونة وطرقها ، وأتطلّع إلى كل حَجر فى أبنيتها فلم أجد يوماً لهذه الفرص ظلاً !

— لأنك تبحث عنها وهى فى يديك !

— فى يدىّ ؟ !

— نعم فى يديك ، وما مثَلك ، إلا كمثل من ينام فوق فراش وهو يتضور جوعاً ، ولو مدّ عينيه إلى ما تحت الفراش لرأى من الذهب ما يُغنى دول الأرض . أنت ياسيدى جارسيا وجَّهت كل عقلك إلى العنب والتفاح، وإلى أنك قد تكسِب من هذا درهماً وقد تكسب من هذا نصف درهم ! ثم نظر إلى فلورندا واستمرّ يقول : ولو أنك نظرت فى غرفتك الحقيرة الآن لرأيت كنزاً ثميناً .

— كنزاً ثميناً ؟

— نعم . إن أمامك كنزاً ينقُلك من سكَنى القبور، إلى سكنى القصور، ويجعل الذهب يسيل من بين أصابعك كما يسيل المـاء من أفواه الأسود فى حدائق الزهراء .

— ما هذا يا رجل ؟ أنت تعابثنى ، وقد جرّأك على هـذا فقرى وسوء حالى ، ثم قال فى غضب : ولكنى أعلمك ياسيد بترو أننى على فاقتى لا أقبل مِزاحا مُهيناً ولو جاء من أمير الأندلس. لا ياسيدى،نحن سكانَ الجبال نرضى بالشظف ، ولا نرضى بالمهانة .

— أىُّ مهانة يا سيدى جارسيا ؟ إن كنزك الثمين هو فلورندا .

— كنزى فلورندا ؟

— نعم . إن لها من الجمال مالم تَظفَر بمثله قصور الملوك ، ومن سحر الصوت ما تحسُدها عليه العنادل ، ومن الرشاقة ما تتقطّع دونه رشاقة الغصون . إن هذا الحسن الرائع ، وذلك الفنّ الموهوب ، لم يُخلقا ليطرحا فى هذه الحجرة المظلمة التى تفرُّ منها الخفافيش .

فأسرعت فلورندا تقول :

— وماذا ترى أن أصنع ؟

— تأتين عندي . فظهر السخط على وجه فلورندا ، ووثبت إلى أبيها تعانقه وتدلّله وهى تقول : لا ياسيدى بترو . إننى لن أترك أبى ولو وازنت لى الأرض ذهباً . هل أتركك يا أبى ؟ إننى إذاً لعقوق . لا تصدّق يا أبى أن ابنتك فلورندا تفارقك لحظة عين . إنها تجد لذة للجوع والفاقة فى جوارك . لقد فررنا من بلدنا معاً ، وقاسينا شَظَف العيش معاً ، وفقدت أمى بين العواصف والزعازع ، ولستُ أريد أن أُمْنَى بفقد جديد . ففكّ أبوها عنه ذراعيها ، ثم أسكتها بقبلة ، والتفت إلى بترو وقال :

— ماذا تقصد ياسيدى من أخذ فلورندا عندك ؟ فتمكّن بترو فى مجلسه، وأخذ يذود عن وجهه بعوضة أكثرت حوله الكرّ والفرّ وقال :

— أنا يا سيدى أملِك أعظم حانة بالمدينة ، وهى على الشاطئ الأيمن من الوادى الكبير ، تحيط بها الحدائق الفيح ، والمروج الخضر ، وبها أجمل ما خلق الله من قِيان ، وأمهر من دقَّت بدَفّ ، أو عزفت على مِزهر ، أو صفَرت بناى ، أو ضربت على جَنْك .

— عرفتها ، وطالما ذهبت إليها ليلا لأبيع التفاح عند بابها . أنت تملك هذه الحانة ؟ إنك لرجل عظيم . فلوى بترو عنه وجهه ليَّةً كان معناها لو تُرجمت : ومن أنت أيها الأحمق حتى تشهد لى بالعظم أو لا تشهد ؟ ثم عاد إليه يقول :

— إن فلورندا بعد أن تُثقَّف وتهذب ستكون كوكب هذه الحانة الذى يتهافت الشبان على شُعاعه تهافتَ الفَراش ، فإذا وكلت إلىّ أمرها فإنه لا يمضى شهر أو شهران حتى يكون راتبها فى كل شهر خمسمائة دينار . ففغر جارسيا فمه وصاح :

— وَىْ وى ! ماذا تقول ؟ خمسمائة دينار !

— وأكثر .

— وما شروطك ياسيدى ؟

— إنى لا أشترط شيئاً ، كلّ ما فى الأمر أن تقبل أن آخذ فلورندا إلى بيتى لأعدَّها للمجد العظيم الذى هى مقبلة عليه ، ولن يمرّ زمن طويل

حتى تكون ماسة لمّاعة أزيلت عنها قشرتها ، وحينئذ تظهر فى الحانة للغناء والرقص بأجر لا يقلّ عن خمسمائة دينار كل شهر .

فقهقه جارسيا قهقهة طويلة ظهرت فيها أسنانه القارحة كأنها المسامير الصدئة ، ثم أتبع ذلك ببكاء وشهيق عصبيّ وقف عنده على قدميه وهو يصيح :

— لا يا سيدى . بالله عليك لا تغرينى بالمال ، فإننى لا أفارق ابنتى ولو سففت التراب .

— ومن قال إنك ستفارق ابنتك ؟

— سأكون عندك إلى جانبها ؟

— نعم . ولن تبيع تفاحاً بعد اليوم ، فمدّ إليه جارسيا يده وهو يقول فى لعثمة الفرح :

— أسرع بيدك يا سيدى ، فإنا كنا نتحدث الآن فى الفرص وكيف تقتنص . فمدّ إليه بترو يده قائلا : اتفقنا . ثم نظر إلى فلورندا كالمتسائل ، فأطرقت ثم قالت : ما دام أبى معى فإنى راضية مسرورة . فقال بترو : هلمّ إلى دارى من الآن . فقبل جارسيا ، وهمّت فلورندا لتجمع بعض متاعها ، وكان قليلا تافها ، ولكن بترو جذب ذراعها فى لطف قائلاً : لا حاجة لك ولا لأبيك بشىء من هذه الغرفة ، اتركى كلّ شىء . ثم خرج ثلاثتهم ، ومالت فلورندا لتُغلق الباب فصاح بها أبوها : ماذا تفعلين يا ابنتى ؟ دعى

الباب كما هو ، فإن كل ما فى الحجرة من متاع ليس إلا درساً يعلِّم الناس الأمانة . . .

وانطلقوا إلى دار بترو ، فذهِل جارسيا وذهلت فلورندا لعظمتها وفخامتها وما فيها من فراش ورياش ، وما يجول فى أنحائها من عبيد وخدم . وفى الصباح أُحضرت الملابس لفلورندا ، وأحاط بها جمع من الخياطات والماشطات والجوارى ، فبرز جمالها ، وتميزت مواطن الحسن فيها ، وأصبحت فتنة المجتلى . وتردّد عليها كبار الموسيقيين والراقصين ليلقِّنوها دقائق الفن، فبرعت حتى بذّت معلميها، ورأى بترو أن الوقت قد حان لظهورها فى الحانة .

وفى إحدى ليالى الربيع بقرطبة ، ظهرت فلورندا فى الحانة فبعثت فيها حياة لم يكن للناس بها عهد ، وأرسلت صوتها حلوا ناعماً ، كأنه خرير أمواه الجنة ، وأطلقت العنان لفنونها فأظهرت من الرشاقة ودقة الأداء والإيقاع مايسحَر الألباب . جمال وفن وابتسامات وروح أخفُّ من ريش النعام ، فإذا لم تلعب كلّ هذه بالعقول فلا لعِب بها لاعب ! جُنّ النظّارة ونبذوا وقارهم ، وخُيِّل إليهم أن أرواحهم تسبح فى بحر كله طرب وألحان ، فصاحوا مأخوذين ، وكلما كلّت حناجرهم صاحوا ثانية وثالثة ، وكان بين الجمع الحاشد شاعر ناشئٌ ملكته أريحية الطرب فصاح :

وراقصةٍ أمّا نضارةُ خدها . . .

ثم توقف قليلا ، ففتح عليه شاعر من مكان بعيد يقول :

فوَرْدٌ وأمّا خصرُها فقضيبُ

فقال الأول :

عشِقْتُ بنى الأسبان طراً لأجلها . . . .

فأسرع الثانى يقول :

وكلُّ حبيب للحبيب حبيبُ

فقال الأول :

لها بين أحناء الضلوع كنيسة . . . .

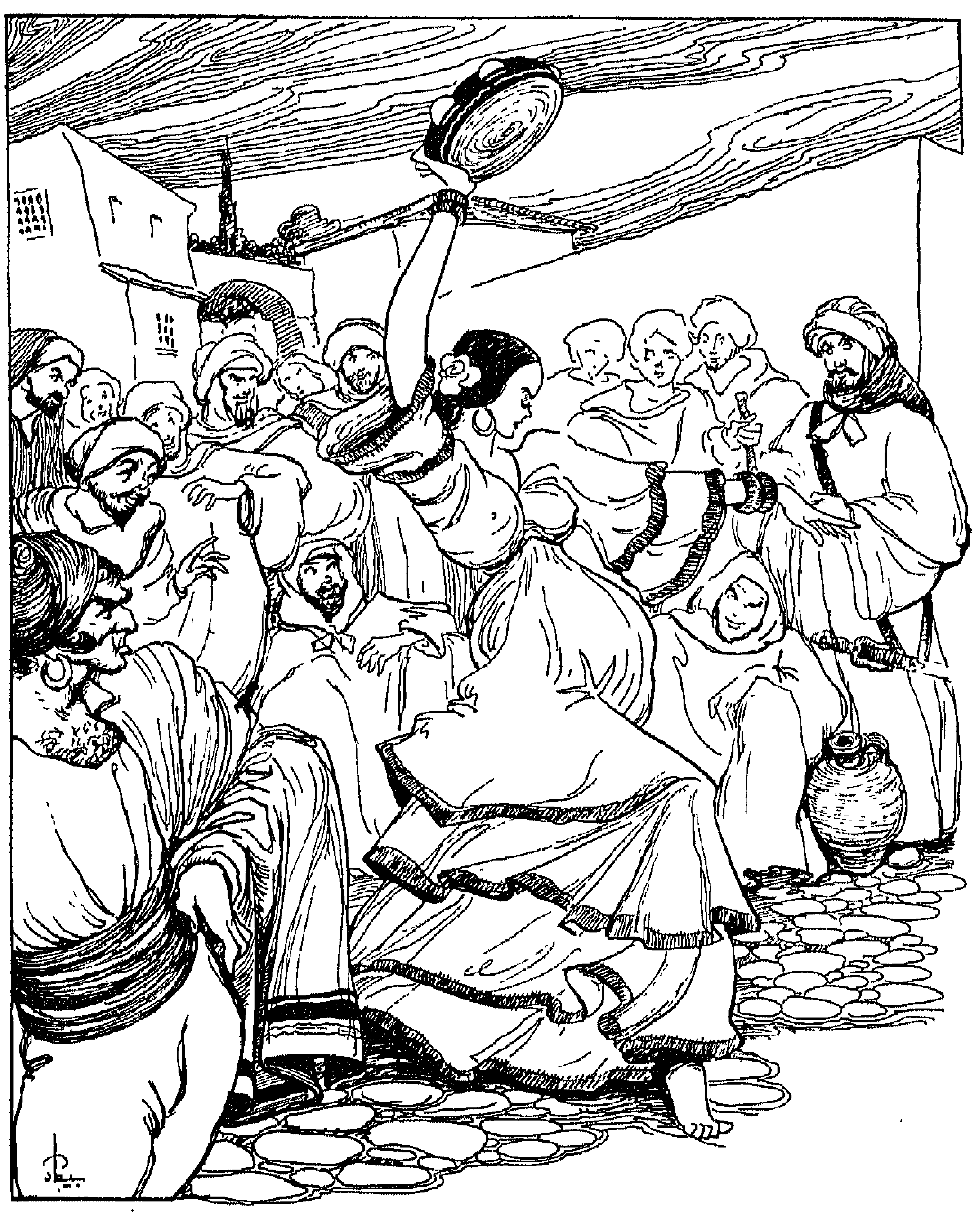
فأجاب الثانى :

وعزمى على حمل الغرام صليبُ

فضج الناس وصفقوا من الطرب .

وسار ذكر فلورندا فى شرق قرطبة وغربها . وأصبح جمالها وفنها حديث كل دار ، وسمر كل مجلس ، وانهمر الذهب على بترو انهماراً . أما السيد جارسيا فقد صار من أثرياء قرطبة وظرفائها ، يسكن قصراً فخما ، ويلبَس الأقبية والبرانس الحريرية من خير ما تخرجه مناسج المَرِّية ، ويعيش عيشة الترف والنعيم ، ويتسابق الناس إلى معرفته والتقرب إليه ، وأصبح حديثه ظريفاً رائعاً ، ونكتته بارعة الخيال ، ولُكْنته فى العربية جميلة رشيقة زادت العربية جمالا !

وكان يغشَى حانة بترو زمرة من أبناء الوزراء والقضاة وكبار تجار المدينة منهم غالب بن محمد بن أبى حفص ، كان أبوه من وزراء المنصور المقربين عنده ، الذين جمع لهم جاههم ومنصبهم ثروة تتحلَّب لمثلها أشداق اليهود .



وبينما كانت فى أحد الأيام تبرز فنونها فى سوق البزازين

(صفحة ٧٢)

كان غالب في الثلاثين ، وكان ظريفاً أديباً ، وفتى مدلَّلا ، ففُتن بفلورندا أول ليلة رآها ، ودلهّه حبها ، وأصبح صبّاً بها متبولا ، فكان يذهب مع خاصة أصدقائه في كل ليلة إلى الحانة ، وينثر الذهب على فلورندا ، ليحظى منها بنظرة رضاً أو ابتسامة حنان .

وطال الأمد على هذا الحب ، وغالبٌ مثابر ، ينعشه بصيص من أمل ، وفلورندا جادّة في التيه المتقطع الذي تذهب به بسمة مشرقة ، وتعود به تعبيسة غائمة . فلما ناء صدره بما يحمل ، وضاق ذرعه بما يلاقي ، ذهب صبيحة يوم إلى جارسيا ، وأطلعه على أمره ، وأنه لا يُطيق الحياة بغير فلورندا ، وأنه يطلبها له زوجاً ، وأنه يبذل فيها كل ما أرادت وأراد أبوها من مال . فأطرق الأب وعبِث بلحيته طويلا ، وأحبّ العرض ، لأنه لم يكن يحلُم يوماً أن تصبح ابنته في يوم من الأيام زوجاً لابن وزير المنصور ، وإذا كان ينعَم الآن بالمال الذي يغرقه فيه بترو ، فإنه سوف ينعم بالمال الذي يفيض عليه من غالب ، والمال الأول يأتي من ابنته وهي راقصة متبذِّلة ، والمال الثاني يأتي من ابنته وهي زوج مصونة تعيش في كنف وزير . . ما أبعد البون ، وما أعظم الفرق بين الحالين ! وهنا رفع رأسه وقال :

— ولكن ماذا نفعل ببترو ؟ إنه لن يفرِّط في فلورندا .

— هل اشتراها بالمال ؟ أهي إحدى جواريه فهو يحوزها بملك اليمين؟

— لا . ولكنه هو الذي نشّأها ، وهو الذي صنعها ، فلو أُخذت منه الآن لأصبحت حانته أخلى من شنت ياقب حينما دخلها المنصور .

— إنه كسب من ورائها مالا كثيراً .

— نعم ياسيدى ، ولكننى أصرُّ على مقابلته و إرضائه .

ورأى غالب أنه لو عرض على بترو الأمر فى رجاء واستعطاف لفسد كل شىء ، لأنه رجل جشِع نهِم ، لا يرضَى بانتزاع فلورندا منه فى سهولة ولين، لذلك اتجه إلى جارسيا وقال :

— أواثق أن فلورندا سترضانى زوجاً ؟

— أنا رضيتك زوجاً لابنتى ياسيدى ، وهى لاتعصى لى أمراً .

— عظيم ! نجتمع هنا الليلة مع بعض أصدقائى لنعقد الزواج .

— كيف ياسيدى ؟ وماذا نعمل لبترو ؟

— هذا ما ستعلم نبأه بعد حين ، غير أنى أرجوك ألا تخبر أحداً بما دار بيننا إلا فلورندا .

وانطلق غالب فجمع بعض جند أبيه وأعوانه ، وأمرهم أن يذهبوا جميعاً إلى دار بترو ، وأن يحضروه إليه فى عنف وقسوة ، كأنه اقترف أشنع الجرائم . وجاء بترو خائفاً مرتعداً ، فلما مثل بين يدى غالب صاح فى وجهه :

— أنت بترو بن برفكيوس ؟

فعجب بترو أن يسأله غالب عن اسمه، وهو من روّاد حانته فى كل ليلة ، وأعرف الناس به من أمه وأبيه ، ولكنه أطرق خائفاً مستخذياً وقال :

— نعم ياسيدى . فنظر غالب فى أوراق أمامه وأخذ يقلّبها ثم رفع رأسه وقال :

— جاءت هـذه الأوراق إلى أبى فى الصباح ، وكان على وشك أن يبعث بها إلى عبد الرحمن بن الفطيس صاحب الشرطة .

— وماذا فيها ياسيدى ؟

— فيها المصائب ، وفيها ضياع مالك ودمك ، فيها ياسيدى بترو أنك أفسدت المدينة ، وعبثت بأخلاق شبّانها ، وأبحت الخمر تجرى أنهاراً فى حانتك بعد أن حرّمها الخليفة المنصور . إن هـذه الشكاة لو وصلت إلى صاحب الشرطة لأغلق حانتك وصادر أموالك ونفاك إلى الشمال .

فاصفر وجه بترو وقال واجفاً :

— أشكر لك ياسيدى هذه الصنيعة ، ولا بد أن تكون هذه الشكاة من أحد أعدائى .

— نعم هى من أحد أعدائك ، وأعتقد أن سبب العداوة إنما جاء من ظهور تلك الفتاة المسماة بفلورندا بحانتك : ورأيى أنهم لايسكتون عنك إلا إذا صرفتها بأية سبيل .

— إنها حياة الحانة وجمالها ورونقها .

— وكنزها الذى لا يفنَى أيضاً . ولـكن ما رأيك يا سيد بترو فى أن هذا الـكنز الثمين سيجرّ عليك الفقر والوبال والنفى ؟ أليس من الخير

أن تعيش هادئ النفس كما كنت تعيش ، وألاّ تتشبث بطمع فيه هلاكك وذهاب مالك ؟

— إننى لا أستطيع أن أستغنى عن فلورندا .

— حسن جداً ، ولكنك سترى حانتك الليلة مغلقة الأبواب إلى الأبد . ثم التفت إلى الأعوان وقال فى صرامة : خذوه عنى . فتوقّف بترو قليلاً مستعطفاً وطفق يقول :

— وكيف أطرد فتاة يا سيدى بلغت قمة الفن والجمال ؟ إننى إن طردتها أسرع إليها غيرى من أصحاب الحانات بقرطبة .

— لا . لن ينالها أحد بعدك ، ولن تغنّى بعد اليوم فى حانة .

— كيف يا سيدى ؟

— لأنها ستعتزل الرقص والغناء بتاتاً .

— هذا يخفّف المصيبة قليلاً ، هل تنوى أن تعيش مع أبيها ؟

— لا . فظهرت ابتسامة خبيثة على وجه بترو وقال :

— إن أباها مدين لى بألف دينار .

— ستنالها منجّزة . ثم التفت إلى أحد الحراس وقال : اذهب معه يا أبا عوف إلى دار جارسيا وأبلغنى ما سيقوله له ، لا تخرم منه حرفاً . إنه سيقول له : إنه نزل عن حقه فى فلورندا ، وأصبح لا يد له عليها . ثم نظر إلى بترو نظرة غاضبة وقال : اذهبا .

وفى المساء ذهب غالب بن أبى حفص مع ثُلّة من أصحابه إلى دار

جارسيا ، فتلقاهم بترحيب و بشاشة ، وأقبلت فلورندا فى جمالها الفِرْدوسىّ فحيّت غالباً تحية فيها أدب ، وفيها حبّ ، وفيها أمل خبئ . وكان جارسيا قد صنع صنيعاً احتفل له ، و بذل فيــه عن سخاء ، فأُعدت الموائد للطعام والشراب ، وعليها أنواع الورود والرياحين وكل ما أخرجت أرض الأندلس الخصيبة من فاكهة و نَقْل . وكان بين ضيوف غالب أبو العلاء صاعد اللغوى ، وهو أديب أخبارى لغوى شاعر ، قدم على المنصور من ديار الموصل فأكرمه وأحسن وفادته ، وثابت بن قاسم وهو من أكبر محدِّثى الأندلس ، وفاتن الصقلبى مملوك المنصور .

وملأ أحد السقاة كأساً فلما ملأها بقيت نقطة فى فم الإبريق ، فلحظها فاتن ، وكان يميل إلى معابثة صاعد ، ويزعم أنه ينقُــل الشعر من كتب مجهولة ثم يدّعيه ، وأنه يبتدع فى اللغة كلمات ليست منها ، ليُظهر لسائله أنه عالم بكل ما غاب عن الناس . فالتفت إليه وقال :

— هل لك يا أبا العلاء أن تصف لنا تلك النقطة الحائرة فى فم الإبريق ؟ فنظر إليه صاعد فى تحدٍّ واستخفاف وقال :

— وما الذى أعجبك فيها ؟

— الذى أعجبنى فيها أن تكون خلت من وصفها كتب المشرق ! فقال صاعد فى خبث متعمّد :

— لعلّها وصفت فى كتب الصقالبة ! خذ وصفها يا فتى ثم قال :

وقهوةٍ فى فم الإبريق صافيةٍ كالدمع مفجوعةٍ بالإلف مغيارِ
كأنَّ إبريقنا والراحُ فى فمه طيرٌ تنــاول ياقوتاً بمنقارِ

فصاح القوم : لله أبوك يا أبا العلاء ! لقد جبهت فاتنا وألقمته حجراً !

و بعد أن قضى القوم وقتاً فى الحديث تقدّم غالب فى أدب و إكبار نحو القاضى ثابت بن قاسم ، وطلب منه أن يعقد له على فلورندا ، فعقد له عليها ثم انصرف القوم جذلين يكررون التهنئات للعروسين .

وعاش غالب مع زوجه فى سعادة ورفاغة عيش وحبٌ تزيده الأيام تجدّدا ، ورُزق منها بنتاً سمّاها عائشة ، نشأت فى عزّ ونعيم . ولما انقضت الدولة العامرية ، وولِى الخلافة المستعين بالله ، كان لغالب عنده مكانة مرموقة ، واتفق أن وثب على قرطبة علىّ بن حمّود الحسنى وأخوه قاسم ، يعاونهما جيش من البربر ، فخرج المستعين لقتالهم ، وكان غالب فى أول صفوف المجاهدين ، فدارت الدائرة على الخليفة فقُتل وقتل معه غالب ابن أبى حفص ، وترك زوجه فلورندا وابنته عائشة تقاسيان لوعة الثُّكل ، وتنعمان بثروة مؤثّلة وعزّ مقيم .

ونشأت عائشة فى كنف أمها مدلّلة لعوبا ، تعمل ما تشاء ، وتجرى مع شيطان غيّها كما تريد ، واندمجت فى المجتمع القرطبى ، يذلّل المال لها كل طريق ، ويفتح الجمال أمامها كل باب .

كانت عائشة فى بدء قصتنا هذه فى الخامسة والعشرين من عمرها ، وكانت ذات جمال وملاحة ووجه نضير مشرق، إذا تأملته جزءا جزءا كان

نيقاً جميلاً ، و إذا نظرت إليه جملةً كان آنق وأجمل . وجه تنافست فيه العروبة السمحة والإسبانية الفاتنه ، فجاء كل جنس منهما بأبدع ما فيه وأروع . هكذا كانت عائشة بنت غالب فيما ترى العين ، وفيما يبدو منها من جمال باهر . أمّا روحها وأما أخلاقها وأما فلسفتها فى الحياة ، فكانت على النقيض المخالف من ذلك المظهر الخلّاب . ولو أن هذه الروح صُوِّرت ، أو لو أن العلم استطاع أن يرسُم الصفات والمعانى ، لرسم لها مخلوقاً بشعاً لم يصوّر الله أدمّ منه فيما صوّر . وكما خلق الله للأفاعى أوعية تُخفى سمومها ، خلق لهذه المرأة خلقا واحداً يستر كل هذه المثالب ويحجبها عن أعين الناظرين . ذلك هو خلق الرياء ، فقد بلغت فيه الذِروة ، ووصلت إلى القِمة . كان فى مَكِنتها أن تظهر طيبة القلب رقيقة العاطفة ، تمزج دموعها بدموع البائسين . وكان فى مَكِنتها أن تبدو خجولا خفِرة تُطرق حياء من تطفّل الناظرين . وكانت تستطيع أن تستر فى مهارة وحذق كلّ رذيلة فيها بنقيضها ، حتى يعود الجهل علما ، والحقد عطفا ، والبغض حبّا ، والشره زهدا . ولقد رمتها الوراثة بنفس حقود وشغف بالانتقام وكراهة متأصّلة للعرب ، ولكنها كانت تخفى كل ذلك وراء ستار كثيف من الدهاء والملَق والظهور بالغَيرة على العرب ، وكلّ ما يتصل بالعرب .

فُتنت بابن زيدون وفتن بهـا إلى أن أيقظه صائح الرشد فقطع حبالها ، وكتب إليها الرسالة التى أملتها عليه نائلة . كتبها خائفاً متردداً ، لأنه كان يعلم أن وراءها حرباً حامية الوطيس ، ولأنه كان يعلم أن عائشة ليست من

النوع الذى يُصرف بالرسائل ، ولا من الصنف الأبيّ الذى يقابل هجرانا بهجران ، ولكنها من الطراز الذى لا ينهزم ، من الطراز الذى يحب كثيراً ، فإذا أبغض أبغض كثيراً . وهى إذا مُسّت عاطفتها ، أو طعنت كبرياؤها ، انقلبت وحشاً لا تُرويه الدماء ، وأفعواناً لا تنفع فى سمّه رُقية ولا يجدى دواء .

بلغت رسالة ابن زيدون عائشة فأصابها وجوم عجيب ، وذهول مُريب ، وأخذت تهتزّ هِزّة المذبوح ، وتقهقه قهقهة مجنونة خيرٌ منها العويل والنُواح ، فأسرعت إليها جاريتها غالية فى شماتة مكتومة ، ودهِشت أمها فأقبلت نحوها فى ذعر وهى تقول :

— ما الخبر يا عائشة ؟ ولكنها دفنت وجهها بين كفيها ، وأخذتها نوبة بكاء ونشيج ، يقطّع نياط القلوب ، فانكبت فلورندا على رأسها تقبّله فى حنان ، وتحاول أن تنزع إحدى كفيها عن وجهها فى دُعابة مصنوعة ، واستهانة بالأمر متكلَّفة ، وشرعت تقول : إن ابنتى أشجع من أن يدفعها إلى البكاء خطب وإن جلّ ، إنها مُصاص الدم الأسبانى الذى لا يعرف الخوف ، ولا يأبه للكوارث ، إننى أُزهى بك يا عائشة على جميع بنات قرطبة الضعيفات النفوس المنحلّات العزائم ، فيك عزم جدك جارسيا ، وفيك مضاؤه وفتكه بالأعداء . لقد رأيته فى أشدّ نوازله فما رأيت دمعة تطفِر من عينيه . وكان يقول حينما يراك وأنت تضرب بين الصبيان ، وتأخذين بشعر نواصيهم : « هذه ابنتى يا فلورندا حقا ، وقد

كنت أخاف أن يطغَى عليها الدم العربى » ثم يُطرق مبتسما و يقول فى صوت خافت : « إنها ستنتقم لنا من العرب » . فماذا جرى يا عائشة ؟ أضاعت فيك فراسة جدّك أم عاودك عرق من لين أبيك ورخاوة طبعه ؟ ماذا فى هذه الورقة ؟ ثم جذبتها بعيداً فى إحدى زوايا الغرفة وهمست فى أذنها قائلة :

— أبالورقة نذير بخطر ؟ هل قبض على أسبيوتو ؟ لقد كان هنا بالأمس ، وكان مرحا ضحوكا ، فما الذى جرى ؟ احذرى يا فتاتى ! و إياك أن تدفعك الغريزة إلى ما لا يُدفع من الشرّ! واعلمى أن من الناس من يتصنّع النوم وهو ليس بنائم ، و يتغابى وهو ليس بغبىّ ، والصيد قد يفجأ من حيث لا يرتقب ، والسفينة قد تُدهم بالعاصفة وهى فى ريح سجسج رُخاء . ماذا فى هذه الورقة يا فتاتى؟ إن كانت من أسبيوتو فمزّقيها. فرفعت عائشة كفيها عن وجهها ، والكلمات تتعثر فى فيها وقالت :

— إنها من ابن زيدون .

— هل قال فيها إنه مات بعد كتابتها ؟

— لو مات لكان الخطب أهون وأيسر .

— ماذا قال فى رسالته ؟

— لطمنى لطمة سأترنّح لها إلى الأبد ، وداس على حبى بقدميه ، ومرّغ كبريائى فى التراب ، وركل برجله عاطفة كنت أعتزّ بها ، وصوّرنى

سائلة مستجدية ممزّقة الثياب تمدّ يدها إليه للإحسان فيبصُق على اليد الممتدة إليه و يوسعها زجراً ونهراً .

— كانت عقيدتى فيه دائماً أنه شاب ماجن دوّار ، كالطائر الذى يغرّد فى كل روض ، و يأكل من كل ثمر . دعيه يا عائشة فإن ألف شاب فى قرطبة يرى من أكبر نعم الحياة أن يكون لك زوجا .

فعادت نو بة القهقهة إلى عائشة وصاحت فى غضب :

— أدع ذلك العربى الغادر ؟ إنه آذننى بحرب، وسأريه كيف تكون الحروب ! سأريه أن فى دمى عزيمة الأسبان ! إنه يتبجّح بشعره ، و يُزهى بأدبه ، ويطمح إلى أسمى المناصب ، ولكنى سأفضح هذا الخبيث وأكشف لرجال الدولة مكنون أسراره ، حتى يُسدّ فى وجهه كل باب ، و يطفأ فى صدره كل أمل ، ويصبح شبحا هزيلا منبوذاً ، تهارشه الصبيان ، و يرميه كل رجل بحجر . سأريه أن المرأة — حينما تريد — تستطيع أن تعصف بأكبر رجل إذا نفذت إلى أسراره . إن لكل إنسان فى هذه الدنيا خزانة مخبوءة تجمع أخبار ماضيه وما فيه من مخازٍ وفضائح ، وهو حريص على هذه الخزانة حفىّ بألا يرى ما فيها شعاعٌ للشمس، يُحكم إقفالها كل يوم، ثم يدفنها تحت أطباق الثرى ، لا تعرف عنها زوجه شيئا، ولا يسرى منها إلى أولاده أو أخصائه خبر . وهو رجل فى أعين الناس عظيم المكانة ، مرموق المنزلة، لا ترقى الشبهة إلى خلائقه ، ولا يمس الدنس له ذيلا . ولكن اختفاء بعض هذه الخزائن لا يدوم ، فقد ينسى صاحبها

الغِرّ مفتاحها فى جيب ثوب يخلعه ، أو يذهَل عنه بحادث مزعج فيتركه فى ثَقَبه ، أو يفقده فى الطريق فيعثر عليه لصّ ماهر يسعى للبحث عما فى هذه الخزائن ، أو نزول الكلفة بينه وبين صديق فيفتح له بابها ، ويقذف أمامه بما فيها من أوساخ وأقذار . وهكذا فعل معى هذا الأحمق ابن زيدون يا أماه ، فإن مفتاح خزانته فى يدى ، وسر واحد من أسرارها كاف لأن يهدم حياته ، ويقضى على ما بها من آمال .

— سُحْقاً للخائن ! إنه سيلقى عقابه جزاء وفاقاً . والمثل الأسبانى يقول : إذا قذفت الزجاج بحجر قذفك بشظاياه .

أما غالية فقد جعلت بين قلبها ووجهها حجاباً لا ينفُذ منه شعاع ، والنساء أقدر خلق الله على إسدال هذا الحجاب . ثم أمرت عينيها أن تصبّا شيئاً من الدمع لإكمال صورة الحزن والأسف وقالت :

— إن هذا المأفون لم يكن شيئا ولم تسمع به قرطبة إلا بعد أن اتصل بسيدتى ، فرفعت قدره ، وأعلت مكانه ، وأرغمت الناس على التحدث بأدبه والتغنّى بشعره . وإنى أعرف من مباذل هذا المائق ما لا تستطيع غسله أمواج البحار . فنظرت إليها عائشة نظرة شكر وارتياح وقالت :

— لا يا غالية . دعيه لى . فإنه لُعبة صغيرة سأروّح بها عن نفسى ، فإذا فرغت منها فرّجت همومى بتحطيمها ، وسيعلم الوغد أن حفيدة جارسيا إذا عزمت صممت ، وإذا رمت أصمت .

(٥)

استيقظ ابن زيدون من نومه بعد أن قضى أول ليله فى وليمة نائلة فى لهو وطرب ، وبعد أن قضى آخره فى همّ ونَصَب وأرق . فإن الماضى الدميم لا يزور أصحابه إلا إذا أوَوْا إلى مضاجعهم ، وانفردوا بأنفسهم ، وبعُدوا عن ضجيج الحياة وصخَبها . فما كاد رأس ابن زيدون يمسّ الوسادة ، حتى أطلّت عليه الذكريات برءوسها بشعة منكَرة ، كأنها رءوس الشياطين . وهذه الذكريات تظهر أول الأمر فى هيئة أشعة ملوّنة مبهمة ، ثم تتجمع وتتناسق لتَبْرز صورة واضحة لشخص أو لحادثة، لا يجد المرء عنها محيداً ، ولا دونها منصرَفاً . وكلما زاحمها بالتفكير فى شىء يسرُّه ويشرح صدره ، ويجذب إليه النوم الهادئ المنىء ، طردته فى عنف وجبَرِيَّة ، وأخذت مكانه شامتة ساخرة . وكلما حاول أن يجعل بينه وبين التفكير المطلق سدًّا ، وأن يحملق فى الظلام كما يحملق المعتوه ، أبى الدماغ أن يبقى فارغا، وأسرعت إليه الصورة كأول ما كانت قوة وظهورا . وقد يرى أن يفرّ من الوَحدة بالقراءة ، فيوقد المصباح ويختار أجلب كتاب فى خِزانته للتسلية والتفريج ، ويطلُّ على السطور ، فإذا هى تتراقص أمامه مخرجة له لسانها فى تحدٍّ وعبث ، وإذا الصورة السمجة تزاحم الكلمات وتحجُب عنه السطور .

ألقى ابن زيدون رأسه على وسادته فظهرت له أشباح وصور : هذه صورة عائشة يراها لأول مرة فى ليلة ساهرة بدار ابن عبدوس . كانت مع أمها ، وكانت تجلس حييّة خفِرة ، يبعث حولها جمالها هالة من نور ، كأنها من سكان السماء ، وقد عرّفه ابن عبدوس بها ، فما زادت على أن ابتسمت ابتسامة خفيفة ، كأنها شعاعة الشمس فوق الزهرة المطلولة ، ولقد كان المدعوون فى نشوة ومرح وزِياط ، ولكنها كانت هادئة وادعة دون أن ينمّ وجهها عن تبرُّم أو استنكار . ثم غابت الصورة ، وتجمعت أشعة جديدة ، فأظهرت له صورة أخرى : كان فى سفينة بالوادى الكبير فى جمع من إخوانه ، وكان الوقت ربيعاً ، وكانوا يقذفون بالورود والرياحين ركاب كل سفينة تمرّ بهم ، وكان ابن زيدون أكثرهم مرحا ، ومرّت بهم سفينة بها عائشة ، وكان بها عدد من القِيان يعزفن بالمزاهر ، وراقصة مُرّاكُشية لصنوجها رنين ساحر . وقذف ابن زيدون وردة دون أن يقصد إلى هدف فسقطت على وجه عائشة ، فإذا الابتسامة الخفيفة المشرقة تعود وتصحبها إيماءة رضاً ومجاملة ، وإذا ابن زيدون يعتذر فى استخذاء ، ولكن السفينة تسير دون أن ينعَم بقبول اعتذاره .

وذهبت الصورة بذهاب السفينة فى أمواج النهر ، وتجمعت أشعة جديدة : فإذا صباح مشرق ، وإذا خادمه علىّ يدخل عليه برسالة ينتظر حاملها الجواب عنها ، إنه الآن ينظر إلى نفسه وهو يفتح غِلاف الرسالة ، وها هو ذا الآن يقرأ ما فيها :

يا سيدى الشاعر المبدع ، سمعتك تقول :

سأقنع منكِ بلحظِ البصَرْ وأرضى بتسليمكِ المختصَرْ

ولا أتخطّى التماسَ المُنى ولا أتعدّى اختلاس النظر

أصونكِ من لحظات الظنونِ وأُعليكِ من خطرات الفكر

وأحذرُ من لحظاتِ الرقيبِ وقد يُستدام الهوى بالحذر

فأحببت غزلك العفيف ، وأكبرت أدبك وفنّك ، فاصدح فى أفق الأندلس بلبلا غِرِّيداً ، وعش للمعجَبة بك عائشة بنت غالب » .

يذهَل ابن زيدون عند قراءة الرسالة ، ويخالط نفسه سرور مبهم ، ثم يتخيل عائشة التى رآها فى دار ابن عبدوس وفى السفينة ، فيراها صورة من النبل وكرم الخلال ، ويرى أنها كما يبدو من رسالتها أديبة تقدُر شعره ، وتتابع منه ما يذيع بين الناس ، والشاعر أفتن الناس بشعره ، والإشادةُ بما يقول أضعفُ مدخل يلج منه الخبثاء إلى نفسه . سُرّ ابن زيدون بالرسالة فأسرع يشكرها عليها ، ويثنى على أدبها وحسن تقديرها .

وتذهب هذه الصورة ، وتتجمّع أشعة جديدة : ويرى ابن زيدون نفسه فى ذات أصيل أمام مريم العروضية ، وقد جاءت تزوره وتذكر له أن عائشة بنت غالب زارتها فى الصباح ، وطلبت منها فى إلحاح آخر قصيدة له ، ثم تتجه إليه باسمة وهى تقول : إنها معجَبة بك ، مولعة بشعرك ، فإننى حينما أخبرتها أننى لا أحتفظ بنسخة من القصيدة ، ظهر الأسف على وجهها وقالت ذاهلة : وكيف أحصُل عليها ؟ فقلت لها إن الأمر أهون من أن

يسَهم له وجهك الجميل ، نذهب إليه يا فتاتى لنستملى القصيدة ، وسيكون أسرّ خلق الله برؤيتك ، وأكثرَهم زهواً بإعجابك بشعره ، ولكنها أطرقت فى استحياء وقالت : إنه ليخجلنى أن أذهب إلى رجل فى داره ، فهل من رأى آخر يا خالتى ؟ قلت : يذهب هو إلى دارك ، فهو رجل سمح الخلق كريم النِجار . فقالت متلهفة وجِلة : وتكونين معه يا خالتى ؟ قلت أكون معه يا فتاتى ، ثم تنظر إلى ابن زيدون وتقول : فماذا ترى يا أبا الوليد ؟ فيسمع نفسه وهو يقول : أزورها معك وسروراً وكرامة .

وتتجمع أشعة جديدة : فيرى داراً رفيعة البناء، يدل مظهرها على العظمة والغنى والجاه العريض ، وتُقبل عائشة فى تؤدة وبطء ، تتألق البشاشة فى وجهها كما يتألق نور اليقين بين ظلام الشكوك ، وتمدّ يدها إليه مرحِّبة مؤهِّلة فيحييها فى لطف وأدب . ويجلس الثلاثة فى بهو رحْب ، ويدور حديث رقيق الحواشى فى الأدب والسياسة ، وتزول الهيبة عن عائشة رويداً رويداً ، ويتفتّح طبعها كما تتفتح الوردة لأضواء الصباح ، وتذهب الكُلفة ، ويحلُّ المرح محل الحياء ، وتُنثر الفكاهات والملح ، ثم تأمر عائشة جاريتها غالية أن تُحضر أقلاماً وأوراقا ، وتجلس جِلسة التلميذة المطيعة فى تصنُّع محبَّب وتقول : أمْلِ علىّ يا سيدى رائعتك الأخيرة فى ابن جهور . فيرى نفسه وهو يملى عليها :

أما علمتْ أن الشفيعَ شبابُ ... فيقصُرَ عن لوم المحب عتابُ ؟

علامَ الصبا غضٌّ يرِفُّ رُواؤه ... إذا عنَّ من وصل الحسان ذهاب ؟

وفيم الهوى محضٌ يَشِفُّ صفاؤه ... إذا لم يكن منهن عنه ثواب ؟

تُظَنُّ النوى تعدو الهوى عن مَزارها   وداعى الهوى نحو البعيد مُجاب

ثم يتخيل نفسه وهو يقرُب منها ليرى أين انتهت فى الكتابة ، فيفغَمه من شعرها طيب ُفِردوسى الشذا سماوِى النفحات ، وتنتهى القصيدة و يحيِّيها و ينصرف وهو أشغف الناس بها .

ثم تتجمَّع الأشعة وتتكون الصور في سرعة وتعاقب : فيرى أنه أصبح لعائشة عبداً ، وأن إرادته سُلبت منه سلباً ، وأنه صار شبحاً يروح ويجىء كما تريد هى أن يروح ويجىء ، وقد انطفأ فى نفسه كل أمل، ومات كل طُموح ، وخمدت كل عزيمة . ثم تطير كل هذه الصور ، وتتجمع أشعة جديدة تُبرز صورة صارخة الألوان ، هى صورة الرسائل التى كان يبعث بها إليها أيام جنونه بغرامها، فيئن أنين المجروح، ويُطبق عينيه فى ألم مُمضّ قاتل .

استيقظ ابن زيدون من نومه فى رائعة الضحا فدخلت إحدى جواريه وهى تقول :

— هذه رسالة يا سيدى جاء بها بلال عبد سيدتى عائشة ولم ينتظر .

فيأخذ ابن زيدون الرسالة بيد ترتعد ، ثم يفضّ غِلافها و يقرأ :

يا سارياً بين الأسنةِ والقنا   إنى أشَمُّ عليك رائحةَ الدم !

فيقذف بها غاضباً ، وينهض من سريره كأنه يريد أن يفرّ مما حوله من نُذُر الشرّ والدمار ، ولا يمضى قليل حتى تعود الجارية فتقول :

— إن أعوان ابن جهور حضروا الساعة يطلبون من سيدى أن يذهب على الفور معهم لمقابلة عميد الجماعة .

كاد ابن زيدون يسقُط على الأرض حينما فجأته الجارية بهذا الخبر ، وحاول أن يشدّ من ساقيه فلم يستطع ، فألقى نفسه على كرسىّ كان بجانبه وقال وهو يلهث :

— أعوان ابن جهور ؟

— نعم يا سيدى

— ما عددهم ؟

— أربعة يا سيدى .

— هل يبدو على وجههم العُبوس ؟

— هم دائماً عابسون يا سيدى !

— حينما تحدّثوا إليك هل كان فى كلامهم غلظة وخشونة ؟

— كانوا أشدّ غلظة من زبانية الجحيم .

فأطرق ابن زيدون طويلا ، وأخذ يحدّث نفسه قائلا : أربعة من أعوان ابن جهور ، يُرسَلون إلىّ فى الصباح ! لن يكون هذا لخير ، ولن يكون إلا لشرّ ماحق ، وبلاء مُحيق . لقد أسرعت عائشة بالهجوم ، كنت أظن أنها ستقضى بعض الزمن فى استرضائى أو تهديدى ، ولكنها رأت أن تفجأ عدوها بالوثوب قبل أن تسنح له فرصة الفِرار أو يتفتق له الرأى عن حيلة ، إنها محارب مدرّب ، يرى أن الضربة الأولى نصف الانتصار . ومما لا يحوم حوله شك أنها ذهبت بالرسائل أمسِ إلى ابن جهور ، وكل سطر بها فيه الموت الزُؤام ، والكوارث الجِسام . إن ابن

جهور رجل عنيف جبار ، لا يُغضى عن شبهة ، ولا يتجاوز عن اللمم .
لعن الله الحب ، ولعن الله الأدب ! ولعن الله التظرّف الذى يجرّ إلى التفكّه بأعراض الناس لا لشىء إلا أن يقولوا : إن فلاناً أديب بارع لاذع النكتة صادق الرماية ! لقد جرّ إلىّ حبى الجنونى ، وأدبِى المعربد ، وطبعى المرِح الضحوك أعظم الويلات وأوخم العواقب . الآن أدخل على ابن جهور فأرى ذلك الوجه العبوس الجَهم، وأسمع ذلك الصوت الجَهْوَرى الحانق ، وأشهد من بوادر غضبه ما يهون أمامه كل خطب جلل .

يقوم ابن زيدون فيرتدى ثيابه ، ويأمر خادمه أن يُعدّ له بغلته ، ثم يخرج وهو يتكلف الابتسام ، فيرى أعوان ابن جهور فيحيِّيهم بإيماءة العظيم المحسّ بجلال منصبه ، ولكنه يلمح من طرْف خفى أنهم لم يطأطئوا له رءوسهم ، ولم يُظهروا الخضوع الذى يصطنعونه لكبار الساسة ، فيغوص قلبه بين جنبيه ، ويؤكّد له الخوف أنهم لو جاءوا لخير أو لغير شرّ لتكلّفوا الأدب والملَق .

ويمتطى ابن زيدون بغلته ويحيط به الأعوان فيسألهم :

— مَن عند مولاى أبى الحزم ؟ فيجيب أحدهم :

— إنه منذ باكورة الصباح فى مجلس حافل بوزراء الدولة وعظمائها .

— هل سمِعته يضحك ؟ فيدهَش العوْن ويخالجه شكّ فى عقل من يخاطبه ويقول :

— يضحك ؟ ماذا يريد سيدى بهذا ؟

— يضحك يعنى يضحك . الضحك يا شيخ ألا تعرفه ؟

— أعرفه ، ولـكن مولانا أبا الحزم قليل الابتسام بلْهَ الضحك ، وهو فى هذا اليوم أشدُّ خلق الله جُهومة .

— هل زارته امرأة بالأمس فى دار الرياسة ؟ فتزيد دهشة العون و يقول:

— ماذا يقصد سيدى ؟

— امرأة . . . امرأة . . . هل جاءت بالأمس امرأة وطلبت مقابلة ابن جهور فى شكاية أو رفع مظـلَمة ؟

— نعم وهذا يحصل كثيراً يا سيدى .

و بلغ ابن زيدون دار الرياسة ، وكان أولَ من قابله ابن عبدوس فحيَّاه ضاحكا وهو يقول : إن لهذا اليوم ما بعده يا أبا الوليد ! ثم رأى محمد ابن عباس يمرّ به مقطِّباً لا يخاطبه بكلمة . وقد كان فى هذه اللحظات القليلة هدفاً للهواجس ، فـكان يؤوِّل الابتسامة بالسخرية والشماتة ، والعبوس بالاشمئزاز والإهانة ، ويفسِّر كل كلمة تُلْـقَى إليه بما يملأ نفسه من خوف و إحساس بالخطر ، وأخيرًا جاءه الإذن بالمثول أمام ابن جهور .

كان ابن جهور فى نحو الثالثة والستين ، ضخم الجسم ، وسيم الوجه ، يركُد فوق وجهه عبوس قاتم لا يكاد يفارقه . وكان عظيم اللحية يصبغها بالحِنَّاء ، شديد بريق العينين ، له نظرات نافذة كأنها تحاول أن تصل إلى ما فى القلوب . وكان جليل المهابة مخوفاً ، ليس فيه جانب للهو ، ولا مكان للإغضاء عن عيب . وهو رجل قديم الرياسة ، شريف البيت ، كان

آباؤه وزراء فى دولة الحكَم بن الناصر لدين الله ، ثم استوزرهم المنصور بن أبى عامر . وهو باقعة بعيد الغور ، حصيف العقل ، نأى به دهاؤه عن أن يدخل فى الفتن التى اشتعلت نيرانها بالأندلس بعد انقضاء الدولة العامرية ، فلما خلا له الجوّ ، وأقفر النادى من الرؤساء ، وثب إلى الحكم فتولّى أمره ، وقام على رعايته . ذلك أنه فى منتصف ذى الحجة سنة اثنتين وعشرين وأربعمائة ، بعد خلع هشام ومقتَل وزيره ، اجتمع الملأ من أهل قرطبة على تقديمه ، وعدّدوا من خصاله ما لم يختلف فيه أحد ، فأبى عليهم ذلك ، فألحّوا وألحفوا ، فقبِل بعد أن اشترط أن يحكم البلد جماعة فيهم الشيخان محمد بن عباس وعبد العزيز ابن حسن ، وأن يكتفى هو بالإشراف على هذه الجماعة وتوجيهها إلى الخير والسداد .

دخل ابن زيدون محيّيا عميد الجماعة وجِلاً مهولا ، فمدّ إليه ابن جهور يده قائلا :

— كانت ليلتك بالأمس فى دار نائلة الدمشقية ليلة ماجنة !

فانحلّت أوصال ابن زيدون ، وعلم أن الزوبعة تتجمع لتثور ، وأن الصاعقة توشِك أن تنقضّ فقال :

— إنها جمعت يا سيدى أدباء قرطبة وشعراءها ، وكان السمر فيها عفًّا لا يخمِش وجه الأدب .

— وكانت الألحان ! وكان الرقص ! وكانت الخمر ! فقال ابن زيدون فى

نفسه : هذه بداية الشرّ . إنه سيخرج من هذا إلى مسألة الرسائل . فجمع قوة جأشه المبدّدة وقال :

ولكنى كنت أقول يا مولانا كما قال الرسول الكريم : « اللهم حَوَالَيْنا ولا علينا » . فنظر إليه ابن جهور نظرة حائرة وقال :

— أخشى أنك تخدعنى يا فتى .

— كيف أخدعك يا سيدى وقد زانني قديم خدمتك ، وزهانى وسم نعمتك، وأبليت البلاء الجميل فى سماطك، وقمت المقام المحمود على بساطك؟

ثم يقوى فيه واهن الأمل بعد ما رأى من هدوء ابن جهور فيقول :

فديتُك إنى قائل فمعرِّضٌ بأوطارِ نفسٍ منك لم تقضِها بَعْدُ
أمثلىَ غُفْلٌ خامل الذكر ضائع ضياعَ الحسام العَضْبِ أصدأه الغمد ؟
أنا السيف لا ينبو مع الهزِّ غَرْبُه إذا ما نبا السيف الذى تطبَع الهند
بدأتَ بنُعمىَ غضّـةٍ إن توالِها فحُسْنُ الألَى فى أن يواليَها سرد
لعمرك ما نلمال أسعى ، فإنما يرى المال أسنى حظِّه الطَّبِـع الوغد
ولكن لحالٍ إن لبِسْتُ جمالها كسوتك ثوبَ النصحِ أعلامُه الحمد

فلما أتمّ الأبيات تحرك ابن جهور فى مجلسه وقال : لقد اجتمع الوزراء فى هذا الصباح وأسندوا إليك منصِب الوزارة ، ورأيت إلى ذلك أن تُلقَّب بذى الوزارتين ، لأنك ستكون وزيرى وسفيرى إلى أمراء الأندلس . ولن أنسى لك يا أبا الوليد عظيم جهادك وكريم بلائك فى كبح ِجماح البربر .

أرأيت الغريق ولم يبق منه إلا الذَّماء يرى يدا تمتدّ إليه بين الأمواج

فتقذف به إلى الشاطىء الأمين ؟ أرأيت ميتاً مُسجًّى جلس حوله أهله يبكونه ، فإذا الغطاء ينكشف ، وإذا الميت يثب كأحسنِ ما يكون صحة وعنفوانا ؟ تلك كانت حال ابن زيدون . فإنه ما كاد يسمع كلمات ابن جهور حتى طافت بعينيه غشية ، وأخذ لسانه يتلعثم بكلمات كان فيها الخفاء إفصاحا ، والإبهام بياناً . ثم عاد فملك زمام نفسه فشكر ابن جهور على عظيم ثقته وجميل رأيه ، وخرج من لدنه مزهوًّا كأن مُلك الأرض جُمع له فى مِنديل ، وكأن الشمس توّجته بالأكاليل .

وفى نفس هذا الصباح قبل أن يستيقظ ابن زيدون من نومه ، ارتدت نائلة خير ثيابها ، وأخذت مِقصّا صغيراً أخفته فى جيبها ، ثم قابلت عبيدها الذين أعدّوا مِحفّتها فسألتهم :

— هل أحضرتم قوارير النِفْط وأعواد الثِقاب ؟ فأجاب كبيرهم :

— نعم يا سيدتى . أعددنا خمس قوارير أخفيناها تحت ثيابنا .

— حسن . سنذهب الآن إلى دار عائشة بنت غالب ، فإذا صعِدت إليها فاجلسوا أنتم إلى عبيدها ، وخذوا معهم فى الأحاديث ، ثم اطلبوا منهم أن يُعدّوا لكم شرابا ساخناً ، فإذا أوقدوا النار فغافلوهم ، وليسكُب كل منكم ما فى قارورته على النار ، وأحدثوا نوعا من المَرْج تتمكنون فيه من إلقاء بعض المتاع على النار لتزيد اشتعالا ، وإياكم أن يراكم من العبيد أحد ، أو يدرك حيلتكم أحد ، ثم ارفعوا أصواتكم فى هلع وذعر صائحين : النار ! النار ! هذا ما أريد منكم أن تعملوه فى هذا الصباح ، ولا بد من إتقانه

على أحسن وجه ، كما يجب ألاَّ تحوم حولكم شبهة .

وركبت نائلة المحفَّة ، وانطلق العبيد حتى بلغوا الدار ، فصعِدت الدرَج وقابلتها عائشة فى فتور وكبرياء ، ولـكن نائلة الداهية لم تحفِل بما رأت فى سبيل غايتها ، ففتحت ذراعيها لعائشة فى شغف ووله ، وأخذت تُمطرخديها قُبَلًا ، وتناجيها بأصدق ما يناجى الحب ، وألطف ما يُكِنُّ الوداد ، ثم صاحت : ما هذا يا عائشة ؟ أفى كل يوم تزيدين نضارة و إشراقا ؟ لقد حبّبت إلىّ الشباب يا ساحرة ، ولـكن أين الشباب ؟ أتعلمين أننى بعد أن حُرِمتُه أشعر بلذة عجيبة حينما أراه فى فتاة مثلك لم تشرق على مثلها شمس قرطبة ؟ فأجابت عائشة :

— هذا إطراء يا سيدتى يزيدنى زهواً وغروراً . أرأيت ابن زيدون منذ قريب ؟

— كيف أراه يا حبيبتى ، وهو لا يفارق دارك ؟ ولـكننى فى الحق أعذِره وأعذر كل فتى يُفتن بهذا الجمال الرائع . ثم إنى لا أخفى عليك أن من أسباب زيارتى لك فى هذا الصباح أن أراك وأن أراه ، فإن هذا الملعون هجر دارى منذ عهد بعيد ، حتى كدت أنسى ملامح وجهه . ثم ألقت بنظرة خفيَّة فرأت الغرفة الغربية ، ورأت بابها مفتوحا ، ثم أرسلت نظرة أخرى فرأت مفتاح خِزانة الرسائل وقد شُدّ بخيط إلى عنق عائشة .

وهنا تنهدت عائشة وقالت :

— إنه هجر دارى أيضاً .

— هجر دارك ؟ ! هذا مستحيل .

— هجرنى فعلا ، ولكنه سيندم حين لا يُجديه الندم .

— لا تقولى هـذا يا بُنيَّة ، واتركى الأمر لى ، فلن يأتى المساء إلا وخطيبك فى دارك .

وطال الحديث ، وامتد حبـل الـكلام ، وإذا صُراخ وضجيج وأصوات منكرة تصيح : النارَ النارَ ! ففزِعت عائشة ، وأدركها الوَهَل ، وأسرعت تثب فوق الدرج لتعلم حقيقة الأمر . وبينما هى فى ذهولها إذ مدّت نائلة يدها بالمقص فقطعت خيط المفتاح ، وأخفته فى كُمّها . وما كاد البهو يخلو من عائشة حتى نهضت إلى الغرفة الغربية ، فرأت المرآة وبجانبها الخزانة كما أخبرتها غالية ، ففتحتها مسرعة ، وندلت منها الرسائل بعد أن حققت النظر فيها ، ثم أسرعت فى النزول وكانت النار قد أخمدت ، فحمِدت الله على زوال الخطر وقبّلت عائشة فى حنوّ ومحبّة وهى تودعها ، وحينما بلغت الباب التفتت إليها وقالت وهى تغمز بإحدى عينيها : أظنّ هذا المفتاح سقط منك يا زهرتى الصغيرة ، وأنت تسرعين إلى إطفاء النار . فصُعِقَت عائشة ، وفتحت فاها دَهِشة مذهولة ، وهمّت بأن تثب على نائلة ، ولكنها كانت فوق المحفة يعدو بها عبيدها كما تعدو كرائم الخيل .

وأمرتهم نائلة أن يذهبوا إلى دار ابن زيدون ، وما كادوا يصلون إليها حتى أشرف عليهم فوق بغلته ، وحين رأى نائلة نزل ليحيّيها وهو يصيح فى فرح وصوت متقطع : تقلدت الوزارة ! جئت الآن من دار الرياسة .

قابلت ابن جهور . إنه رجل عظيم . من أين جئت يا خالتى ؟

— من دار عائشة .

— عائشة ! عائشة ! قاتل الله عائشة ! ماذا كنت تصنعين فى دارها ؟ فضحكت وقالت :

— كنت أطفىء نارا بنار . ثم ألقت فى يده الرسائل وهى تقول :

— خذ رسائلك أيها الوزير العظيم ، واحذر أن تكتب غيرها . فصاح ابن زيدون فى فرح يشبه الجنون :

— الرسائل ! الرسائل ! ورمى بنفسه يقبّلها ويعانقها ، ويحجل بإحدى قدميه كما يحجل الصبيان ، ثم أخذ بها نحو الباب قائلا : كيف حصلتِ عليها يا خالة ؟ فقصّت عليه الخبر ، فقام إليها يكرّر عناقها وتقبيلها وهو يغمغم : أنت ملكى الحارس ! أنت نبراس حياتى ومنقذة آمالى ! ثم ودّعته وانصرفت بعد أن كرّرت تهنئته بالوزارة .

جلس ابن زيدون وفتح الرسائل ، فكان فى إحداها :

« أمّا ابن جهور فزِقٌ نفخته الكبرياء ، وصورة من نفاق ورياء ، يخدع الناس بلحيته الحمراء ، ومِسبحته السوداء . مِنْ رجل يثب عند الطمع ، ويختفى عند الفزع ! لو كان فى الجاهلية لكان هُبَل ، أو كان كوكبا لكان زحل . »

فارتعش وقال : هذه الرسالة وحدها تكفى لإهدار دمى ومحو اسمى من سجل الوجود . ثم نظر فى رسالة أخرى وقرأ :

« رأيت محمد بن عباس بالأمس ، فرأيت الجهل فى ثياب ، والوقاحة فى جلباب ، نظر إلىّ نظرة البطِر الأشِر ، كأنه يظن الشمس أن تُشرق بأمره ، وأن الألسنة تسبِّح بحمده ، غنىّ المال ، فقير العرض ، دنِس الذيل ، هزيل المروءة . »

فجمجم وقال : وهذه أشدُّ وأنكى ، ثم قرأ فى رسالة ثالثة :

« وهذا عبد العزيز بن حسن ابن عم عميد الجماعة ، سألنى اليوم عن بيت من الشعر ، فوالله ما أقام له وزناً ، ولا عرف له معنى ، يا له من عتلّ زنيم ، وثعلب لئيم ، يقضى ليله بين الكاسات ، ونهاره فى ظلم المسلمين والمسلمات . »

فاضطرب وقال : وهذه ثالثة الأثافى . ثم صاح : ياعلىّ هاتِ موقِد النار . فلما حمله إليه قذف فيه بالرسائل ، ولم تهدأ له نفس حتى رآها رمادا .

(٦)

ومرّت الأيام تتلو الأيام وابن زيدون فى أطيب عيش وأهدأ بال . أقبلت عليه الدنيا بعد تدلل وشِماس ، والدنيا إذا أقبلت أقبل معها كل شيء . وكأنَّ الأمور فيها تجذب أمثالها ، فالنحس يجتذب النحوس ، والسعد يدعو إليه السعود . وقديماً قالوا : المصائب لا تأتى فُرادَى ، ولا ندرى لِمَ لم يقولوا أيضاً : إنَّ النعم لا تأتى فرادى !

عاش ابن زيدون فى هناءة وبُلهنية ، وأصبح فتى قرطبة المدلَّل ، و بطلها المرجَّى ، وشاعرها الذى لا يُجارى ، وكاتبها الذى لا يُمارى . نال السعادة فى الحب حينما رضِيته ولادة خطيباً ، فغنّى بهذا الحب ، وأرسل فيه أشعاراً أرقّ من النسيم ، وأنضر من صفحة الروض الوسيم . ولقد كان حبهما عُذْرياً فِردوسياً أطهر من ماء الغمام ، وأصفى من بسمات الصباح . ثم نال السعادة فى منصِبه ، فأعلى ابن جهور مكانه ، واصطنعه لنفسه ، ونوّه بفضله ، وأشاد بذكره ، وقدمه على نظرائه ، وكثيراً ما أنفذه إلى ملوك الطوائف ليسفِر بينه و بينهم ، وكثيراً ما استكتبه الرسائل التى تُضرب ببلاغتها الأمثال .

ولما عظم إقبال الدنيا عليه كثر حاسدوه والناقمون منه ، فهو يقول لابن جهور فى قصيدة :

فديتُـكَ كم ألـقَى الفواغرَ من عِدًا ... قِراهم لنيران الفسادِ ثِقابُ
عفا عنهُمُ قدرى الرفيعُ فأهجروا ... وبانيهم خُلْقى الجميلُ فعابوا
إذا راق حسنُ الروض أو فاح طِيبُهُ ... فما ضرّه أنْ طنّ فيه ذباب

وكان أبو عامر بن عبدوس أشدّ الناس له حسدا ، ذلك لأن ابن زيدون كان يزاحمه بجانبين : جانب حبه لولادة ، وجانب قربة من ابن جهور حتى أصبح لا يكاد يُبرم أمراً دون مشورته .

كان ابن زيدون يقضى طليعة الليل فى ندوة ولادة بين طرب وإيناس، ولهو ومرح ، ولطالما هزّه الوجد وأثار الحب فى نفسه كامن الشعر فقال :

إليكِ من الأنامِ غداً ارتياحى ... وأنتِ على الزمانِ مدَى اقتراحى
وما اعترضتْ همومُ النفس إلاّ ... ومن ذِكراكِ رَيْحانى وراحى
فديتُكِ إنَ صبرى عنك صبرى ... لدَى عطشى ، على الماءِ القَراحِ
ولى أمل لو الواشون كفّوا ... لأطلعَ غرسُه ثمَرَ النجاحِ

نعم كانت الحياة فى أعينهما جنة وارفة الظلال ، وفى سمعيهما أنشودة رائعة الألحان . كانا عصفورين غِردين يتنقلان فى خفّة ومرحٍ من فَنَن إلى فنن ، ومن دَوْحة إلى دوحة ، تبتسم لهما كل روضة ، ويصفّق كل غدير ، وقد أمِنا عواصف الرياح ومكايد الفخاخ . هكذا كان يعيش ابن زيدون فى كنف ولادة ، وهكذا كانت تعيش ولادة تحت جناح ابن زيدون ، فهما فى ليلة فى قارب فى النهر يتهادَى بين الضَفتين ، يعبَث بشراعه النسيم ، وتنبعث منه ألحان القِيان ، وضحكات الندامَى فى الليل الساجى ، فتملؤه

حياة ومرحا . وهما فى ليلة فى دار القاضى ابن ذَكوان صديق ابن زيدون وحبيبه؛ بين ضحك ومِزاح . وهما فى ليلة فى مرج الخزّ، أو القصر الفارسىّ أو عين شُهْدة يناغيان البدر ويسامران النجوم .

عاش ابن زيدون بعد خِطبته لولادة سعيدا ، فنسِى أيام شدّته ، وغفر للزمان زلته ولم يفكر فى عائشة بنت غالب وكاد يغفرلها كل ذنوبها . غير أنه كان يحسُّ بأن شيئاً يلاحقه ، ويعترض طريقه ، ويكدّر عليه صفوه ، ذلك هو حسد الحاسدين ، وكيد الكائدين . ولكنه كان كلما مر به هذا الخاطر هزّ له كتفيه ، ومطّ شفتيه ، وأراد أن يعيش فى الساعة التى هو فيها .

وقد حدث أن بعثه ابن جهور فى شأن من شئون الدولة إلى المظفرّ صاحب بَطَلْيَوْس ، فأكرم استقباله ، وألحّ عليه فى أن يقيم عنده ، وأغراه بالجاه والمال إن قبِل منصب الوزارة فى دولته . وكان ابن عبدوس قد أرسل وراءه أحد جواسيسه ليسجّل عليه كل كلمة ، ويدوّن كل لفتة . وكانت مواهب أبى الوليد من أكبر مصائبه ، ومناقبُه من أسباب كوارثه ، ولقد يكون فى الذكاء وسلامة الطبع ومرح النفس وذرابة اللسان هلاك محقق، وبلاء ماحق . وفى الأذكياء العباقرة فضلة من نشاط تضطرب دائماً فى نفوسهم ، وكثيراً ما تسوقهم إلى المكروه . إن الغبىّ يفكر فى كل كلمة ، ويقدّر لرجله موضعها قبل كل خطْوة ، لأنه قليل الثقة بنفسه ، حذِر من أن يكون رميّة جهله ، أمّا الذكى المتوقد ، فتوثب جوّال ، يجرى وراء البديهة ، ويقتنص فرص الارتجال ، ويرمى بالكلمة لا يبالى أين رماها ، ويصدَع بالرأى فى

جُرأة واعتزاز . وابن زيدون شاعر أديب عالم بالأخبار ، سريع حركة الفكر ، ذرِب اللسان ، عظيم الزهو بنفسه ، لا يرى له فى الأندلس نديداً ، ثم هو إلى ذلك مرِح ضحوك مستهتَر ، سريع النكتة ، جمٌّ الفكاهة . فكان يجلس فى حضرة المظفَّر و يطلق لنفسه العنان ، ويخوض فى كل حديث من غير أن يستصحب الحذر ، و إذا جاء ذكر مملكة قرطبة، أو جاء ذكر ابن جهور ، كان يدفعه الطيش إلى أن ينبِز و يهمِز ، و إلى أن يمزح و يسخَر ، وقد تجاوز الحدّ وأبعد فى الاستهانة بالخطر ، حينما مدح صاحب بطليوس فبالغ ، وغفل عن أن ابن جهور قد يغضبه أن يمدح وزيره أميراً سواه ، دع عنك ما خلع على الرجل من الصفات التى تحصُر فيه العظمة ، وتعرَّض بغيره من الأمراء ، وكان من قصيدته :

مليكٌ إذا سابقته الملوك حوى الخَصْلَ أو ساهمته سَهَمْ
فأطولُهم بالأيادى يداً وأثبتُهم فى المعالى قدم
وأروعُ ، لا معتفى رفدِه يخيبُ ، ولا جارُه يُهتَضَم
ذلولُ الدماثة صعبُ الإباء ثقيف العزيمِ إذا ما اعتزم

ظفِر جاسوس ابن عبدوس بكل هذا ، ودوّن كلماته التى كان ينثرها جزافاً فى مجالس المظفر ، ولوّنها بما شاء له فنّه واقتضته صناعته ، وذهب به إلى صاحبه فزاد فيه ابن عبدوس ما أراد — وما آفة الأخبار إلا رُواتها — وملأ به صدر ابن جهور ، وكان رجلا أذُناً يُلقى السمع لكل واش، و ينُصت إلى كل نمّام . وعاد ابن زيدون بعد شهرين فلحظ فى ابن جهور انصرافاً عنه ،

وفتوراً عند لقائه ، ورأى أن الابتسام أصبح جهُومة ، والثقة آضت شكّاً ، والميل صار ملالا . فبعث إليه بقصيدة فيها استعطاف ، وفيها تهديد ، وفيها شمم و إباء . منها :

مالى وللدنيا ؟ غُرِرْتُ من المُنَى فيهـا ببارقة السرابِ الخادع
ما إنْ أزال أرومُ شُهْدَةَ عاسلٍ حُمِيَتْ مُجاجتها بإبرة لاسع
مَنْ مبلغٍ عنى البلاد إذا نَبَتْ أنْ لستُ للنفس الألوف بباخع
أما الهوان فصنتُ عنه صفحة أغشَى بها حدّ الزمانِ الشـارع
فليُرْغِمِ الحظَّ المولى أنه ، ولَّى فلم أُتبعـه خُطوة تابع
إن الغِنى لهو القنـاعةُ لا الذى يشتفُّ قطرةَ ماء وجه القانع

ولكن ابن جهور استمرّ فى تيهه وانحرافه عنه ، غير أن ابن زيدون كان قوىّ الصلة بابنه أبى الوليد محمد بن جهور ، وكان يظن ألا يناله من الوالد محبة الولد .

ذهب بعد عودته من بطليوس إلى دار ولادة ، فقابلته بوجه بشّ ، وأشواق كادت تملأ جوانب الدار ، ثم قالت فى غضب مصطنع :

ــ لا يا أحمد ! لقد أطلت علىّ الغيبة، وأنساك جاهك وعظيم مكانك بين أمراء الأندلس فتاتك المزهوّة بك. ثم رفعت رأسها فى اعتداد وقالت: لست أنت وحدك الشاعر الذى هزّ أعطاف قرطبة ، فإن نفسى تحدّثنى أن أنظم فى تيهك وجفوتك قصيدة تتناقلها الرواة ، وتخلد على الزمان .

ــ لا لا ياسيدتى .. شعر وجمال لا يجتمعان ! فأجابت فى دُعابة :

يجتمعان يا مولانا الوزير ، فليس الشعر إلا جمالا ، وليس الجمال إلا شعراً.
ثم جذبته من ذراعه إلى البهو ، حتى إذا جلس أخذت تقول :

— ألا من سبيل إلى إنقاذى من ابن عبدوس ؟ ! إنه يا أبا الوليد يلاحقنى كما يطارد الصائد فريسته ، إنه يفرض علىّ حبَّه فرضاً كما يفرض ابن جهور الجزية على كل ذِمِىّ ، إنه من الصِنف الذى لا يردّه الإعراض ، ولا يكفكف من غَرْبه المَلال . إنه وقح مغرور يظن أن قلوب الحسان ملك يمينه ، وأن له وحدَه أن يختار منها ما يشاء . والأدهى والأمرّ أنه يرى أنه أجمل شاب بقرطبة ، وأن الأندلس لم تحو جنباتها من يساويه فى جاهه وأدبه وثروته . كان ينكُبنى بزيارته كل يوم وأنت غائب ، ويصارحنى بحبِّه فى سماجة وإلحاح ، فلما سددت الطريق فى وجهه ، وأخبرته أننى أصبحت لك خطيبة ، بعث إلى بالأمس امرأة من صويحباته ، تُشيد بمحاسنه ، وتجتذب مودتى له ، فرددتها أقبح ردّ ، ورجعتها إليه حُنَيْنا بلا خُفَّين ! وهناك رجل آخر أشدّ منه بلاهة وأكثر جهلا ، ذلك هو أبو عبد الله بن القلّاس البطليوسى . ظن هذا المغرور أن المال الذى جمعه أيام الفتن والكوارث يُنيله كلّ شىء ، فراح يتابعنى بنظراته ، ويضايقنى بزياراته . لقد ضقت بهما ذرعا يا أبا الوليد ، والذى أرجوه أن تكتب إلى ابن عبدوس رسالة عنى تردّه إلى صوابه ، وتذوده عن بابى .

فتأوّه ابن زيدون واضطرب فى مجلسه وقال :

— إن ابن عبدوس كان فيما يزعم لى صديقاً ، ولكنى أقرأ فى عينيه الآن الحقد والبغضاء ، وأكبر ظنى أنه يدُسّ لى عند ابن جهور .

— كيف يا أبا الوليد ؟

— لا أدرى . ولكنى منذ عودتى من بطليوس لم أجد ابن جهور كعهدى به .

— هذه دسائس الأندلس ! فانظر هل عصف بمجدنا ، وقطّع مملكتنا أجزاء ، وأغرى بنا ملوك الإفرنجة إلا التحاسد والتباغض والأثرة ؟ لا تبال يا سيدى ، إنهم ذباب لا يملك إلا الطنين . ثم أسرعت إلى ورقة كانت فوق خِوان وقالت فى إصرار :

— بحقى عليك يا أبا الوليد إلاَّ ما كتبت إلى ابن عبدوس حتى تستريح دارى من شؤم طلعته !

فأخذ ابن زيدون القلم ، واختلى بنفسه ساعة ، ثم عاد يقول :

— استمعى للرسالة يا سيدتى :

« أما بعد . أيها المصاب بعقله ، المورَّط بجهله ، البيِّن سقَطه ، الفاحش غلطه ، العاثر فى ذيل اغتراره ، الأعمى فى شمس نهاره ، الساقط سقوط الذباب على الشراب . »

فصاحت ولادة قائلة : لو طلبتُ من الحطيئة أن يكتب إلى ابن عبدوس ما كتب أقذع من هذا ! ثم جذبت منه الورقة وأخذت تقرأ حتى بلغت قوله :

« فوجودك عدم ، والاغتباط بك ندم ، والخيبة منك ظفَر ، والجنة معك سقر . كيف رأيت لؤمك لكرمى كِفاء ؟ وضَعتك لشرفى وفاء ؟ وأنّى جهلت أن الأشياء إنما تنجذب إلى أشكالها ؟ والطير إنما تقع على ألّافها ؟ وهلاّ علمت أن الشرق والغرب لا يجتمعان ، وشعَرت أن المؤمن والكافر لا يتقاربان . »

وهنا قالت ولادة : لقد قتلتَ الرجل . وإن من السهام كلاماً ، ومن البيان موتاً زؤاما . ثم مالت عليه وقالت : بالله عليك إلاّ قلت فيه شعرا، حتى لا ينبض بعده له عرق ، ولا يطّرد نفَس ! فجذب ابن زيدون ورقة وأخذ يفكر ساعة ، ثم كتب :

أثرتَ هِزَبْرَ الشَّرَى إذ رَبَضْ ونبّهتـه إذ هدا فاغتمضْ
حَذارِ حذارِ فإن الكريمَ إذا سيم خَسْفاً أبى فامتعض
فإن سكونَ الشجاع النهو س ليس بمانِعِه أن يَعضّ
وإن الكواكب لا تُستزلُّ وإن المقادير لا تُعترض
أبا عامر ، أين ذاك الوفاء إذ الدهرُ وسنانُ والعيش غضّ ؟
أبِنْ لى ، ألم أضطلع ناهضاً بأعباء بِرّك فيمن نهض ؟
لعمرى لفوّقتَ سهمَ النِضالِ وأرسلتَه لو أصبتَ الغرض
وغرّك من عهدِ ولادة سرابٌ تراءى وبرقٌ ومض
هى الماء يأبَى على قابضٍ ويمنعُ زُبدتَه من مخض

وما كاد يُتمّ قراءة الأبيات حتى صفّقت بيديها طرباً وإعجاباً كما

يصفِّق الأطفال ، ثم صاحت فى لهجة الآمر :

— لا تضع القلم قبل أن تكتب أبياتاً للفَدْم الجاهل ابن القلّاس .

فأطرق ابن زيدون قليلا ثم كتب وهى تطلُّ عليه وهو يكتب :

أصِخْ لمقالتى واسمعْ وخذ فيما ترى أودع
وأقصر بعدها أوزد وطِرْ فى إثرها أوقع
ألم تعلم بأن الدهـ ـر يعطى بعد ما يمنع ؟
وأن السعى قد يُكدى وأن الظن قد يخدع ؟
وكائن رامت الأيا مُ ترويعى فلم أرتع
أعِد نظراً فإن البغـ ـىَ مما لم يزل يصرَع
ولا تك منك تلك الدا رُ بالمرأى ولا المسمع
فإن قُصارك الدِهليـ ـزُ حين سواك فى المضجع

فقهقهت ولادة وقالت :

— حتى والله ولا الدهليز ! قل له بالله عليك يا أحمد :

فإنّ قُصارَك الإصطبـ ـلُ حين سواك فى المضجع

وجمعت الرسائل ، ودعت عبدها رابحاً وأمرته أن يسرع بكل رسالة إلى صاحبها.

وبعد قليل أقبل أبو بكر بن ذكوان ، وعمّار الباجىّ ، وعبد الله بن المكرى ، فاتسع نطاق الحديث وتعددت طرائقه ، فقال ابن ذكوان :

— لقد تناثر اليوم فى قرطبة خبر يهمس به الناس فى سخط واستنكار، وهو يدور حول المأمون بن ذى النون أمير طليطلة وما تسوّل له نفسه من

الهجوم على قرطبة والاستيلاء عليها .

فقال الباجى :

— إن القرطبيين لا يُبغضون شيئاً فى الدنيا كما يبغضون البربر ، بعد أن شهدوا حكمهم ، وولعهم بالتخريب والتدمير . وهذا المأمون ليس إلا عصارة السلالة البربرية ، وهو لا يُدِلُّ علينا بشىء إلا أنه حبيب الأذفونش .

فتململ ابن زيدون وقال :

— إنه لو خدعته نفسه ، وزيّن له الغرور غزوَ قرطبة ، لرأى حولها أسواراً من سيوف وقلوب ، فخير له أن يقبَع فى داره ، وأن يتخلّى عن الهوى و يعمل على جمع الكلمة ونبذ الفرقة . إن عرب الأندلس لن يعود إليهم مجدهم حتى تعود إليهم وَحدتهم ، وتتألّف قلوبهم . . ثم زفر زفرة طويلة وقال :

لقد ضاعت الأندلس ، وتبدّد بها ملك كان بهجة الدنيا ، وزينة الدهور ، وانفصمت تلك العُروة العربية التى جمعت الآراء على رأى ، وجعلت من الزنود المفتولة زَندا ، ومن السيوف الصارمة سيفاً ، فأصبح العرب بعد انحلالهم فى هذه الجزيرة النائية بدَدًا كالشياه فتك الذئاب برُعاتها ، فهامت فى بيداء الخوف والجوع لا تسكُن إلى ظل ولا تأوى إلى سياجْ .

نزلنا هذه الجزيرة فى قلّة من العدد والسلاح ، ولكنا كنا من عزائمنا و إقدامنا و إيماننا بالحق فى جيش لجب ، وقوة تزلزل الجبال . لن أذكر

طارقاً ، فإن إقدامه ودهاءه أصبحا مضرب الأمثال،ولا تزال الإفرنجة حولنا تروى حديث وثوبه على الأندلس وقلوبُهم ترتجف فزعاً . أعرابى فى اثنى عشر ألفٍ من البربر والعرب ، أقوى سلاح لهم سيف مثلَّم ، أو رمح محطم ، يهجُمون على جيش لذريق ، وهو كأمواج البحر ، ثم لا تنثنى لهم عزيمة ، ولا تجيش لهم نفس ، حتى يُكتب لهم الظفر ، وتعود سيوفهم ضاحكة إلى أغمادها ! فأين هذه القوة؟ وأين هذه العزائم ؟ وأين ذلك الروح الإسلامى العاصف الذى لم تقف أمامه أسوار ، ولم تصعب عليه أبراج ، ولو كانت تتلفّع بأردية السحاب ؟

أين أيام عبد الرحمن الداخل ؟ ذلك الفتى الشمَّرىّ الأحوذىّ الذى قدِم الأندلس وحيداً ، فلم تمر به سنة حتى كانت جميعها فى قبضته . وأين منا عهد الناصر لدين الله ، والناس ناس ، والزمان زمان ، حين كان ملوك الإفرنجة يستجدون رضاه ويتسابقون إلى طاعته ؟ بعث إليه صاحب القسطنطينية العظمى سفراءه ومعهم أشرف الهدايا وأنبلها، فتلقتهم قرطبة فى يوم مشهود، وأقبلوا فى خضوع نحو قصر الزهراء يقدِّمون للناصر إخلاص سيدهم وصادق مودته . ثم أين منا أيام ابنه الحكَم المستنصر بالله حين اعتزم غزو بلاد الملك أردون ؟ ذُعِر الملك فسار إلى الحكم فى عشرين رجلا من أصحابه راجياً منه أماناً واعتصاماً بذمته ، فلما دخل قرطبة سأل أول ما سأل عن قبر الناصر لدين الله ، فلما أرشد إليه وقف أمامه فى صمت وخشوع خالعاً قلنسوته حانياً ظهره، وأمر الحكم بإنزاله بدار الناعورة فأقام بها يومين، ثم استدعاه إليه وكان

قد أعدّ لليوم عُدته من الزينة ومظاهر القوة ، وجاء محمد بن القاسم بأردون وأصحابه فدخلوا بين صفوف الجند، والملك ذاهل يقلّب الطرف و يجيل الفكر فى كثرتهم وكمال عُدتهم، حتى وصل هو وصحبه إلى أول باب للزهراء فترجّل وترجلوا ، فلما بلغوا البهو جاء الإذن للملك بالدخول فتقدم وأصحابه وراءه ، حتى قابل مجلس المستنصر بالله فوقف وكشف رأسه وخلع بُرنسه و بقى حاسراً إعظاماً ، فلما قابل سرير المُلْك خرّ ساجداً سويعة ثم استوى قائماً وأهوى على يد الخليفة يقبّلها ويبتهل داعياً شاكراً ، وقد علاه البُهْر من هول ما باشره ، وجلالة ما عاينه من فخامةٍ وعظمة ومُلْك وسلطان . وكان يوماً حافلا ، وكان للخطباء والشعراء فيه مقامات حسان .

هكذا كانت صولتنا، وهكذا كان سلطاننا، فأين منا ذلك المجد الضائع، وذلك السلطان الذى احتبسته أسفار التاريخ حتى لا يظهر للعِيان ؟

فأسرع ابن المكرى يقول :

— الله الله ! إن من البيان لسحرا ! وقال ابن ذكوان :

— حقاً إنك لخطيب يا أبا الوليد ! فابتسم ابن زيدون ابتسامة حزينة وقال :

— وماذا تفيد الخطب يا أبا بكر إذا لم تجد آذاناً وعقولا ؟ يجب أن نستيقظ ، ويجب ألاّ نسدّ أعيننا دون الخطر الداهم . إن مِلك الإفرنجة بعد أن وحّد ولايات أستورياس وليون وقشتالة ، اتّجه إلى تفريق كلمة العرب ، و بثّ التحاسد بين أمرائهم ، وأخذ يُغرى بعضهم ببعض،

وينصر فريقاً ويخذُل فريقاً ، لا يبغى من وراء ذلك إلاّ إضعافهم جميعاً .
فإذا لم نصدِمه الصدمة القاصمة، شالت نعامتنا، وذهبت ريحنا . لقد حادثت
ابن جهور كثيراً فى هذا الأمر ، ولـكنه كان يُطرق طويلا، ثم لا يزيد بعد
أن يرفع رأسه على أن يقول : أنت طموح يا فتى ! فصاح ابن المـكرى :
— ابن جهور أقدر الناس على حمل هذا العبء العظيم بذكائه ودهائه
وبعد رأيه، ولا يقف فى طريقه إلا أنه ليس من سلالة الملوك . والقرطبيون
خُلقوا وفى دمائهم حبُّ الملوك، فهم لا يبذلون أرواحهم رخيصة ، ولا يجبهون
الموت ، إلا إذا قادهم ملك أو خليفة . فهز ابن زيدون رأسه فى حزن وقال:
— هذا صحيح يا أبا يزيد . فأسرع الخبيث يقول :
— لم يبق بقرطبة اليوم أحد يصلح لمقاومة الإفرنجة . وكان الناس
منذ حين يلتفّون حول فتى من أبناء الناصر لدين الله يسمى ابن المرتضَى ،
ولـكنه لا يُعلم له الآن مكان ، وأظنه قَضَى نحبه . فتحرّك الباجى فى
مجلسه وهو يقول فى صوت خافت :
— أخشى يا ابن أخى ألا تكون محيطاً بالخفىِّ من الأمور ، فإن
بعض الناس يظنّ أن ابن المرتضى عاد إلى قرطبة منذ شهر ، وأنه فى مكان
لا يعرفه إلا خاصة أتباعه . فانقبض وجه ابن زيدون ، وقال فى
صوت مختلج :
— من أخبرك بهذا ؟
— لم يخبرنى أحد ، ولعله ظنّ يا أخى ، وإن بعض الظن إثم .

— هذه أباطيل يصطنعها مختلقو الأكاذيب ، ويُرجف بها المرجفون .

ثم تحفزّ القوم للقيام فودّعوا ولادة وانصرفوا .

ولما بلغ ابن زيدون داره التفت خلفه فرأى رجلا كان يتبع خطواته ، يسرع ثم يختفى وراء جدار ، فسهم وجهه وقال متأففاً :

سُحقاً لجواسيس قرطبة !

(٧)

كان من عادة ابن جهور أن يجلس كل صباح مع أبنه وخليفته أبي الوليد ليقرأ له ما يرد عليه من أخبار المدينة ، وما تطالعه به جواسيسه من شئون وحوادث ، وكان في هذا اليوم عبوساً مهموماً ، يحمل في يده ورقة صغيرة ، أطال النظر فيها ، ثم ألـقى بها إلى أبي الوليد وهو يقول :

— لقد كان ما خفتُ أن يكون ، وصدقتْ فِراستى فى الرجل وكنت أرجو الله ألاّ تصدق .

— من هو يا سيدى ؟

— الرجل العبقرى الباقعة الداهية الـكاتب الشاعر والسياسى البارع ! كانت تبهرنى فيه تلك المزايا ، وكنت أتحرّق شوقاً إلى أن أراها تتجه دائماً إلى رفع شأن المملـكة وإحياء رميم مجدها ، وكنت أرى أن مثله خليق بأن يقتعد أشرف المناصب، ويسمو إلى أرفع الرتب ، ولـكن كان يصرفني عنه كلما هممت بالانتفاع بمواهبه ما فيه من نزَق وعُجب ، وما تلتهب به نفسه من طموح طائش خفت أن يورده ويورد الدولة معه موارد الهلـكة ، فكنت أهمل أمره آسفا ، وأقنع بأن يقصر عمله على النظر فى شئون أهل الذمة كارها ، ولـكنى آخر الأمر عصيت نفسى، وكذبت صادق فراستى ، ووليته الوزارة ، وأطلقت يده

فى الدولة سيّداً مطاعاً ، فكان منه ما جعلنى أسمع كل يوم عنه خبراً ، وأتوجّس شرّا .

— يريد سيدى أبا الوليد بن زيدون ؟

— نعم هو يا ولدى .

— إن ابن زيدون يا مولاى من أخلص الناس لك ، وأصدقهم فى النصح لدولتك . وأطولهم باعا فى الذياد عنها ، وهو يطالعنا فى كل حين بقصيدة من روائعه كلها ثناء عليك ، وإعلاء لك ، وإشادة بمجدك . وهو فى مديحه غير متكلف ولا مخادع ، فإن للصدق فى شعره رنيناً يدركه كل أديب ، وفيه للإخلاص والوفاء روحاً يُطلُّ من كل بيت . إن ابن زيدون قد يكون شديد الزهو بنفسه ، وله العذر ، فمثله حقيق بأن يُزهى . وقد يكون طَموحاً وثاباً ، ولكنه طُموح المعتزّ بدولته ، الناهض بأمته .

— ما أظن يا أبا الوليد . إنه يمدحنى بشعره كثيراً كما تقول ، ولكنى أخشى أن يكون هذا المديح دريئة يخفى وراءها سيِّئ مساعيه ، وحجاباً يسدّ به عينىّ من أن تريا ما يعمل فى الظلام . ثم زفر فى ألم وحسرة وقال : أتظن أنه يمدحنى مخلصاً ، وهو يمدح صاحب بطليوس ويحصر فيه كل صفات العظمة ، ويعرّض بغيره من الأمراء ، ويقول له ؟

أشفُّ الورَى فى النُهي رتبةً   وأشهرُهم فى المعالى مَثَلْ
وأحرَى الأنام بأمر ونهيٍ   وأدرَى الملوكِ بعقدٍ وحلّ

غمامٌ يُظلّ ، وشمس تُنير — وبحر يَفيض ، وسيف يُسلّ
قسيمُ المحيّا ضحوكُ السماحِ — لطيفُ الحِوار أديبُ الجدل
سواكَ إذا قُلِّد الأمر جار — وغيرُكَ إن مُلِّك الفيء غلّ

فإذا كان المظفَّر أشفّ الناس رأيا ، وأحزامهم بالأمر والنهى ، فماذا بقِى لى ؟ ثم من سواه الذى إذا قلِّد الأمر جار ؟ ومن سواه الذى إذا مُلِّك الفيء غلّ ؟ إن كان يقصِدنى فلأمه الهَبَل !

— يا أبى إن الشاعر إذا مدح بالغ وأبعد ، والناس جميعاً يعرفون هذا ويتجاوزون عنه ، والمبالغة ميزة الشاعر وخاصته منذ أن هلهل ابن ربيعة الشعر ، ولو أوخذ الشاعر على ما يقول لم يستطع أن يقول شيئاً ، والشعر ليس فلسفة ولا منطقاً ، ولكنه أوهام تصوّرها أنغام .

— صدقت أيها الفتى، إن الشعر أوهام تصورها أنغام . وهكذا كان شعر الرجل فى مديحى . ثم ألقى إليه بالورقة التى كانت فى يده وهو يقول : اقرأ يا أبا الوليد هذه الورقة ، واكشف لى وجه الرأى فيها فقد غُمّ علىّ أمرى . فقرأ :

« من ابن عبدوس إلى الرئيس الأكبر عميد الجماعة .

أما بعد فقد أخبرنى الرجل الذى طلبتُ إليه أن يرافق ابن زيدون ويرقُبه عن كثَب : أنه منذ حضر من بطليوس ، والحيرة لا تفارقه ، فهو يتنقل من دار إلى دار ، ويزور أقواماً لم يكن يزورهم من قبل . وقد تردّد فى الأسبوع الفائت على دار راجح الصِنهاجى ، وكان يودّعه عند الباب فى كل مرة ، وسمِعته



وبينما هي في ذهولها إذ مدت نائلة يدها بالمقص فقطعت خيط المفتاح

(صفحة ١٠٩)

يقول له فى إحدى المرات : سيكون الأمر هيّنا والجو ملائماً . وزاره منذ يومين ثابت الغافقى ، وخرج من عنده عابس الوجه يبدو عليه التفكير والقلق . وكان بالأمس مع ابن ذكوان عند ولادة ، وخرجا قبيل الفجر ، وأخذا يتهامسان فى الطريق فى جدّ واهتمام . »

ما كاد أبو الوليد يتمّ قراءة الرسالة حتى صاح ابن جهور :

— أرأيت أن الرجل لا يخالط إلا المتردّدين المزعزعين الذين لا يحجُبهم عن الفتنة إلا العجز أو الخوف من أن يكونوا حطباً لنارها ؟

— إننى أخاف يا أبى أن يكون أعداء ابن زيدون قد أحكموا دهاءهم ، ولاحت لهم فرصة من حسن استماعك لهم فراحوا يصوّرون لك أوهاماً ، لو ألقيت عليها نظرة واحدة من نظراتك الثاقبة لطارت فى الهواء . ما هذا يا مولاى ؟ كل الذى سمعته وقرأته فى هذا المجلس أن ابن زيدون عبقرىّ طَموح ، وليس فى ذلك عيب ولا عار ، وأنه مدح بعض الأمراء فأغرق ، وهو إذا مدحهم فبلسانك نطق ، وإلى إعلاء دولتك قصد ، لأنه سفيرك ووزيرك، وقد يرى من حسن الرأى ، وخُدَع السياسة أن يمدح من يكون لك عدوّا ، ويُحسن إلى من يكون لك مسيئاً . على أن عبيد الله بن قيس الرُقَيّات وهو زبيرى المذهب خارج على بنى أمية ، كان يمدح مُصْعَب بن الزبير وعبد الملك بن مروان فى آن . وكان الكميت بن على من مدّاحى الأمويين ، ومن أشدّ الشعراء بغضاً لهم . أمّا كل ما فى هذه الورقة فهراء لا يقام له وزن ، ولا يحسب له حساب ، فليس فيها إلا أن ابن زيدون

قابل فلاناً وفلاناً وفلاناً ، وماذا فى هذا يا أبى ؟ إنك أنت تقابلهم وتخالطهم وتزورهم فى دورهم . ثم إن هذا كان عابساً ، وهذا كان مفكراً ، وهذا كان هامساً ، هذا كلام لا ينهض بجناحين ، ولا يسير على قدمين ، فلو أن العبوس أو التفكير أو الهمس كان يدل على العمل لإسقاط الدول ما بقيت دولة فى بقاع الأرض يوماً واحداً . مزّق يا مولاى هذه الورقة ، وامح ما كان فيها من لوح فكرك ، واترك عنك هذا الهاجس الذى ليس من ورائه إلا أن قوماً يتخذون منك سيفاً للقضاء على عدوّهم ، وأزجر هؤلاء الوشاة الدسّاسين ، فإنك لن تجد مثل أبى الوليد فى كرم نصابه ، و بعد همته ، وجلالة قدره .

— أرجو أن تكون موفق الرأى صادق الفراسة يا ولدى ! فإن أودّ ما أودّه أن يبقى ابن زيدون لهذه الدولة عضداً وزنداً .

— لا تأبه لحديث ابن عبدوس يا مولاى فإنه غريم ابن زيدون فى الحب والسياسة .

— فى الحب ؟

— نعم فى حب ولادة . فابتسم ابن جهور وقال :

— هكذا رأينا الحب ينبت البغضاء ! ثم نظر إلى ابنه نظرة طويلة وقال : اكتم هذا المجلس أبا الوليد ولا تحدّث به نفسك فى خلوتك ، وأرجو الله أن يبعد عنا المكروه ، و يوفقنا لما نحب و يحب .

وفى ضحا هذا اليوم ذهبت ولادة لزيارة نائلة فوجدتها لا تزال فى

سريرها تصلح لها جواريها ما أفسد الليل من زينة المساء ، فقابلتها نائلة في شوق وشغف ، وأمرت أن يقرّب لها كرسيّ إلى جانبها ، وقالت :

— كيف حال أبي الوليد ؟ إن هذا الولد العاق لم يزرني منذ حين .

— إن ابن زيدون في هذه الأيام ليس كعهد الناس به ، فهو كثير الوجوم ، بادي الهموم . وقد فارقه ذلك المرح الذي كان ينشر الأنس في كل مكان ، و يغتصب الضحك من فم الحزين .

— تزيد هموم الناس يا بُنَيّة إذا ارتفعت منازلهم وعظمت مناصبهم ، وقد كنتِ تبغين أن يكون خطيبك وزيراً ، فلما أصبح وزيراً برِمت برزانته ، وضقت ذرعاً لصرامته وجِدّه .

— لا يا خالة . ليست المسألة مسألة رزانة أو صرامة ، ولكنى أشكّ في أن أمراً عظيماً يشغل باله و يملك عليه نواحي نفسه . فقهقهت نائلة وقالت :

— ليس الأمر كما تتوهمين يا ولادة . و إذا كان هناك ما يشغل باله فهو أنه أسير حبك ، ينتظر اليوم الذي يصبح فيه بعلا لأجمل فتاة . فابتسمت ولادة ابتسامة زهو و إعجاب وقالت :

— أخشى يا نائلة أن أعداءه يكيدون له ، وأخشى أن يجدوا من ابن جهور أذنا صاغية .

— ما أظن يا حبيبتي أن يجرؤ أعداؤه على منابذته ، فإن أيديهم أقصر من أن تنال له ذيلا . على أن ابن جهور على تزمّته وجفوته ، من أطوع الناس لي عناناً ، وهو في يدي كالعجينة في يد الخبّاز ، وكلمة مني

واحدة كفيلة بأن تطرد ما ألقى التمّامون فى أذنه من كلمات .

زارتنى عائشة بنت غالب من أيام ، وأظهرت لى تمام الود وصادق المحبة ، واتخذت من سرقتى لرسائل ابن زيدون من خزانتها مجالا للفكاهة والضحك والتندّر ، وأقسمت أغلظ الأيمان أنها كانت تريد أن تردّ إليه هذه الرسائل ، وأن كل وعيدها وتهديدها كان كاذباً مصطنعا لم تقصد به إلاّ أن يعود إلى ظلال حبها ، وأن يعيشا كما كانا سعيدين هانئين . ثم تفرّست فى وجهى طويلا ، وتابعت حديثها تقول : ولكنه حين أَبى ، وحين يئست من عودته ، طويت نفسى على آلامها ، وتمنيت له خير ما يتمنى محبّ لحبيب . ولقد سرّنى والله قبل كل امرأة بقرطبة أن ينال تلك الُحظوة التى نالها عند ابن جهور ، وأن يرقى إلى منصب الوزارة . نبّئيه يا خالتى أنى أحفظ الناس لوده ، وأبقاهم على عهده ، وأزهاهم برفعته وعلو شأنه . لقد رأيته مرة « برحبة مغيث » فوق بغلته الشهباء ، والأعوان من حوله ، ورجال الديوان من ورائه ، فسألت الله أن يصونه ويُعمى عنه أعين الحاسدين ، وتمثلت بقوله فى صاحب بطليوس :

ألا هل سبيلٌ إلى العيبِ فيه فكم عِينَ مِن قبله من كَمَل ؟

فأسرعت ولادة تقول :

— وهل صدّقت شيئاً من هذا يا نائلة ؟ فغمزت العجوز بإحدى عينيها وقالت :

— صدّقت أو لم أصدق . إنها هدنة على أيّة حال .

— ولا هدنة !

— وأىّ ضرر فى أن نتغابى ونأخذ الحذر ؟

— من أخبر هذه الحيّة الرقطاء أن أبا الوليد قال قصيدة فى مدح صاحب بطليوس ؟ ومن الذى نقل إليها هذه القصيدة ؟

— الجواسيس ! الجواسيس ! إنهم أكثر من ذباب قرطبة . ثم اتجهت إلى ولادة كأنها تذكرت شيئاً وقالت فيما يشبه العتاب :

— ماذا فعلتم بابن عبدوس يا ابنة المستكفى ؟ فظهر الضجر على وجه ولادة وقالت :

— اسمعى يا نائلة ما رواه القصّاصون ، فقد قالوا : إن الجبال يوم خلقت اشتكت من ثقلها وصلادة صخورها ، ولكنها هدأت حينما علمت أن الله خلق من هو أثقل منها . وقالوا : إن الأفاعى باهت يوماً بسمومها فقيل لها : أطرقى ! فإن الله خلق من هو أوحى منك سمّا . أتعرفين يا خالتى من ذلك الذى هو أثقل من الجبال وأفتك سمّا من الأفاعى ؟ هو ابن عبدوس . لقد كدت أفارق قرطبة لأجله ، جاء بثقله ودمامته وخبثه يرمى نفسه علىّ رمياً ، ويلزمنى حبه إلزاماً ، فلم أجد محيصاً إلا أن أرسل إليه رسالة باسمى بل صفعات متتابعة يَدْمَى لها قذاله العريض . وأرسل إليه أبو الوليد أبياتاً ستُقضّ مضجعه ، وتؤرق وساده .

— جاءنى بالأمس يشتكى من الرسالة والأبيات ، ويرجونى أن أصلح ما فسد بينه وبين ابن زيدون ، لأنه يغالى بصداقته ، ويحرص على

مودّته ، ثم ألحّ فى أن أكون وسيلته إليكِ على أن يقنَع منك بالحديث والمجاملة ، وأن يرضى منك بقبوله فى ندوتك صديقاً مخلصاً .

— خير لى وله أن يبتعد عن ندوتى يا نائلة .

— ألا ترين فى الأمر شيئاً يدعو إلى التوجس والقلق ؟ فإنه ليس من محض المصادفة فى رأيى أن تأتى عائشة ثم يليها ابن عبدوس فيعلنا فى أسلوب يكاد يكون واحداً حبّهما لابن زيدون ، ووفاءهما له . إنى أكاد أرى وراء الأكمة شيئاً . وعلى أبى الوليد أن يحذر وعلى كل أصدقائه أن يحذروا ويتربصوا . فظهر الذعر علي وجه ولادة وقالت :

— وماذا نصنع يا خالتى ؟

— نحذر ونتربص !

وكأن الخوف أعجل قيامها فقالت وهى تتحفز له :

إننى أحذّره دائماً ، ولكنه لا يأبه ولا يبالى ، وهو لك أطوع ، ولكلمتك أسمع ، فهوّ لى له الأمر يا حبيبتى ، لعله يرعوى . ثم أسرعت إلى الباب مرتجفة الأوصال .

وفى مساء هذا اليوم كان يجتمع فى دار عائشة مربّع له أربعة رءوس ، لو أراد إبليس وكان أبرع خلق الله فى علم الهندسة أن يؤلّف مثله مربعاً للؤم والدهاء والمكيدة والخسّة ما استطاع . اجتمع أبو عامر بن عبدوس ، وابن القلاس ، وابن المكرى وعائشة وأغلقوا الباب دونهم ، واتجهت عائشة نحو ابن المكرى تقول :

— عجيب أن نراك بيننا اليوم يا أبا يزيد ، وأنت تعرف ، والناس يعرفون أنك أقرب الناس إلى ابن زيدون ؛ وأحرصهم على صداقته ، فإذا حدّثتك نفسك يا سيدى بأن تلعب على حبلين ، وأن تشهد طعام معاوية وتصلىّ خلف علىّ ، فإنا لسنا من الغفلة بحيث تخفى علينا هذه الأخاديع ، أو تلتبس علينا وجوه الحق من ورائها . فأسرع ابن عبدوس يقول :

— على رِسْلك ياعائشة ! فإن ابن المكرى من أشدّ أعداء ابن زيدون وأحقدهم عليه ، وأبعدهم له كيداً ، ولكنه بارع فى الرياء ، عبقرىّ فى ألاّ يظهر فوق وجهه شعاع من قلبه ، يعانق عدوّه ويقبله فى الصباح ، ليطمن أحشاءه آمناً مطمئناً فى المساء . أنت لا تعرفينه يا عائشة . إنه داهية الدواهى ، و باقعة البواقع .

فابتسمت عائشة فيما يشبه السخرية وقالت :

— ومن يُدرينى — بعد أن وصفت الرجل بما وصفت — أنه اليوم صادق أمين ؟ ألا يجوز أنه الآن يلبس غير ثوبه ، ويقتعد غير سرجه ، ويدلّس علينا كما يدلّس على كل مخلوق ؟ فانبرى ابن المكرى يقول :

— اسمعى يا عائشة ، إن العداوة والبغضاء يجريان وراء المنفعة ، فأعدى أعدائك من يزاحمك فى رزق أو جاه أو منصب . تلك غريزة يا سيدتى ، ترينها فى الإنسان كما ترينها فى الحيوان . أسقطى حَفْنة من الحب بين أفراخ الدجاج ، ثم انظرى ماذا تعمل ، يثب هذا على ذاك ، وينقُر هذا ذاك ، ويضرب هذا بجناحه ذاك . وابن زيدون يزاحمنى الآن فى كل شىء :

يزاحمني فى الأدب والجاه والرزق ، حتى أصبحت فى الديوان حشرة ملقاة على كرسيّ لا رأي لها ولا عمل. أصبحت مغموراً فى الظلام لا يرانى الناس، بعد أن بهر أبصارهم ضياؤه المتوهج ، وأصبح شعرى هُذاء محموم ، وأدبى لا جسم له ولا روح ، ومنصِبى لا يحتفظ إلا باسم أجوف يتندّر به المتندّرون، ويسخر منه الساخرون . فكنت يا عائشة بين أمرين : إمَّا أن أناصبه العداء ، وأجاهره بالبغضاء ، كما فعل صاحبي ابن عبدوس ، وإما أن أطوى نفسى على الغل والكمد ، وأعمل فى الظلام لدكّ ذلك الجبل الشامخ ، واصطياد ذلك الأسد الزائر ؛ فرأيت أن الأولى ستدفعه إلى الحذر ، واتخاذ الحيطة، ثم إلى محاربتى بسيف أصلب من سيفى، وقوّة تنهار أمامها قوتى . ورأيت أن الثانية أقرب من السلامة ، وأدنى إلى الحزم ، وأكفل ببلوغ الغاية ، فزدت له من بسط وجهى ، ولطف حديثى ، وما أجيد اصطناعه من الملق والدهان والخديعة ، حتى سكن إلىّ واطمأنت نفسه لمودّتي ، فأصبحت له الخل الوفىّ ، والصديق الأمين . ولو فعلت معه كما فعل ابن عبدوس لم أزد على أنى نفرت الصيد من الصائد، وأبعدته عن الشرك، ونطحت برأسى صخرة لأوهنها كما يفعل الوعِل الأحمق .

فقال ابن عبدوس :

— مرحَى يا أبا بدير ! إن للناس وجهاً واحداً ولك ألف وجه ليسَ فيها وجه صحيح ! فضحك ابن القلاس وقال :

— أخشى كما تخشى عائشة أن يكون اليوم قد لبِس أحد هذه الوجوه. فقالت عائشة :

— لا يا عبد الله . إننى فهمت الرجل وأدركت فلسفته . ثم اتجهت نحو ابن عبدوس وقالت :

— أخبرنى بلال — وهو من أخص عبيدى بعد أن أطلقته خلف ابن زيدون يقتصّ آثاره ، ويتلقف أخباره — أنه لا يكثر من زيارة ولادة فى هذه الأيام ، وأنه يقضى أكثر الليالى بداره منفرداً . فقال ابن عبدوس :

— ألا يجوز أن يكون الرجل يُخفى بداره شخصاً ؟ وأنه يكتم خبره عن أخصّ أصدقائه . فصاح ابن المكرى

— يجوز جداً . ولقد علمت علماً ليس بالظن أن ابن المرتضى نزل قرطبة خِفْية ، وأن ابن زيدون يتصل به ، فإذا استطعنا أن نقنع ابن جهور بهذه الصلة فقد قُضِى الأمر ، وقضَى على الرجل . فقال ابن عبدوس :

— إن الجو جدُّ ملائم ، فإن ابن جهور تساوره الوساوس من قِبَل ابن زيدون ، ولكنها كالبعوض يطِنّ فى أذنه ثم يطير فلا يستطيع له قبضاً . فصاحت عائشة :

— كيف نقنع ابن جهور بهذا الأمر الخطير ، وهو رجل صارم فى الحق ، لا يأخذ بالشبهة، ولا يحكم إلاّ عن بينة ؟ فقال ابن القلاس :

— هذا هو الذى جئنا لنتشاور فيه .

فالتفتت عائشة إلى ابن المكرى وقالت :

— أواثق أنت تمام الوثوق من أن ابن المرتضى يقيم الآن بقرطبة ، وأن ابن زيدون يتصل به ؟

— نعم .

— من نبأك هذا ؟

— نبأنيه صديق ما كذبني قط ، وقد كان ينادم ابن زيدون على شراب فتعثر لسانه وهو فى نشوته بكلمات فهم منها صاحبي أنه يلتقى بابن المرتضى فى كل ليلة .

فأطرقت عائشة ثم قالت وهى تمدّ ذراعيها كأنها ترحب بمقدم مكيدة جديدة :

— لقد وجدت الرأى ! لقد وقفت على مفتاح اللغز ! الآن أستطيع أن أرى ، وأستطيع أن أدبّر . ثم اتجهت إلى ابن المكرى سائلة :

— أتستطيع أن تدعو ابن زيدون إلى دارك غداً ؟

— هذا سهل يسير ، وهو الآن يكثر من زيارتى لتوثق الصداقة بيننا.

— حسن . ادعُه غداً للعشاء ، وادع معه من يحبّ من خُلاّنه .

— ثم ؟

— ثم تذهب الآن إلى ابن جهور ، وتطلب إليه أن يزورك غداً فى دارك مستخفياً ، ليتحقق من خروج ابن زيدون عليه ونكثه لعهده .

— ثم ؟ فابتسمت عائشة وقالت :

— ثم تتحادثون بعد العشاء ، فتسمعون جلبة وضجيجاً بين عبيدك وغلمانك ، فتسألون عن جليَّة الخبر ، فيخبركم أحدهم بأن ابن جهور قبض على ولادة لأنها كانت تخفى فى قصرها ابن المرتضى الأموى .

— ثمّ ؟

— ثم إنى أعرَفُ الناس بأخلاق ابن زيدون ، فإن الحزن والغضب سيد فعانه إلى أن يكشف عن ذات نفسه ، وإلى أن يقذف بألفاظ يحبسها فى صدره الخوف والحذر ، فإذا سمعها ابن جهور لم يتردّد فى التنكيل به وإراحتنا منه ومن كبره وغروره .

فقال ابن عبدوس :

— أخشى ألا يكون حسابك مستقيما .

— إنى إذا فكرت بإمعان وهدوء استطعت أن أقرأ المستقبل كأنه صفحة من الماضى . ليس عندى شك فى أن ابن زيدون سيقع فى الفخ .

فقال ابن المكرى :

— حسن . سأذهب الآن إلى ابن جهور . فصاح ابن عبدوس :

— إذهب إليه بالوجه الذى لا يرى فيه أثراً للشك ولا لمحة من الريبة . وإذا وفّقت فسوف تراه غداً فى دارك .

وأسرع ابن المكرى نحو دار الجماعة ، وقابل ابن جهور ، ولبث فى حضرته طويلا ، فلما انتهى الحديث ، واتجه نحو الباب صاح ابن جهور :

— إنى لست ألعوبة يا فتى ! فإذا كنت فى شك من أمرك فارجع

عما قلته قبل أن تجاوز الباب .

— أنا واثق يا سيدى .

— عظيم . إن سيفى غداً سيطيح أحد رأسين ، فاحذر أن يكون رأسك هذا الأحد . إذهب .

وجاء الغد ، وانطوى نهاره فغشى قرطبة وأهلها ليل حالك الإهاب كأنه حظّ الأديب ، أو صحيفة الزنديق ، ليل رآه قوم موطن الصبابة واللهو والطرب والمجون ، ورآه آخرون باعث الأحزان ومثير الأشجان والهموم . شمل الليل قرطبة ، وأخذ الناس يضطربون فيما يضطربون فيه كل ليلة ، واجتمع ابن زيدون و بعض صحبه بدار ابن المكرى ، وقصد إليها ابن جهور ووزراؤه وصاحب شرطته وأعوانه مستخفين متنكرين ، فجلسوا فى حجرة إلى جانب حجرة الضيوف . ومدّت الموائد فنال منها القوم ما اشتهوا ، ثم أخذوا فى الحديث ، وكان ابن زيدون فى هذه الليلة كثير التفكير كثير الذهول والقلق ، يغتصب منه أصحابه الكلمة اغتصابا ، و يغرونه بالنوادر والأفاكيه فلا يظفرون منه إلا بابتسامة فاترة واهنة ، و بينما القوم يسمرون إذا ضجيج بين الخدم ولغط وجلبة ، فنادى ابن المكرى كبير العبيد وسأله فى استنكار وتأنيب :

— ما هذا يا رباح ؟ فظهر التردد على وجه العبد وقال :

— لقد أخبرنا الآن أحد أعوان صاحب الشرطة بأن مولانا عميد الجماعة قبض على سيدتى ولادة ، ووكل بها طائفة من الجند يعذّبونها أشدّ

أنواع العذاب .

فارتعد ابن المكرى وقال بصوت كاد يخنقه الغضب :

— يعذّبونها ؟ لِمَ يعذّبونها ؟

— لأنهم وجدوا مولاى ابن المرتضى بقصرها . فوقف ابن زيدون مذعوراً والغضب ينفخ أوداجه وصاح :

— هذا كذب صُراح ! إن ابن المرتضى لا يختفى بقصر ولادة ، أنا أعرف مكان اختفائه . إن ولادة بريئة من كل ما يتصل بابن المرتضى . إنها وشاية نمّامين . إن ابن المرتضى فى دارى ، وسأذهب فأخبر ابن جهور بهذا حتى يكفّ زبانية عذابه عن أشرف امرأة ، وأطهر امرأة بقرطبة .

وهنا فُتح باب الحجرة ! ووقف ابن جهور فى وسْطها كأنما نبع من أرضها ، وصاح بصوت يشبه هزيم الرعد :

— ولِمَ تُخف ابن المرتضى فى دارك يامنبع الدسائس ؟ لِمْ تُخفه إلاّ لتُشعل به فتنة تبدد الجماعة وتفرق الكلمة . لقد كنت أرى آخرتك منذ عرفتك ، وكنت أتجاوز وأغضى حتى أصل إلى وجه الحق . والآن صرّح الزبد عن اللبن ، وترك الخداع من كشف القناع ، وتبلّج الصبح لذى عينين !

ثم أشار فى غضب إلى عبيد الله بن يزيد صاحب شرطته وهو يقول :

— إبعث أعوانك إلى دار هذا المارق ليبحثوا عن الرجل الذى يخفيه .

وغاب الجند ساعة ثم عادوا يقولون : إنهم لم يجدوا لابن المرتضى ظلاً .
تنفس ابن زيدون الصُعَداء وطفق يردد : الحمد لله ! الحمد لله !

وزاد غضب ابن جهور وقال :

— فرّ الطائر من القفص ، واختفى ثانية ليعيد الفتنة مرّة أخرى .
ثم وجّه الكلام إلى صاحب الشرطة وقال :

خذ هذا الوغد إلى السجن حتى ننظر فى أمره ونرى حكم الله فيـه .
صدق الله العظيم :

إنمـا جزاء الذين يحاربون الله ورسوله ويسعون فى الأرض فساداً أن يُقَتّلوا أو يُصلّبوا أو تُقطَّع أيديهم وأرجلهم من خِلاف ، أو يُنفَوْا من الأرض .

(٨)

انتشر فى الصباح خبر القبض على ابن زيدون وزَجّه بالسجن ، فابتهج قوم وابتأس آخرون ، وطفِق كلّ رجل يتحدّث فى هذا الحادث مدفوعاً بعاطفته وما يمليه عليه وجدانه ، كدأب الناس فى الحديث عن الشئون العامة . واجتمع بخان أبى اسحاق اليهودى ، وهو خان فخم بسوق اليمانية ، جمع من شبان قرطبة الذين يجدون من فراغهم وجدتهم ما يسوّغ لهم الحديث فى كل أمر من أمور الدولة . قال أحدهم وكان يدعى عمر البلنسى:

— بلغنى فى هذا الصباح ممن أثق به ولا تخالجنى فى أخباره خطرة شك ، أن ابن زيدون كان متفقاً مع ابن جهور على القبض عليه ، وأن فى الأمر مكيدة مدبّرة يراد بها الاستيلاء على إشبيلية ، والقضاء على ملك ابن عبّاد .

فدهِش القوم وقالوا فى صوت واحد : هذا غير معقول . وأين الصلة بين سجن ابن زيدون والاستيلاء على إشبيلية ؟ وأسرع عمر يقول :

— أنتم لا تدركون خفايا السياسة ، فإن لها سراديب ملتوية تمرّون بها أعواماً ثم تعودون إلى المكان الذى بدأتم منه . فقال أحدهم فى سخرية :

— وهذا يا ابن عبد الله أظلم السراديب وأشدها إبهاماً !

طائشة لن يكون لها إلا حطبا . لقد كان يقدُر نبوغ ابن زيدون ويُغلي مواهبه ، وكان يردّ كل ما يرد إليه من وشايات به إلى حسد أنداده له وغيظهم من عجزهم عن الوصول إلى مرتبته ، ولكنه علم الآن والأسف يملأ جوانحه أنهم كانوا فيما يرمونه به غير مبطلين . والتفت إلى ابن عباس وقال :

— ماذا ترى أن نفعل بهذا الرجل ؟

— أرى أن نبقيه فى السجن حينا حتى تتحطم شوكته ، وتنطفىء حدته ، ثم ننفيه إلى الشمال . وقال الوزير عبد العزيز بن حسن :

— الرأى يا سيدى أن نقتله ونستريح منه ، وبذلك يُحسم الداء ، وتُستأصل شأفة الفتنة . أما بقاؤه فى السجن فمدعاة إلى الخوف الدائم ، وإغراء لمن لفّ لفّه وسلك مذهبه . وقد يتحيّن نصراؤه فرصة لفراره فيقتنصونها . وأسرع ابن عبدوس فقال :

— هذا هو الرأى الحاسم الحازم ، فإن السجن سيزيد ابن زيدون عنفا وسخطا وإصراراً وحبا للانتقام ، وهو لن يعدَم وسيلة للفرار ، وإذا فرّ فذلك هو الشر المستطير . فانتقل أبو الوليد ابن عميد الجماعة إلى جانب ابن برد وهمس فى أذنه كلمات . فوقف ابن برد عابسا وهو يقول :

— مهلا أبا عامر . إن ابن زيدون ليس من الهوان على الدولة بحيث تستطيع أن تمحو اسمه من سجل الحياة بكلمة هادئة راضية ، والدولة التى تقتل أبناءها لزلّة طائشة هى الهرة المضطربة الغريزة التى تأكل صغارها ، وهى فى جنونها الوحشى لا تدرى ما تفعل . إن ابن زيدن قليل الأنداد

والنظراء ، وهو عمود هذه الدولة ، وخير لنا إذا مال العمود أن نقوّمه حتى يثبت ما عليه من بناء ، ولعله دُفع إلى ما قاله بالأمس دفعاً ولم يكن فيما قال صادقاً .

ودخل الحاجب فى هذه اللحظة يقول :

— إن امرأتين محتجبتين بالباب تلحّان فى لقاء سيدى . فالتفت ابن جهور إلى وزرائه كالمتعجب وهو يقول :

— من هاتان المرأتان ؟ فقال الحاجب :

— إنهما تقولان يا مولانا ، إنهما جاءتا للنصح للدولة ودرء الخطر عنها .

— أىّ خطر ويحك تدرؤه النساء ؟ لتدخلا .

وفتح الباب فحسر المرأتان عن وجهيهما القناع ، فإذا نائلة الدمشقية ، وولادة بنت المستكفى . فلما رآهما عميد الجماعة ظهر على وجهه الدهش وقال فى عبوس :

— شرٌّ ما أجاء بكما إلينا . فقالت نائلة :

— شرّ وأىّ شرّ ! إنك يا مولانا جمعت أشتات الفرقة بقرطبة ، واستأصلت الفتنة ، وكنت فى كل ما تأتى وتذر حكيما حازماً فدعيت بحق أبا الحزم . ثم إنك لم تقبض على زمام الحكم راغباً فى جاه أو مال أو علوّ منزلة ، فإن لك من كريم محتدك ، وجلال أبوّتك ما يغنى عن الجاه والمناصب ، ولكنك رأيت ملكا يترنّح ، وعزًّا يريد أن ينقضّ ، فوثبت

لإغاثته كريماً مخلصاً صبوراً على اللأواء ، واخترت من الرجال من تهتز بهم الدولة ، وتفخر بهم الأمة ، ولم تستخلصهم لنفسك إلا بعد طول التجربة ودقة الاختبار ، ولكنك يا سيدى تركت هؤلاء الوزراء المخلصين لك ، الدائبين على خدمتك عرضة للوشاة وغرضاً للحساد ، وزدت فساعدتهم عليهم بأذنك ، ومكّنتهم منهم بتصديق ما يأفكون . إن ابن زيدون يا سيدى الذى قبضت عليه بالأمس وألقيته فى غيابة السجن جمال دولتك ، وسياج حَوْزتك ، وسيفك الذى تدفع به الأعداء ، ورأيك الذى تقارع به الآراء ، ولو أنه كان وزيراً بالمشرق لضربت به الأمثال ، ولشدّت إليه الرحال ، ولكن الأندلس تدفن كنوزها ، وتحطم بأيديها سيوفها . ثم من هذا النذل القَسْل الدنىء الذى دفعك إلى ما عملت ؟ ألم تملأ قصائده فيك أرجاء الأندلس ؟ ألم يرحل فى سفارتك إلى الأمراء فيرفع من قدر ملكك ، ويُشيد بسداد رأيك ، ويملأ قلوب الأمراء رعباً من قوتك ، ألم يبذل لك النصح أميناً ، والولاء مخلصاً ؟ عار وأىّ عار أن يشيع بين الولايات أن أبا الحزم ابن جهور آخذ أعظم وزرائه وخير رجاله بسعاية كذاب أثيم ! عار وأىّ عار أن يكون حديث البيوت والمجالس والسوامر أن أبا الحزم بن جهور يؤذى أوفى الناس له ، ويقطع اليد التى لم تخلق إلا للذِياد عن ملكه ! ثم سكتت قليلا بعد أن نال منها الجهد وانبرت ولادة تقول :

— إن ابن زيدون يا سيدى خطيبى وشقيق نفسى ، فإذا بدرت منه

هفوة كما يزعم الزاعمون فخذنى به لأننا روح فى بدنين ، وما يصدر عنه فعنى صدر ، وما يتحرك لسانه به جهراً ، فإنما هو حديث نفسى سرًا . إننى يا مولاى بعد تقلّص ظلّ الخلافة عن أهلى وقومى ، لم أحزن ولم أبتئس ، لأنى رأيت فيك خير من يقوم بأعبائها ، ويرفع من ألويتها . وعلم الله لو رأيت فيك نقصاً ، أو علمت ضعفاً ، لحملت راية الأموية ، ولدعوت الناس لمبايعة ابن المرتضى ، ولأعدت الفتنة جَذَعة ماحقة تأكل الرطب واليابس ، ولكنك يا مولاى جئت فقوّمت المعوج ، وأقمت المائل ، ووطدت أركان الدولة ، ورفعت ذكر قرطبة فى الخافقين ، ونشرت العدل بين الرعية ، فجزاك الله خير ما يجزى به عباده العاملين . ولن أكتمك يا مولاى أنى لم أُعجَب بابن زيدون ، ولم أمنحه حبّى وصداقتى ، إلاّ لأنه من المخلصين فى محبتك ، المُشيدين بفضلك ، المدّاحين لمناقبك . وأقسم إنى لو علمت فيه شرًّا لكنت أول من يكشف لك أمره ، ويفضح لديك سرّه . إنها سعاية يا مولاى ، سعاية خبيثة من بعض المنافسين له والحاقدين عليه .

فتململ ابن جهور وقال : أيّة سعاية يا فتاة ؟ إننى سمعته بأذنى ! ووقفت نائلة تقول :

— أين سمعته يا مولاى ؟

— بدار ابن المكرى .

— ومن الذى حملك على الذهاب إليها ؟

— هذا سرّ الدولة يا نائلة . فغمغمت تقول بما لا يُسمع : إنها عائشة بنت غالب . ويل للخائنة ! لقد سبقتني هذه المرّة ، وستكون الحرب بيني وبينها مشتعلة الأوار . ثم اتجهت إليه تقول :

قد يكون مما دفعه إلى القول بأن ابن المرتضى فى داره شدّة حبّه لولادة حينما أدخل عليه أعداؤه أنك قبضت عليها ووكلت إلى عبيدك تعذيبها . فصاحت ولادة والدموع تتناثر من عينيها :

— أحضره ياسيدى واسأله عما قصد إليه من هذا الاعتراف الكاذب، فلعلّ له حجة يُدلي بها ، وقد يكون مخطئاً ولو أرشد إلى الحق لعاد إليه أقوى تمسكا به ، وأشدّ صلابة فى النفح دونه . إن الدولة يا سيدى أحوج إلى أمثال ابن زيدون من الجيش والسلاح ، وليس من الهيّن على كل قرطبي أن يراه مُلقى فى السجن دون أن يُسأل عما فعل . إنه ملك الأمة ، فمن حق أبناء الأمة أن يسألوا عما يُبيّت لبطلهم من المكايد . فصرخ ابن جهور قائلا :

— هذا تهديد يا فتاة ! فقالت نائلة :

— إنه ليس بتهديد ولكنه الحق الصُراح الذى لامواربة فيه . وهب ابن زيدون مخطئاً ، أليس فى ساحة عفوك ما يتسع للصفح عنه ؟ وقديماً قال المتنبي :

ترفّق أيها المولَى عليهم   فإنّ الرفقَ بالجانى عتابُ

ويقول :

وما قتل الأحرارَ كالعفو عنهم ومَنْ لك بالحرِّ الذى يحفظ اليدا ؟

ويقول الله عزّ شأنه لمن هو خير منك فيمن هم شرّ منه : (خُذِ العَفْوَ وأمُرْ بالعُرْفِ وأعْرِض عن الجاهِلين .)

وماذا صنع ابن زيدون ؟ ادّعى على نفسه كذبا أن ابن المرتضى فى داره ، ليصرف عن ولادة فيما خيلوه له سوء عذابك وتنكيلك ، ثم ثبت أن الرجل لم يكن بداره ، وأنه لم يظهر له أثر بقرطبة كلها . أيكون جزاؤه بعد ذلك أن يسجن وأن يُطوّق بالأغلال كما يفعل بالأشرار والمجرمين ؟ ادعه يا مولاى إليك ، وخذه بالمعروف والموعظة الحسنة ، فإنك واجد فيه بعد محنته ذهباً نضاراً أخلصته النار ، وسيفا بتّاراً صقله الكفاح .

— لا يا نائلة إنه مِسْعَر فتنة ، ونذير شرّ ، ولن تهدأ قرطبة وهو طليق ينفث سمومه . لقد كان يمرّ بخاطرى أن أقتله ، ولكنى سأكتفى الآن بسجنه . فتقدمت ولادة إليه متوسلة تقول :

— انفه يا سيدى إلى أيّة مملكة من ممالك الأندلس وانفنى معه إن كنت لا تزال ملحاً فى إقصائه .

— لا يا سيدتى ، إنى لا آمن غوائله إلا إذا كان فى قبضة يدى ، وتحت سمعى وبصرى ، ويحسن ألا نطيل الحديث فى هذا الشأن فقد جُلْتما فيه بأكثر مما أحب . ثم قام من مجلسه فانصرفتا حزينتين باكيتين .

دخل ابن زيدون السجن بائساً كاسف البال بعد أن طارت آماله ،

وتقطعت حباله ، وبعد أن زلّت به القدم ، وأخطأ سهمه الهدف . كان يبنى له الخيال عزّا كبيراً ، ويصور له الطموح جاهاً عريضا ، ألم يكن من قبيلة بنى مخزوم ذات الشرف الباذخ ، والمجد الراسخ ، التى دخلت الأندلس مع الفاتحين فملكت البلاد ، ووطّدت دعائم الإسلام ؟ ألم تكن لأبيه غالب الرياسة والمنزلة الرفيعة فى القضاء والعلم والأدب ؟ ثم يزفر طويلا وهو يقول : والآن ماذا أصنع ؟ أو ماذا سيُصنع بى ؟ إن ابن جهور إذا غضب كانت نار الجحيم برداً وسلاماً ، وإذا صمّم نكّب عن ذكر العواقب جانباً ، وبعد حين يرى نفسه وقد قبض على قلم أمامه فكتب :

قل للوزير وقد قطعتُ بمدحِه زمناً فكان السجنُ منه ثوابى

لا تخشَ فى حقّى بما أمضيتَه من ذاك فىّ ، ولا توقّ عتابى

لم تُخط فى أمرى الصوابَ موفقاً هذا جزاء الشاعر الكذاب !

ولكنه بعد أن يقرأ الأبيات يمزق الورقة ويصيح :

هذا لن يكون ، يجب أن أحتال لاتقاء شره ، ويجب أن أستعطفه واستنجد بعفوه ، ويجب أن أعتذر له بشعر ينسى الناس قصائد النابغة فى الاعتذار للنعمان بن المنذر . لن أيأس ما دام فى العمر فُسْحة ، ولن أقنَط من رَوْح الله ، ولن أدع وسيلة للخروج من هذا المأزق إلّا سلكتُها . إن أمامى حياة وآمالا ومطامح ، وإن البطل إذا عثر انتعش ، وإذ سقط وثب ، وربّ ضارّة نافعة ، ورب نقمة من ورائها نعمة !

هكذا كانت نفس أبى الوليد، وهكذا كان تشبّثه بالحياة وتعلّقه بالآمال،

فأخذ يبعث فى كل يوم إلى ابن جهور بقصائد فى الرجاء والاعتذار من عيون الشعر . بعث له مرة بقصيدة منها :

إيهِ أبا الحزم اهتبلْ مِنَّةً ألسنةُ الشكر عليها فِصاحْ
لا طار بى حظٌّ إلى غاية إن لم أكن منك مَريشَ الجناح
لم يَثنِنى عن أملٍ ما جرى قد يُرقَع الخَرْقُ وتُوسى الجراح!
وقاك ما تخشى من الدهر مَنْ تعِبت فى تأمينه واستراح

و بعث مرة بأخرى منها :

من يسأل الناس عن حالى فشاهدُها
محضُ العِيان الذى يغنى عن الخبر
لم تطو بُرْدَ شبابى كَبْرةٌ وأرى
برقَ المشيب اعتلى فى عارض الشعر
قبل الثلاثين إذ عهدُ الصبا كَثَبٌ
وللشبيبة غصنٌ غيرُ مهتصَر
ها إنها لوعةٌ فى الصدر قادحةٌ
نارَ الأسى ومشيبى طائرُ الشرر
لا يُهنىء الشامتَ المرتاحَ خاطرُه
أنِّى معنَّى الأمانى ضائعُ الخطر
هل الرياح بنجم الأرض عاصفة ؟
أو الكسوف لغير الشمس والقمر ؟

إن طال فى السجن إيداعى فلا عجبٌ
قد يُودَع الجفنَ حدُّ الصارم الذكر

وإن يثبِّط أبا الحـــــــزم الرضا قَدَرٌ
عن كشف ضُرِّى فلا عتبٌ على القدر

ولكن ابن جهور لم يُلقِ إلى شعر أبى الوليد سمعاً ، ولم يقبل له عذراً ، ولَم تعطفه عليه عاطفة، وبقى ابن زيدون يسخط على الحياة، ويبكى الأمل الضائع ، والرجاء الخائب . ولم يكن يفرّج عنه بعض همومه وأوجاله إلا زيارة نائلة وولادة ، فإنهما لم تنقطعا عن زيارته يوماً واحد . والحبّ والوفاء خَلّتان لم يخلقهما الله يوم خلق الأحزان والكوارث إلا لتخففا من شدتها ويهدّئا من عاصفتها . ومن الناس من يتحلّى بقدرة عجيبة على استلال همّ المهمومين ، ولباقة نادرة فى الحديث إلى المحزونين بحيث لا يدعهم يشعرون أنه يقصد إلى تسليتهم ، أو الترويح عنهم . فإن مما يدعو إلى تمرّد النفوس أن تشعر أن هناك حيلة تحاك لتغفلها وصرفها عما هى فيه . وأكثر ما يبدو ذلك فى الأطفال ، فإن من أنجع وسائل الإيحاء إليهم بنصح أو إرشاد ألا يدور بخَلَدهم أن ما يُوجّه إليهم إنما صنع قصداً للاحتيال لإرشادهم .

كانت نائلة تتحلى بهذه الصفة النادرة، فلم يدر حديثها مع ابن زيدون على السجن والآمال الضائعة ، ولكنه كان حديثاً لطيفاً عذباً تتخلله الضحكات ، وتمتزج به الفكاهات ، كما لو كانت تسامره فى بهو دارها ، والدنيا مقبلة ، وثغر الزمان بسام ، وكأن تلك الفواجع الجسام من قبض

واعتقال وتعذيب ، قد خُطّ عليها فى سجل الماضى ، كما خطّ فى القرطاس سطر على سطر . ولكن ولادة كانت من طابَع آخر ، كانت من الصنف الذى يعتقد أن الأحزان لا تنقشع إلا بالحديث فيها ، وأن الحزين إنما يخف حزنه إذا كثر ألم الناس له وامتزجت دموعهم بدموعه . لم ترقأ لها عين ، ولم يهدأ لها وجيب قلب ، وكانت كلما نظرت إلى حبيبها وهو فى تلك الغرفة المظلمة العفِنة الهواء فى سرداب الجامع الكبير ، زادت شجونها ، وفاضت شئونها . فسألت ابن زيدون : من الذى دعا ابن جهور إلى الذهاب إلى دار ابن المكرى ؟ فأجاب فى نبرة حزينة : لا أدرى ياسيدتى ، إلا أنه فجأنا بغتة فرأيناه فى الدار من حيث لم نكن نحتسب . وأسرعت نائلة تقول :

— ما لنا وللحديث فى هذا الآن يا ابنة الخليفة ! يجب ألا ننظر إلى الخلف ، وأن نتجه دائماً إلى الأمام ، فكثيراً ما أضاع الناس حياتهم بالنظر إلى الماضى ، والغفلة عن الحاضر والمستقبل ، وكم طارت منهم فرص لو رأوها وهى مقبلة عليهم لاقتنصوها . أنا أعرف كيف دُبّرت الدسيسة ، وكيف دُعى ابن جهور إلى دار ابن المكرى ، وسأعرف كيف انتقم من الدساسين . دعينا بالله يافتاة من الخوض فى هذا الحديث ، وقولى لأبى الوليد خبر العجوز المرّاكُشية .

فانفرجت شفتا ولادة عن ابتسامة حزينة ، وقالت :

— إن أمر هذه المرأة كان عجباً من العجب ، كنت أجلس بالأمس

أنا ونائلة فى شُرْفة القصر ، فسمعنا صياحاً وضجيجاً ، فنظرنا فإذا عدد عظيم من الصبيان يتبعون عجوزاً تحمل فوق رأسها سَفَطا ، وتجرّ وراءها كلباً ومعزاة ، وكانت ثياب العجوز ممزّقة بالية ، وكان وجهها يتكلم بما هى فيه من فقر وجَهْد. وتملّك الصبيان شيطانُ الشرّ ، فأخذوا يقذفونها بالحجارة وهى تتقى سهامهم بالانحراف عنها يَمنة و يَسرة ، حتى إذا أحردوها لجأت إلى باب القصر فدخلته وأغلقت بابه ، ثم سقطت وراءه من الإعياء لا تكاد تتنفس ، فأسرعت إليها جاريتى عتبة ، وأخذت تسرّى عنها بعض ما هى فيه وأحضرت لها طعاماً وشراباً ، فلما سكن ما بها ، وأفرخ رَوْعها ، نزلنا لمعرفة أمرها فأخبرتنا : أنها من مَرّاكُش ، وأنها جاءت من إشبيلية ماشية حافية . ثم سألناها عن الكلب والمعزاة فقالت : هذا أخى يجود علىّ بأمانته ووفائه ، وهذه أختى تجود علىّ بلبنها وزبدها . ثم سألناها عن مورد رزقها فقالت : إننى عرّافة ، وإننى ألمح فى سطور الكف ما حجبه الماضى فى موجاته ، وما يخبؤه المستقبل فى طيّاته ، وأقرأ ما فى نفس سائلى كأنما أقرأ فى كتاب مفتوح . ثم تناولت كفّى فى خشونة وجفوة ، فلما نظرت فيها صاحت : هذه كفّ عجيبة ! هذا خط الملك يا سيدتى ، ولكنه واحسرتاه ينحرف نحو اليسار قليلا ، فسبحان من لا يبيد ملكه ! له الملك وله الأمر وهو على كل شىء قدير . تاج هوى ، وصولجان تحطم ، ثم جذبتها إلى عينيها كأنها تريد أن تصوّب النظر إلى خطوطها وقالت : وهذا الخط خط الحب ، ماذا به ؟ إنه يتدارك مافات من

انحراف خط الملك ، وهو أعمق خط رأيته فى حياتى . حبٌ يملك القلوب ، ويُخضع جامحات النفوس ، ولـكنه كان حائراً مضطرباً مختلج العزيمة ، كلما جلس فوق عرش من القلوب قلِق به الموضع ، فطار يبتغى سواه ، ولـكنه استقر الآن ، نعم إنه استقر فى قاعة مظلمة تحت مسجد كبير . إنى أسمع شكوى ، وأسمع أنيناً فى هذه القاعة المظلمة ، وأرى فتى كان يملأ الدنيا همّة ونبوغاً يحصره مكان ضيق ليس به إلا نافذة صغيرة فى أعلاه . ثم بدا على وجهها الدهش وصاحت : انظرى يا سيدتى ، إن النافذة تتسع ، انظرى بالله عليك إلى قضبانها ، إنها تتحطم وتطير فى الهواء . ما هذا ؟ لقد أصبحت النافذة باباً ، والفتى الحزين يهُمّ بالخروج من الباب . ثم قهقهت وصاحت : لقد خرج إلى الهواء والنور ! إنه طليق ينفض أثوابه كما يصفّق الطائر بجناحيه إذا همّ بالطيران . إنه يضحك ويمزح ، ويستقبل الحياة كأشهى ما تكون الحياة . سبحانك يا رب ! ما أقصر الزمن فى هذه الدنيا بين الحزن والسرور ! وما أوهى الحدّ بين الأفراح والأتراح ! ثم عادت إلى عبوسها وقالت : ولـكن الحب شحيح ضنين ، فهل يجمع فى هذه المرّة بين القلبين ؟ ويأسو مرهمه الجُرْحين ؟ ثم التفتت إلىّ وقالت : اضحكى ياسيدتى واستبشرى واغتنمى فرصة الشباب فإن الشباب لن يعود !

فتنهدت نائلة وقالت :

أي والله إن الشباب لن يعود ! وودت لو كان بالسجن مرآة لترى

فى وجهها منه بقية . وابتسم ابن زيدون لولادة وقال : لن يطول سجنى يا فتاتى وستزيد مرارة الماضى فى حلاوة ما يُقتبَل من الأيام .

ويعود ابن زيدون بعد خروج حبيبتيه الوفيتين إلى أشجانه ، ويتمرّد على سجنه ، وتثور نفسه ، ويتذكر أصدقاءه ، ويرجو حسن شفاعتهم فيه ، فيكتب إلى صديقه أبى الوليد ابن عميد الجماعة متوسلاً :

هل النداء الذى أعلنتُ مستمَعُ   أم فى المثات التى قدّمت منتفَعُ
قل للوزير الذى تأميله وَزَرى   إن ضاق مضطرَبٌ، أو هال مطّلَع
أصخ لهمس عتاب تحته مِقَةٌ   وكلّفَ النفسَ منه فوق ما تسع
لا تستجز وضع قدرى بعد رفعته   فاللهُ لا يرفع القدرَ الذى تضع

ولكن أبا الوليد على حبه له ورغبته فى فك أسره كان يهاب أن يخاطب أباه فى شأنه ، فذهبت صيحة ابن زيدون فى الهواء .

وفى صبيحة يوم يدخل عليه حارس السجن وبيده رسالة من نائلة ، فيسرع إلى فضها ويقرأ فيها :

« إذا ما الدهرُ جرَّ على أُناسٍ   كلاكلَهَ أناخ بآخرينا
فقل للشامتين بنا : أفيقوا   سيلقى الشامتون كما لقينا

كادت لك عائشة بنت غالب فكدنا لها ، وهى اليوم فى طريقها إلى منفاها بقشتالة بعد أن صادر ابن جهور كلّ ما تملكه من صامت وناطق إنى أرى تباشير الفرج ، فاصبر ولا تبتئس . »

وما قرأ الرسالة حتى ابتسم للخبر ، ثم أخذ يغمغم :

ليس الركونُ إلى الدنيا دليلَ حِجاً   فإنها دولٌ أيامُها مُتَعُ

(٩)

مرّت شهور على سجن ابن زيدون لم تهدأ نائلة فيها لحظة ، ولم تسكُن ثورتها للانتقام منذ جال فى ظنها أولَ وهلة أن عائشة بنت غالب هى ناصبة الشرك ، ومدبرة المكيدة ، وازدادت يقيناً حينما أخبرها أبو حفص ابن برد بكل ما يتصل بالحادثة جملة وتفصيلا . كانت تقضى ساعات ذاهلة مفكرة ، ترسُم الخُطط ، وتنصب الحبائل ، وكلما رسمت خُطة وظهر فيها جانب يضيع فيه الحزم ، وينكشف السرّ ألقت بها ضجرة يائسة ، وكلما نصبت حِبالة وبدا لها فيها فتوق تتسع لفرار الفيل طرحتها آسفة على ذكائها ، متهمة نبوغها . وهكذا كانت تقضى أيامها فى غزل ونقض ، وبناء وهدم ، لا تستقر على شىء ، كأن دهاءها القديم فارقها ، أو كأن علوها فى السن أضعف مواهبها . لقد كان شيطانها أيام الشباب حاضر البديهة ، لا يُعجزه شىء فى باب الحيل والمكايد ، فما باله الآن أصبح فَدْما سقيم الرأى بليدا ؟ كانت تأكل وهى تفكر فيما تنكب به عائشة ، وتنام وهى تفكر ، وتحادث الناس وهى تفكر ، ولكنها بعد كل ذلك لم تصل إلى شىء يعجبها ، أو يرضى عنه فنّها . لقد أكدت العزم على أن تنكب عائشة ، وأن تذيقها نكال أمرها ، ولكن من أى ناحية تهجُم عليها ؟

ومن أى ثغرة تثب على هذا الحصن المنيع ؟ إن بعض الناس يهمسون بأن لها ضِلعا مع نصارى الشمال ، ولكنها تكمُن فى دَرَقة من الحذر كما تكمن السلحفاة فلا يبدو منها إلا حبّ العرب ، والإخلاص للعرب . من أين تصل إلى هذه المرأة المبهمة الخفية ؟ إن غريزتها وحاستها السادسة تؤكدان أن لها صلة بالأسبان ، ولكن أين السبيل إلى إثبات شىء من ذلك ؟ أين السبيل إلى فضح المستور ، ونبش هذا القبر المزدحم بالأسرار ؟ فكرت طويلا ، وقدرت كثيراً ، ثم أفاقت من تفكيرها وتقديرها ، وهى تصيح : أسبيوتو ! أسبيوتو ! إنه مفتاح السرّ ، ورُقْية هذا الحرز المدفون . لقد نبّأتنى غالية فى كل مرة تزورنى فيها أنه يكثر من التردد على عائشة ، فلا بد من معرفته ، ولا بد من صداقته ، ولا بد من اجتذابه بالحيل الخفية حتى يقع فى الشرك فتقع معه عائشة . ولكن كيف أصل إليه من غير أن يحوم بذهنه ظلّ من شبهة ؟ فإن هؤلاء الجواسيس أشدّ حذراً من الذئب الذى

ينام بإحدى مقلتيه ويتّقى بأخرى المنايا، فهو يقظان نائم

لقد علمت من غالية أنه يتلقّى الطب على ابن زهر ، فلم لا تشكو ولادة وعكة خفيفة فتدعوه إلى قصرها للعشاء وليصف لها دواء ؟ وحينئذ أستطيع بما يفتح الله به علىّ أن أصل معه إلى غاية .

ونهضت إلى قصر ولادة ، وطلبت إليها أن تدعو ابن زهر فى الغد للعشاء ، وأن تتمارض وتشكو له أية علة تمرّ بخاطرها . وعجبتِ ولادة ،

وحاولت أن تعرف السبب ، ولكن نائلة غادرت القصر وهى تهمس فى أذنها : ستعلمين نبأه بعد حين .

وجاء ابن زهر للعشاء ، وشكت إليه ولادة صداعاً شديداً يُلِمُّ بها كل صباح ، فوصف لها دواء ، ثم سلك الحديث شِعاباً شتّى ، وجاء ذكر ابن زيدون وذكر حساده وما أوغروا به صدر ابن جهور عليه حتى سجنه . فقال ابن زهر :

— إن سجن ابن زيدون نكبة لقرطبة ، وكل ذنب الرجل ، إن كان له ذنب ، أنه يريد أن يعيد مجد العرب وقوّتهم . فقالت ولادة حزينة :

— هذا كلام قد يلقى بك فى السجن غداً يا سيدى . وأسرعت نائلة لتغيّر مجرى الحديث فقالت :

— هل يُلقى مولانا دروسا فى الطب بجامعة قرطبة ؟

— نعم يا سيدتى . وهذه الجامعة مفخرة الأندلس ، فيها آلاف من الطلاب يحجّون إليها من أقصى بلاد الإفرنجة ، ومن جميع أقطار المشرق ، وتدرس بها جميع علوم الدين والعربية والأدب ، إلى جانب فلسفة اليونان والطب والفلك والأرتماطيقى والجغرافية والكيمياء والطبيعيات . ويُغرَم أبناء الإفرنجة بالأدب العربى إغراماً أفزع قساوستهم ، حتى لقد أخبرنى أحدهم ، وهو يتحرّق غيظاً ، بأن طلاب الجامعة الأسبان أصبحوا يبغضون لغتهم الإسبانية ، لشغفهم بالعربية وآدابها ولقد نسى كثير منهم لغته وأصبح لا يستسيغها ، ولكنه إذا نظم شعراً عربياً أتى بالبديع الرائع .

فأسرعت نائلة إلى غرضها وسألت :

— هل بين تلاميذك أسبان وافدون من الشمال ؟

— كثير يا سيدتى ، وأكثرهم حريص على طلب العلم مشغوف بتفهّم دقائقه .

— إنى أشعر — ولا أعرف علّة لهذا الشعور — بعطف على هؤلاء الطلبة ، قد يكون لأنهم غرباء مقصَوْن عن أهلهم وذويهم ، وقد يكون سببه الاعتزاز بأندلسيتى ، وأن قرطبة أصبحت مشرق النور والعرفان للعالم أجمع ، وأن هؤلاء الطلاب جاءوا إلينا ملتمسين مستجدين قَبَسا من هذا النور ، وقد يكون سببه معرفتى لغة الأسبان ، فإن للغات صلات روحية تؤلّف بين من ينطقون بها .

— ربما كانت هذه الأسباب مجتمعة منشأ هذا العطف النبيل ياسيدتى .

— سمعت من أبى إسحاق الطبيب أن بين طلابك شابا أسبانياً شديد الذكاء لا يحضرنى الآن اسمه . ثم قالت : عجيب أمر هذه الأسماء ، تطوف بالذهن حين لا نريدها ، وتستعصى إذا طلبناها . أنا أعرف أن فيه سيناً وباء ، ولكن صورته تغيب عنى . ثم أسرعت وقالت : لقد وجدته . أسبيوتو ! أسبيوتو يا سيدى !

— هو طالب ذكى حقاً ، ومجد حقاً ، ولكن يظهر أن شئوناً فى بلاده تلجئه إلى السفر مرتين أو ثلاثاً فى أثناء العام . فبدت لنائلة بارقة أمل فى صدق ظنها ، وأن هذا السفر لم يكن إلا لنقل رسائل عائشة إلى ملك الأسبان . فهزّت رأسها وقالت :

— لعله فقير يا سيدى ، ولعل أهله لا يُمدونه بالمال إلا إذا ذهب إليهم ، وأخذه اقتسارا .

— الظاهر من أمره أنه فقير حقيقة ، ولكنه يخفى خصاصته بقناعته .

— هل يتفضل سيدى بإرساله إلى دارى فى مساء غد لعلى أستطيع أن أسدّ خَلّته ؟

— نعم وكرامةً يا سيدتى .

والتفتت ولادة إلى نائلة كالمتسائلة عن سرّ كل هذا ، ولكن نائلة لم تمهلها ، فاستأذنت فى الخروج وغادرت القصر .

لزمت نائلة دارها فى اليوم التالى وهى تفكر وتدبر ، فأخذت صحيفة وكتبت فيها بالأسبانية رسالة لملك الأسبان بها بعض أسرار مملكة قرطبة ، ثم وضعت الصحيفة بين أوراق كتاب الأدوية ليونس الحرانى ، ووضعت الكتاب بين الكتب فى خزانة كتبها . حتى إذا جاء المساء دخلت جاريتها نشوة تقول : إن شابا أسبانياً يطلب لقاء سيدتى . فأمرتها بإحضاره .

وكان اسبيوتو فى نحو السابعة والعشرين ، قصير القامة ، نحيل الجسم تدلّ ملامح وجهه على الشرّ والقسوة ، وإن سترها بغشاء من الذلة والتواضع . دخل مطرقا لا تفارق عيناه الأرض ، فإذا تحدّث رفعهما قليلا إلى محدثه ليطمئن إلى معارف وجهه .

حيّته نائلة فى حنان ورفق ، ثم أمرته بالجلوس ، وأخذت تحادثه بالأسبانية عن بلاده وأهله ، حتى إذا اطمأنت نفسه ، وذهبت وحشته قالت :

— إن الطبيب ابن زهر يثنى عليك خير ثناء ، حتى لقد أحببت أن أراك . والحق ياولدى أن بين ما أحبّ شيئين أصبح القرطبيون يتندّرون بهما هما : علم الطب واللغة الأسبانية .

— أنت يا سيدتى تنطقين بالأسبانية كما ينطق بها أهلها .

فضحكت وقالت : لا تخدعنى يا ولدى ، فإن رطانتى بالأسبانية لا تقلّ عن رطانة الأسبان بالعربية ، ولكن الذى يؤلمنى فى الأمر أن بعض قصار العقول من رجال الدولة ، يرموننى بحب الأسبان لأننى أعرف لغتهم . وحب الأسبان أصبح جريمة لا تغتفر فى هذا الزمن الأغبر المملوء بالدسائس والفتن . إننى عربية النبعة ، هكذا كان يقول لى أبى ، ولكنى لا أستبعد أن يكون فى دمى قطرات من وراثات أسبانية ، أبوح بذلك للأصدقاء ليس غير يا أسبيوتو . إن الحال فى قرطبة لا تعجبنى ، أنا أريد حكما سمحاً لطيفاً لا يحسّ المحكوم فيه بسيف الحاكم يلمع فوق رأسه .

فأصاب اسبيوتو شىء من الدهش لأنه سمع كلاماً جريئا لم يألف سماعه فى قرطبة ، فقال :

— إن العرب ياسيدتى من أصلح خلق الله لحكم الأمم ، وإن من يقرأ القرآن ويتفهّم ما سنّ من قوانين لسياسة الحكم ، وحسن معاملة الأمم المغلوبة ، يملؤه العجب والإكبار معاً .

— صحيح . ولكن من يعمل الآن بكتاب الله وما فيه من هدى ونور ؟ أترى هذا التنابذ والتحاسد بين أمراء الأندلس ؟ إنه كارثة جائحة . ثم

تبسمت وقالت متهكمة : وربما كنت لا أدرى ، وربّ ضارة نافعة . ثم وقفت أمام خزانة كتبها وقالت :

— تجد فى هذه الخزانة كتباً كثيرة فى الشعروالأدب . فوقف أسبيوتو ومدّ يده فى حذر إلى رفّ كتب الطب ، وقال :

— إن لديك كتباً كثيرة فى الطب يا سيدتى .

— أستطيع أن أعيرك بعضها .

— فأخرج كتابا لابن حَسَداى الطبيب اليهودى فى أيام الناصر لدين الله ، وقلّب صفحاته ، ورأى إلى جانبه كتاب الأدوية ليونس الحرانى فأسرع بيده إليه وقال : هذا كتاب نادر يا سيدتى .

— إنه بخط مؤلفه .

وبينما هو يقلب صفحاته إذ سقطت الصحيفة التى كتبتها نائلة على الأرض ، فانحنى ليأخذها ، فرأى فى صدرها اسم ملك الأسبان فبهت وامتدّ بصره إلى السطور الأولى منها ، ولمحته نائلة فلبسها الغضب ، وانقلبت نمرة شرسة ضارية ، ومدّت يديها إلى عنق أسبيوتو وهى تصيح فى ذعر يشبه الجنون : هل قرأت ما فى الصحيفة ؟ هل امتدّت عينك إلى كلمة فيها ؟ يا للنحس ! ويا للشؤم ! ويا للداهية الدهياء ! إن كلمة واحـدة تخرج من هـذه الصحيفة كفيلة بضرب عنقى . قل : هل قرأت منها كلمة أو جملة ؟ فذعر أسبيوتو وارتجف وقال وهو يتمتم . لم أقرأ منهـا إلّا « إلى ملك

الأسبان العظيم » ثم سطراً بعد ذلك . فهمّت نائلة وأغلقت الباب ، وقالت وعيناها تتقدان :

— أنت الآن تعرف سرّى ، فيجب أن يموت أحدنا ، ولست أريد أن أموت . لن تخرج من هذه الدار حيًّا ! وما كنت أودّ أن أقتل شاباً أحبّ قومه ، ولكن ما حيلتى وتطفُّلُ الشاب ودسُّه أنفه فى كل شىء هو الذى قضى على حياته !

فزاد رعب أسبيوتو وقال متلعثما مضطرباً :

— هوّنى عليك يا سيدتى ، فإنه لم يطلع على سرّك إلا جاسوس للأسبان . فتصنّعت نائلة الدهشة والسرور وهمست :

— أنت جاسوس للأسبان ؟ !

— نعم يا سيدتى . وقد سرّنى أن أرى مثلك معنا .

فتنفست نائلة الصُعَداء شأن من تفتّح له أمل بعد يأس ، وأحسّ بأمن بعد خوف ، وقالت :

— مع من تعمل يا أسبيوتو ؟

— مع واحد أو اثنين ، ولكنى أعتقد أن الدنيا بخير ، وأرجو ألّا يمر زمن طويل حتى يدخل ملك الأسبان قرطبة بجيوشه . حينئذ تكون الدولة دولتنا ، وحينئذ ينال كل من بذل معونته و إخلاصه أقصى ما يشاء من جاه ومال . ولكن خبّرينى أنت يا سيدتى : أتعرفين أحداً يعمل إلى جانبنا ؟

فرأت نائلة أن تخترع له أسماء لا وجود لأعيانها ، علّه ينزلق إلى ذكر عائشة بنت غالب . فترددت كالمتمنّعة ثم قالت :

— أعرف عاتكة القوطية ، ونزهة الغرناطية ، وسلمى بنت حجاج .

فهزّ أسبيوتو رأسه ليدل على أنه لا يعرفهن وقال :

— أتعرفين عائشة بنت غالب ؟ فقالت في هدوء :

— أعرفها . فقال أسبيوتو في شيء من الزهو :

— إني أعمل معها .

— ما خُطّة عملكما ؟

— تكتب الرسائل وبها كثير من أخبار الدولة وأسرار الجيش والحصون ، لأنها على اتصال وثيق بالوزراء وكبار المملكة ، فأمضي بها إلى الشمال وأضعها في يد ملك الأسبان . وسأسافر بعد يومين لحمل رسالة جديدة .

— حسن جداً . وإذًا تستطيع أن تأخذ رسالتي هذه معك بعد أن أهذّبها وأزيد عليها أخبارا .

— سأمرّ عليك يوم الثلاثاء في الصباح .

— عظيم . ولكن اسمع . يجب ألاّ تبوح بكلمة مما جرى اليوم لعائشة ، وألاّ تذكر لها اسمي ، لأن أول قواعد الجاسوسية ، التي نقضناها اليوم ، أن يكتم الجاسوس سرّ نفسه حتى عن أمثاله الحاطبين في حبله .

— ثقي أني لا أفوه بكلمة لأحد ، عمي يا سيدتي مساء .

— عم مساء يا أسبيوتو ، وسنلتقى صباح الثلاثاء .

وما كاد يفارق الدار حتى كانت نائلة فى قصر ابن جهور تقصّ عليه الأمر من أوله إلى آخره ، فدهش الرجل وهزّ إحدى كتفى نائلة بعنف وهو يقول غاضباً :

— ثقي يا نائلة أننى لست ممن تلعب بهم النساء ، فإن كان ما تقولين كذباً ، فقولى إنه كذب أعفك من كل عقاب .

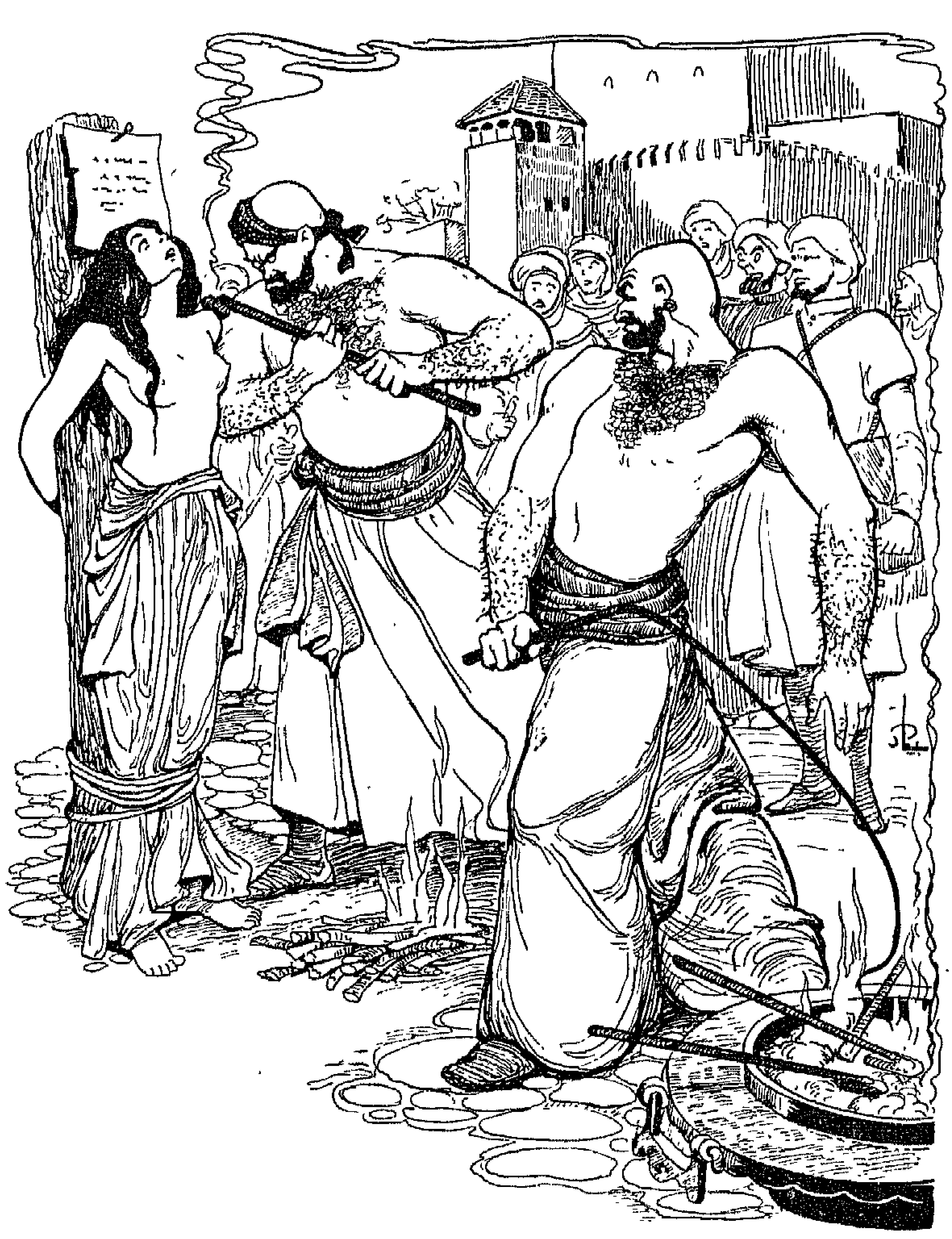
— إنه حق صريح يا مولاى ، والذى أطلبه منك أن تبعث أعوانك إلى دارى يوم الثلاثاء فى غبش الفجر ، وأنا أعرف كيف أجد لهم مخبأ .

وجاء يوم الثلاثاء ، وجاء أسبيوتو معه إلى دار نائلة ، فقبض عليه الأعوان وعقلوه إلى قصر ابن جهور ، وفُتّشت ثيابه ، فإذا هو يخفى الرسالة فى جبّة مبطّنة ، وأحضر العارفون بالأسبانية فقرءوها وترجموها ، ورأوا فيها إفشاء لسرّ الدولة ، وحضّا على غزوها ، فغضب ابن جهور أشدّ الغضب وصاح بالجنود أن يحضروا عائشة . فانطلقوا إلى دارها كأنهم زبانية الجحيم ، فلما رأتهم هلعت وطار صوابها ، وحين قُذفت بالتهمة جُنّ جنونها ، لأنها كانت تبالغ فى الكتمان ، وكانت تخفى أسرارها عن كل إنسان ، فمن هذا الشيطان المريد الذى استطاع أن ينفُذ إلى حُجُب الغيب ، وأن يستل أسرارها المدفونة تحت أطباق الثرى ؟ من هذا اللص الخفى الماهر الذى يسترق حديث النفوس و يسطو على خلجات القلوب ؟ من يكون غير نائلة ؟ إن ابن زيدون فى سجنه منذ شهور ، فهو ليس من أهل الدنيا

ولا من أهل الآخرة . ليس لى عدو إلا نائلة . عليها لعنة الله ، ولعنة الشيطان !

أنكرت كل شىء أمام ابن جهور ، ثم رجت ، ثم استعطفت ، ثم بكت بكاء يقطّع نِياط القلوب، ولكن ابن جهور كان صخراً صلداً شديداً قاسياً ، فحكم بقتل أسبيوتو فى ميدان الخلافة ، و بأن تُجلد عائشة وتوسم بالنار فى كتفها اليسرى ، وتصادر أموالها ، ثم تنفى إلى قشتالة . فجرّها الأعوان من مجلس الحكم ، وهى تبكى وتصيح وتضرب الأرض بقدميها ، حتى بُحّ صوتها ، وخذلتها قواها . ووكل ابن جهور بها خمسة جنود ليصحبوها فى سفرها .

وكانت نائلة على كثب من دار الجماعة تشرف على تنفيذ التدبير الذى أحكمت رسمه ، كما يشرف القائد على خُطّة هجومه ، فلما علمت بالحكم على عائشة أسرعت فبعثت بالبشرى إلى ابن زيدون وولادة ، ثم أمرت حَمَلَة مِحفّتها أن يتبعوا الجنود الموكّلين بعائشة إلى مشارف المدينة ، وهناك مدّت يدها لتوديعها ، وقلبها يفيض شماتة ، وعيناها تفيض بدموع الانتصار . فصاحت بها عائشة فى غيظ وتهديد : سنلتقى مرة أخرى يا نائلة ! فقهقهت وهى تقول : نعم فى الأفراح والسرور ! !



فحكم بأن تجلد عائشة وتوسم بالنار فى كتفها اليسرى

(صفحة ١٧٠)

(١٠)

بلغت عائشة مدينة « بَرْغَش » بقشتالة بعد جهد وعناء وأين ، بلغتها يائسة محطّمة ، عليلة الجسم والنفس : ذهبت أموالها ، وانتزعت من عزّها وجاهها كما يُنتزع الظفر من اللحم ، وفتحت عينيها فرأت كلّ نعمة تنحلّ عنها كما تنحلّ ثلوج جبال نيڤادا إذا لفحتها شمس الصيف ، وشاهدت كلّ أمل ينفِر من حولها كما تنفِر الطير وقد ألقيت بينها بحجر .

كانت الطريق وعرة ، والبرد شديداً ، والسير حَقْحَقة ، والجنود جفاة، فمن أين لعائشة أن تحتمل إحدى هذه الكوارث ، وقد نشأت في مهد الترف ، ودرجت في باحة النعيم ، وعاشت في ظل ظليل من الغنى ورفاغة العيش ؟ لقد كانت تستخشن الحرير، و يؤلمها الفراش الوثير ، وتجرح خدّيها خطرات النسيم ، فكيف هي الآن وفراشها الجندل ، وطعامها الحنظل ، والعواصف الثلجية تتناوح فوق رأسها في الليل والنهار ؟ كيف تستطيع هذه الفتاة المترَفة الناعمة أن تثبت لهذه النوازل ، أو تصبر على هذه المكاره ؟ إنها كلما رأت السهول والسهوب والآكام والصخور ، ورأت جسمها يهبط و يرتفع فوق سرج بغلتها كأنه شُكَيِّة ابن يمخضه ماخض ، تذكرت ما حدّثتها به أمها حينما خرجت مع جدّها وجدّتها من شنت ياقب

فراراً من وجه المنصور أبى عامر وما لاقى الركب البائس يوم ذاك من كوارث وويلات .

كانت تفكر فى ماضيها وحاضرها ، أمّا الماضى فكان يبكيها ، وأمّا الحاضر فكان سواداً بهيما ليس فيه بصيص من ضياء . كانت تفكر فى ابن زيدون وكيف انتقمت لنفسها منه ، وكانت تفكر فى نائلة وكيف تستطيع أن تنتقم لنفسها منها على بعد الشقة ، وتنائى الديار . إنها صديقة ابن زيدون التى سرقت رسائله من دارها ، فلما حبس لم تجد إلاّ أن تصبّ الشبهة عليها ، وأن تثأر منها ، فاتخذت من هذا الأسبانى المفلوك الأبله شصّا لاصطيادها . ثم ما هذا الصنم الأجوف الذى يسمونه بابن جهور ؟ إنه لم يستجب لبكائى ، ولم تُهزّه عاطفة لأنوثتى . ويل لى ! وويل من بلاهتى ! فلكم أوصتنى أمى بأن أحذر ، وأن أقدر لرجلى قبل كل خطوة موضعها ، وهكذا فعلت ، ولكنى لم أحسب حساباً لمن يقرءون ما فى الصدور . لقد عرف الأشقياء أننى حليفة الأسبان عدوة العرب ! وماذا أفعل فى ضِغْن ورثته من أهلى و بغض امتصصته من ثدى أمى ؟ إننى أسبانية الدم والأرومة ، وإن للوراثة سلطانا يسخر من وسائل التهذيب ، ويهزأ بالبيئة وما يزعمون لها من سيطرة فى تنشئة الأخلاق . إن للوراثة يَنْبوعاً لابد أن ينبثق وإن غطّته طبقات السنين وحجبه تعاقب الأجيال . لقد كان جدّى يبغض العرب وإن أخفى بغضه تحت ستار من المكر والدهاء ، وقد يكون من سُلالة ذاقت ويلات الذل من حاكم عربى عنيف ، ملأ

صدورها حقداً ، فتسربت من هذا الحقد رواسب إلى أعقابها . ولكنى لن أطيق الحياة بين أهل الشمال ، إن هؤلاء العرب يعرفون كيف يعيشون وكيف ينعمون بملاذّ العيش ومتعه ، أمّا أولئك فغلاظ جُفاة أميّون ، لم تهذبهم حضارة ولم يصقُلهم أدب ولا تأديب . كيف أعيش بين هؤلاء بعد زهو قرطبة ، وتلألأ ندواتها ، ورنين ضحكاتها ، وقهقهة كاساتها ، وتغريد عيدانها ، وازدحامها برجال الشعر والأدب والفنون ؟ لقد خلّفت ورائى مدينة صبغ السرور ليلها صباحاً ، وجعل أيامها السعيدة أفراحاً ، مدينة لا تنام إذا نامت الكواكب ، ولا يكدر صفو شرابها ذكر العواقب . مدينة كأنها قطعة من الفردوس ، فيها ما تشتهيه الأنفس وتلذّ الأعين . ثم تنهدت وانهمرت الدموع من عينيها ، ولكنها أماطتها عن خديها فى كبر وغضب وهى تقول : إن ابنة جارسيا لا تبكى للخطوب!

نزلت عائشة « برغش » وقد أرخى الليل سدوله ، وشمل المدينة برد قارس عضوض ، كادت تجمُد له أنات البائسين . وكانت برغش فوق شرف عال بُعثرت فوقه الأكواخ فى أزقّة ملتوية ، تكدّست بها الأقذار والأوحال ، وأرسل كل كوخ من خَصاصه ضوءاً خافتاً مضطرباً ، كأنه فُواق المحتضَر . ولم يرتفع بين أبنية المدينة إلا بناءان : أحدهما فى الوسط ، وهو قصر ملك قشتالة ، وحوله منازل الجند ورجال الدولة ، والثانى دير سنت بدرو للراهبات .

وقفت عائشة حزينة باكية فى هذا الظلام الدامس ، حيرى لا تدرى

أين تقضى ليلتها . إنها لا تستطيع أن تزور الملك فى قصره بعد أن مضى الهزيع الأول من الليل ، ولا تستطيع أن تنزل فى خان ، لأن بؤسها ورثاثة أسمالها يغلقان فى وجهها كل باب . و بعد تفكير مضطرب رأت أن تقصد إلى الدير ، وكان منها علي كَثَب ، فطرقت بابه وجلة متردّدة ، وفتحت لها راهبة عجوز عابسة الوجه ساخطة على الحياة ، متمرّدة على التبتّل ، فلقد ظنت فى ضحا شبابها أن فى البعد عن الناس سلامة وطهراً ، ولكنها رأت فى أصيل العمر أن الحياة لا تكون إلاّ بين الناس ، وأن الطهر وعلاج النفوس لا يكونان إلا حيث تكون الفتن ونزَغات الشياطين .

تجهمت الراهبة « شيانة » لعائشة وقالت فى صوت خشن أجش :

— ضحية جديدة للشيطان ؟ فأجابت عائشة بصوت متردد حزين :

— لا يا أختى ، إنها فتاة بائسة لا تجد فى هذه الليلة القاسية مأوى ولا طعاماً ، وهى لا تريد إلا كِنّا وحسوة من حَساء ، وستغادر الدير فى أول شعاع للصباح ، فهل تجد فيه ما تمسك به رمقها ؟

— أمّا المأوى فهيّن ميسور ، وأما الطعام فلن تجدى منه الليلة إلا لقيمات . ادخلى .

ودخلت عائشة ، وقضت ليلتها نهبا للأحزان والبرد والجوع ، حتى إذا صاحت الديكة التفّت بإزارها وودّعت صاحبة الدير وخرجت قاصدة قصر الملك . فلما اقتربت منه أسرع خدم القصر يذودونها عنه ، لولا أن همست فى أذن كبيرهم بأنها تحمل إلى الملك رسالة من قرطبة .

وما كان إلا ذهاب وجيئة ، وانتظار وترقب حتى كانت فى حضرة ملك الإفرنجة ، فرأت فيه رجلا كهلا أسمر اللون ضخم الجثة ، أميل إلى الطول، جالساً على وسادة عالية ، مكشوف الرأس أصلع ، لم يغلب عليه الشيب بعد ، وكان عليه ثياب من ثياب المسلمين . تقدّمت منه عائشة فقبّلت يده ، ثم غلبها البكاء أو اصطنعته وصاحت :

— انتقم لى يا سيدى من ابن جهور ومن جماعة المسلمين . فابتسم الملك وكان داهية فى الرجال ، وقال وهو لا يحوّل عنها نظراته النافذة المخيفة :

— خففى عن نفسك يا فتاة ، وانفضى إلىّ جليّة الخبر . ثم مَن أنت أولا فإنى لا أحبّ أن أخاطب مجهولا ؟

— أنا ياسيدى عائشة بنت غالب ، فشُدِه الملك واتسعت حدقتاه وصاح :

— صديقتنا عائشة العاملة المخلصة انصرة الأسبان ؟ ! فكشفت عائشة عن كتفها اليسرى لتظهر أثر الوسم بالنار وقالت :

— وهذا يا سيدى عاقبة إخلاصى فى خدمتك ، و بلائى فى نصرتك فوقف الملك بعد أن كان جالساً وقال فى غضب مضطرم :

— من فعل هذا ؟

— ابن جهور بعد أن صادر أموالى ، وطردنى من قرطبة بلد آبائى . فأطرق برأسه كالمفكر وقال :

— هل أصابك كل هذا لأجلى ؟

— لأجلك يا مولاى ، ولأجل الغاية التى نسعى إليها معاً .

— ومن الذى وشى بك ؟

— امرأة تنازعنى فى رجل .

— آه . كان عليك يا فتاتى أن تعرفى أن الجاسوس لا قلب له ، وأنه إذا أحبّ فسد عليه كل أمره ، ولكنا نتعلم من هفواتنا . والآن لا عتب عليك ولا تثريب ، فالأيام كفيلة بأن ننتقم لك ، والضعيف الذى يدرُج إلى القوّة أقوى من القوى الذى يتدلّى إلى الضعف . لقد تغلّب علينا العرب بقوة كانت فوق قوتنا ، وإيمان كان أعظم من إيماننا ، ومدنية لم يكن لنا منها قليل أو كثير ، ولكن جذوة خامدة بقيت فى صدورنا ، فطفقنا ننفخ فيها حتى تقطعت أنفاسنا ، غير أنها تأججت فى النهاية وأصبحت ناراً صاحبة اللهب فوارة السعير ، يخافها العرب ، ويُصمّ آذانهم حسيسها . ولن ننام عن ثأرنا يا بُنيَّة ، ولكن الأمور تعالج بالصبر والدهاء ، حتى يُسكت قرع النواقيس أصوات الأذان . أتدرين ما كان من أول أمرنا يا فتاة ؟ كان بجليقية قسّ قوى الشكيمة شديد المراس ، يسمى « بلاى » رأى قومه وهم يفرّون أمام الفاتحين ، فامتلأ قلبه غيظاً ، وصاح بينهم يذكى عزائمهم ، ويثير هممهم لطلب الثأر ، والاستماتة فى الذود عن بلادهم ، ولكن سيل العرب كان جارفا ، فتحصّن مع نفر من قومه فى قُنّة صخرة ، فمات أكثرهم جوعا ، ولم يبق منهم إلاّ ثلاثون رجلا وعشر نسوة ، ولم يكن لهم من طعام إلاّ ما يشتارونه من عسل النحل . وبقى هؤلاء الأبطال ممتنعين بالصخرة ، وقد أعيا العرب أمرهم حتى يئسوا فى النهاية من الوصول

(١٢)

إليهم ، وقالوا : ثلاثون رجلا ما عسى أن يجيء منهم ؟ ولكن هؤلاء الثلاثين ما زالوا يتكاثرون و يقوون و يغيرون على أطراف ممالك العرب ، حتى أصبحوا الآن كما ترين ، وأصبحت دولتهم عزيزة الجانب ، يهابها الملوك ، و يتقرّب إليها الأمراء . صبراً يا بُنيَّتى ، فإن الخمر والنساء والتبذّل فى الشهوات وتفرّق الكلمة ، كفيلة بأن تذهب بشوكتهم. ربما لاندرك هذا فى أيامنا ، ولكن من تحقق من وقوع الشيء فقد رآه .

وهنا قالت عائشة :

— والآن يا سيدى ألا تريد أن تثأر لى منهم ؟

— لا يا عائشة .

— يجمل بسيدى أن يدعونى « روزالى » فقد ألقيت باسم عائشة من ورائى منذ غادرت قرطبة .

— روزالى ؟ أصبح اسمك الآن روزالى ؟

— نعم يا سيدى .

— حسن ، اطمئنى يا روزالى ، أقيمى بيننا الآن حتى تسكت العاطفة ، وسآمر لك بدار تنزلين بها ، وأجرى عليك من المال ما يكفل لك حياة رغدة .

وأقامت عائشة أو روزالى ببرغش شهوراً فى سعة من العيش والجاه ، وتوثّقت صلتها بالملك، وظفِرت منه بالرعاية والثقة . وفى صبيحة يوم دخلت عليه فصاح بها قبل أن تجاوز باب البهو :

— كنت سأبعث فى طلبك يا روزالى . أقبلى بعد أن تغلقى الباب، فإن حديثنا يجب ألا يطرق أذن ثالث .

فسعت إليه بخطوات خافتة كأنها تخشى أن يكون فى صوت أقدامها إذاعة لهذا السر الخطير وقالت فى همس :

— أجدّ جديد يا سيدى ؟

— لا ياروزالى ولـكن رسولا طرق القصر عند منتصف الليل قادماً من قرطبة .

— أثار القرطبيون على ابن جهور ؟

— لا ، فإن ابن جهور أدهى من أن يدع الزمام يُفلت من يديه، وهو يعرف متى يُرخيه ، ومتى يجذبه ، ولـكن الرجل تدِبّ إليه الآن شيخوخة تسرع به إلى القبر ، وما أظن أن الأمر يستقيم لأولاده من بعده . ثم زفر وقال : ولـكنا نسبق الأيام ، ولن يتم أمرنا بهذه العجلة ، ومن يسبق إلى الطعام فى قِدْره تحترق يداه . جاء الرسول بالأمس من قبل راميرز بن بترو .

— صاحب أكبر حانة بقرطبة ؟

— نعم ، وهو زعيم جواسيسنا هناك بعد أن مات أبوه .

— إنه يعيش مع العرب كأنه واحد منهم ، ويلتهب غيرة على الإسلام وتعصباً للمسلمين .

— وهذا سرّ نجاحه يا بُنيّة .

— ماذا يحمل الرسول يا سيدي من أخبار ؟

— يقول إن ابن عبّاد بإشبيلية ، يفكر فى الإغارة على قرطبة واستخلاصها من يد ابن جهور ، وأنه بعث إلى راميرز رسولا يرجوه و يلح عليه فى أن يحملنى على محالفته ومعاونته بجنودى ، لقاء إتاوة دائمة يبعث إلىّ بها فى كل عام .

— وماذا يرى سيدى ؟

— أرى أن ابن عباد أسد رابض ، وأن ابن جهور ثعلب ماكر ، وأننا لو أعنّا ابن عباد لم يكتف بقرطبة ، وسمت نفسه الطَموح إلى جمع الولايات العربية تحت رايته ، و بذلك يضطرب الميزان ، وينهار كل ما بنيناه . أمّا ابن جهور فرجل حذِر شديد المراس حُوّل قُلّب ، يأخذ ولا يعطى ، ويتقبّل العون على ألاّ يدفع له ثمناً .

— حقاً إن الأمر لمعضل .

— لا يا روزالى إن كل معضل يهون بالتفكير والصبر وحسن التأنى .

— وهل فكرت فى الأمر يا مولاى ؟

— فكرت فيه طويلا ، ذلك أن ابن المرتضى الأموى الذى نفاه ابن جهور إلى شرقىّ الأندلس منذ شهور ، عاد ثانية إلى قرطبة مختفياً ، وأنصاره يبثّون له الدعوة فى الخفاء ، والقرطبيون يتلهفون شوقاً إلى عهود الخلافة الأموية . فوثبت عائشة قائلة .

— أتريد ياسيدى أن تجلسه على عرش قرطبة ؟

— ولِمَ لا ؟ إنه رجل هادئ النفس ليِّن القيادة ، فإذا ناصرناه كان حليفاً لنا ، ويداً على أعدائنا .

— وماذا تريد منى أن أفعل ؟

— الحق أنى لم أرد أن أزعجك ، ولكنى رأيت أن راميرز لا يستطيع أن يقوم بما أريد .

— أتريدنى على أن أعود إلى قرطبة ؟ إننى لو عدت يا مولاى لقطعونى إرْبا إرْبا .

— لا ، أنت تحسنين التنكر ، وستقيمين بدار راميرز . ثم مدّ يده إلى خِزانة بجانبه ، وأخرج منها رسالة ، وأخذ يتابع حديثه ويقول : الذى أريده أن تذهبى بهذه الرسالة إلى ابن المرتضى ، وهو مختف فى دار بأحد أرباض قرطبة يدعى «برَبَض البُرج» وراميرز يعرف مكان الدار ، وأترك لك يا روزالى اجتذابه ، فإن لحديثك سحراً لا تنفع فيه الرقى . فكتمت عائشة ابتسامة وقالت :

— وماذا كتبت له فى الرسالة يا سيدى ، إذا ساغ لى أن أسأل ؟

— ذكّرته بمجد آبائه ، وأوغرت صدره على ابن جهور ، وعرضت عليه معونتى ، وأنى لا أطلب من ورائها إلا نُصرة الحق على الظلم الصُراح ، ولكني اشترطت قبل أن أبعث جيوشى لنصرته ، أن يرسل إلىّ رسالة يطلب منى فيها المعونة .

— إنها صَكّ الاستعباد يكتبه بيده !

— لقد فهمت يا روزالى ، لو كان لبعض رجالى بعض ذكائك لنمت هادئ البال . ثم وقف مادّا يده بالرسالة إليها وقال : اذهبي الآن فقد أمرت بأن يُعدّ كل شيء لسفرك ، ولن أوصيك بشدة الحذر . فقبّلت يديه وانصرفت .

كانت عائشة قد ألفت حياة الترف والنعيم ببرغش ، واستمرأت ما غمرها به ملك الإفرنجة من صنوف البرّ ، وما أحاطها به من العطف ، حتى أصبحت بالمكان المرموق والخطر الموموق ، وحتى بلغت فى الدولة من الجاه والكلمة المطاعة والدالّة على الرؤساء ما تتوق إليه نفس كل متوثّب طَموح . نسيت عائشة فى ظل هذا النعيم ما لاقت فى ماضيها القريب من ذل ومهانة ونفى وتشريد . نسيت خروجها من قرطبة وحيدة منبوذة تعصف بها الرياح ، وتتقاذف بها الطرق فى قسوة وجفاء كأنها لعنة من السماء . نسيت ليلة الدير الذى بنى للرحمة وأقيم للإحسان فلم تجد فيه رحمة ولا إحساناً . نسيت عائشة كل هذا ، ولكنها لم تنس أمرين حفرا فى دماغها وأثرين لا يُعفّى عليهما النسيان هما : ابن زيدون وابن جهور ، أو ابن جهور وابن زيدون ، فأنها لا تستطيع أن تعقد بينهما ترتيباً ، فهما عندها سواء فيما تثور به نفسها من كراهية وحقد ورغبة فى الانتقام . ابن زيدون يجب أن يخضع لها خضوع العبد ، وأن يتزوجها وأنفه راغم ، وأن يهجر ولادة تلك المرأة اللعوب التى تخدع الناس برشاقة مصنوعة ، وغرام بالأدب زائف ، ونسب إلى الخلفاء حينما هزلت أنساب الخلفاء .

وابن جهور الرجل المرائى الماكر ، الذى وثب إلى الحكم ، بزعم أنه لايحب الحكم ، وأنه يتعفف عن الرياسة . ذلك الرجل الذى جلدها ووصمها بميسم العار ونفاها من الأرض ، كأن دولته الزائلة لم يكن بها من أسباب الاختلال إلا أن تكاتب ملك الإفرنجة امرأة مثلها لا حول لها ولا قوة !

لم تنس عائشة هذين . وحينما رأت أن الفرصة مواتية للانتقام ، حركت الحية رأسها ، ولمعت عيناها بشرر لم يكن إلا أثراً لما يضطرم به فؤادها ، وهمست تحدث نفسها : غَداً يعلم ابن جهور أن النار التى أوقدت لوصمى بالعار ستجتاح دولته . وغداً يعلم ابن زيدون أن اليد التى امتدت إليه ضارعة مستعطفة ستنقلب عاصفة تهوى به إلى الجحيم ، إلاّ إذا آثر السلامة وألقى الخطام خاضعاً ذليلا .

(١١)

لم يكن الصبح قد تبسم حينما أخذت عائشة تستعدّ لسفرها الطويل .

وهل يتبسم الصبح حقا ؟ إن كان كذلك فهو إنما يبتسم لغرور الإنسان وجهله وافتنانه فى الكيد لأخيه الإنسان . إنه يتبسم سخرية من هؤلاء الذين إذا هبّوا من نومهم ، لم يفكروا فى جمال النهار المشرق ، والزهر الضاحك ، والطير المغرّد ، والنسيم الذى يعبَث بالغصون ، ولم يصرفوا لحظة فى الاستمتاع بما وهب الله لهم من نعم ، وما أجزل من خيرات حسان . الموسيقى عندهم صخب ونقيق ، والجمال طِلاء كاذب لا يدوم ، والفضيلة أسطورة كتبها فلاسفة لا يفهمون . يهُبُّون من نومهم فى الصباح على غِلّ لازم وسادتهم ، وحقد اختلطت به أحلامهم ، وتدبير شيطانى تفتحت عنه قرائحهم بعد طول الكد و بعد التفكير . إن للحيوان الأعجم سلاحاً يذود به عن نفسه ، و يحافظ على بقائه ، فله مرة ناب ، ومرة حُمَة ، ومرة فنون فى الفرار ، ومرة دَرَقة تحميه الغوائل . وهو لا يلجأ إلى هذا السلاح إلا مدافعاً أو جائعاً . أما الكثير من بنى الإنسان فقد اتخذوا من ذكائهم سلاحاً هو أوحى سمّا من لعاب الأفعى ، وأمضى فتكا من ناب الليث ، وقد جرّدوا هذا السلاح ، وافتنّوا فيه ، ووثبوا به على الناس والحيوان

جميعاً فى حمق وجنون ، لا يريدون إلا شفاء شهوة تغلى فى الصدور .
هؤلاء يقولون : إن الحلم للذلة إذعان ، وإن الرحمة خور فى العزيمة ،
وإن التسامح جبن وخِذلان ، ويزعمون أن الكذب دهاء وكياسة ، وأن
الخداع مهارة وسياسة وأن فى نصب الحبائل ذكاء وعبقرية ، وفى بثّ
الفتن حذقاً ولقانة ، وقد يخدعون أنفسهم ، أو تخدعهم أنفسهم بأنهم بذلك
إنما يذودون عنهم الشرّ ، والشرّ بالشرّ يدفع ، أو ينالون حقهم ،
ولا ينال الحق إلا بشىء من الباطل ، أو يزاحمون فى سباق الحياة ،
فيصرعون من يقفون فى وجوههم ، فهم من أجل ذلك دائماً بين صارع
ومصروع ، وسالب ومسلوب ، وحاسد ومحسود ، وباك وشامت . لهذا
يسخَر الصبح منهم ، ولهذا تسخر الطبيعة الفاتنة منهم ، ولهذا صاح المعرى
الفيلسوف الساخط يقول :

عوى الذئبُ فاستأنست للذئب إذ عوى
وصــــوّت إنسانٌ فــكدت أطير

ولهذا قال المتنبى قبله :

ومن عرَف الأيامَ معرفتى بهـــــــا
وبالنــاس ، روّى رمحَه غيرَ راحم

أتمت عائشة عُدّتها للسفر ، وكان ينتظرها لدى الباب ثلاثة فرسان
أشداء ، وستة من جياد الخيل نخبّت الجند ، وامتطت فرساً وردا كأنه
قطعة من الشفق ، طغى به نشاطه فسخِرمن الرياح ، وكاد يسبق الظلال .

وطار الركب إلى طِيّتهم فى غبش الفجر كأنهم القضاء المحتوم ، فذعرت منهم الآكام، وثار من خلفهم الغبار رُكاما فوق رُكام ، وما زالوا يصعدون نجاداً ، و ينزلون وهاداً ، إلى أن أدركهم الليل ، فأقاموا لعائشة خيمة وربضوا حولها يتوسّدون أسلحتهم فى حذر واحتراس ، كأنهم يقظى وهم نيام . وهكذا توالت الأيام ، وتعاقب نور وظلام ، حتى بلغوا مشارف قرطبة فى أصيل يوم صائف ، فنزلت عائشة عن جوادها ، وأمرت أن تنصب لها الخيمة ، فما لبثت بها طو يلا حتى ظهرت فى زِىّ غر يب دهش له الجند ، حتى إن أحدهم دخل الخيمة ليبحث عن السيدة التى كانت معهم منذ حين .

ظهرت عائشة فى زِىّ امرأة ر يفية تحمل فوق رأسها جَرّة قديمة طال عليها الزمان ، فلما رأت ما بدا على وجوه الجند من حيرة ابتسمت وقالت :

— هكذا يجب أن يتنكر من يخاطر بحياته فى مدينة الأعداء . أترونني أحسنت التخفى حقاً ؟

فصاح كبيرهم وكان داهية فى الملق :

— لقد كدت يا مولاتى أجرد سيفى وأسألك عما صنعت بسيدتنا .

فهزّت عائشة رأسها فى حزن وقالت :

— لا . إننى لن أموت بسيف أسبانى .

— كلنا فداؤك يا سيدتى !

— باركتكم العذراء ! عودوا الآن إلى قشتالة واتركونى ، فإنى

سأخوض حرباً لا تعرفونها ، ولى من الحيل سلاح تـكلّ دونه أسلحتكم.
إننا جميعاً جنود لنصرة راية الأسبان واستعادة ما كان لها من ملك وسلطان، ولـكن أسلحتنا تختلف ، وقد ينال بالدهاء ما لا ينال بالسيف البتار .
إننى أيها الأبطال من جنود الطليعة الذين يمهّدون لـكم الطريق، ويثبطون العزائم ، ويبثّون الفتن، فإذا جئتم بعدنا فحسبكم جولة صادقة لتكون البلاد تحت أقدامكم . اذهبوا وسوف نلتقى جميعاً فى قرطبة لنصلى صلاة الظفر والانتصار .

ثم انطلقت نحو المدينة فى مِشْية متعثرة مكدودة ، شأن القَرويات اللائى آلمهن طول المشى ووعورة الطريق .

دخلت عائشة قرطبة تحمل جرّتها ، وما كادت تبلغ «حىّ المضرية» حتى رأت هَرْجا وسمعت صياحا ، وشاهدت الناس يتسابقون نحو ميدان الفتح ، كأن حادثاً جللا هالهم ، أو مشهداً رائعاً اجتذبهم ، فاقتربت من شيخ أثقلته السنون ، يتزيّا بزى العلماء ، ويرتسم على وجهه التزمّت والعبوس ، وسألته فى لهجة ريفية ساذجة :

— ماذا حدث يا مولانا ؟ فهزّ الشيخ رأسه فى حزن الساخط على الحياة وقال :

— نحن يا ابنتى فى اضطراب لا ينتهى ، وفتن لا تخمُد نارها، ففى كل يوم ثائر ، وفى كل يوم جاسوس ، وفى كل يوم لصوص يُغيرون ، أمّا المنكر والافتنان فى العبث والمجون فقد جاوز الحدّ ، وتحدّى ملائكة السماء.

ويل لقرطبة من بنيها ! ثم ويل لها من أعدائها ! إن هذا من غضب الله على الناس . وكذلك أخذ ربك إذا أخذ القرى وهى ظالمة إن أخذه أليم شديد .

فتنهدت عائشة وقالت :

— الإسلام بخير يا مولانا .

— الإسلام بخير يا فتاة ، ولكن أهله ليسوا بخير . و إنّ الله لا يغيِّر ما بقوم حتى يغيّروا ما بأنفسهم .

— ولكن ما أسباب هذا الفزع وهذه الضجة يا مولانا ؟

— هذا ابن المرتضى يا بنية ، وهو بقية من ولد الناصر ، عاد إلى قرطبة مستخفيا ، والتف حوله دعاة وأشياع يمهّدون له سبيل الخلافة، فعقد ناصيته بالثريّا ، وأصبح من طِماح همته فى جهد ، وقد اهتدى إلى مكانه جواسيس ابن جهور ، فانقض عليه صاحب المدينة بجنده وأعوانه فى داره بربض البرج ، وهو الآن يقاد إلى عميد الجماعة بالسلاسل ، أو يقاد إلى الموت بالسلاسل ،فكلاهما عندى وعنده سواء .

ذهلت عائشة لهول الخبر حتى لكأن صاعقة انقضت عليها ، أو كأن عاصفة اجترفتها وتركتها معلّقة بين الأرض والسماء . وقفت ولم تدر أين وقفت . واضطرب ميزانها فسقطت الجرة وتناثر ما بها من ماء فأفاقت من غشيتها ، ونظر إليها الشيخ فى عجب وقال مترفقا :

— ماذا أصابك يا فتاة ؟

— آلمني يا سيدى ما نحن فيه دائماً من شَغْب وانقسام .

— إن قرطبة لا ترضى عن حاكم ولا يرضى حاكم عنها ، وهذا أصل الشر ومنبِت البلاء ، و إنى لا أخشى على المسلمين من عِدو مفاجىء بقدر خشيتى عليهم من أنفسهم . اذهبي إلى قريتك يا فتاة ، وعيشى آمنة فى سِرْبك ، فلن ترى فى هذه المدينة إلا صراعاً وخصاماً .

غادرته عائشة وهى حزينة مختبَلة، تصوِّر مِشيتها ما فى نفسها من قلق، وما فى عقلها من وساوس وهموم. وكانت تهزّ رأسها واجمة وتقول : هذا أول بيت فى القصيدة ، كله رثاء وعويل و بكاء . وهـذه أول خطوة أمدّ بها رجلى فى سبيل الانتقام من أعدائى ، ليس فيها إلا تعثّر وسقوط . ألهذا قضيت شهراً كاملا فى الوصول إلى قرطبة أعانى عذاب السفر وأكابد قسوة الطريق ؟ اليوم تلتقى كفّا ابن جهور بعنق ابن المرتضى ، و ينتهى الأمر ، و يفسد التدبير كله ، و يبقى عدوى على عرشه عظيما ممّلكا و إن رغم أنفي وأنف ملك قشتالة . ياللخذلان ! ويا للخيبة ! كأنما القدر انتظر بابن المرتضى ، حتى إذا فكرنا فى اتخاذه أحبولة اختطفه من أيدينا ليتركنا ساهمين حائرين . لقد كانت الخطة محكمة ، وكان التدبير سليما ، وكانت الغاية محققة ، ولكن من ذا الذى يستطيع أن يلمح ما وراء الغيب ؟ ومن الذى فى يده أن يكفّ يد القدر ؟ ثم ابتسمت ابتسامة المفجوع وقالت : القدر ؟ هذه مُتكأة العاجزين . أفيقى يا عائشة ، إن اللوذعى إذا لم يستطع

أن يوقف القدر ، فإنه يستطيع أن يتخيل مجرى القدر ، وأن يُعدّ لكل شيء عُدّته .

ثم أخذت سمتها نحو دار راميرز ، فأنكرها أول ما رآها ، فلما عرّفته بنفسها ، وثب نحوها يعانقها فى محبة وشوق ويقول فى صوت خافت :

— كيف جازفت بنفسك يا سيدتى عائشة ؟

— اسمى روزالى .

— روزالى ؟ مرحباً بروزالى ، وهنـاء لدولة الأسبان بأمثالها . كيف خاطرت بالمجىء إلى قرطبة ياروزالى ، وأعداؤك هنا لا يحصون عدداً ؟

— إن روزالى ليس لها أعداء ، وقد ذهبت عائشة بنت غالب إلى غير رجعة ، ولن تستطيع العين الطُلَعة أن تنفذ إلى عائشة بعـد أن سترتها روزالى بحجاب من التنكّر كثيف . أسمعت بالحادث المحزن الجديد ؟ فارتاع راميرز وارتجف وقال فى تلعثم :

— أىّ حادث يا سيدتى ؟

— قبض ابن جهور على ابن المرتضى .

فقهقه راميرز وصاح :

— لقد رعبتنى يا سيدتى روزالى ، وأىّ حزن ، وأىّ أسىً فى هـذا الحادث ؟ إننى أنا الذى وشى به إلى ابن جهور ، وأنا الذى أرشده إلى مكان اختفائه . فصرخت عائشة :

— أنت أيها الجاهل الغِرّ الأحمق ! ومدّت ذراعيها إلى رقبته تريد

أن تخنقه لما انتابها من الغيظ . فتراجع خطوات فى دهشة وقال :

— ماذا بك يا سيدتى ؟ إننى أعُدّ القضاء على أبناء الخلائف من أشرف الغايات التى نعمل لها ونسعى إليها . إن الملك لن يعود إلينا ، ولن تخفِق راية الأسبان على البلاد مختالة عزيزة ، إلا إذا قضينا على هؤلاء النفر واحداً واحداً ، مرة بالكيد ، ومرة فى ميادين القتال . لقد سمعت ملك قشتالة يقول : إننا سننقُض بنيان هذه الدولة حجراً حجراً . فهل يريد إلا أن يطوى أمراءهم واحداً بعد واحد ؟

— سمعته يقول ذلك يا غبى ؟

— نعم سمعته ، وأنا ألقن الناس بما يريد .

— اجلس . قاتل الله الجهل ! وقاتل الله الغرور ! أتدرى أيها المفتون بذكائه أنك بفَعْلتك هـذه لم تهدم البناء ، ولكنك وطّدت أركانه ، وشددت أواسيه ، ليبقى أعواماً وأعواماً حصيناً ممنّعـاً ؟ فبهت راميرز وقال متخاذلاً :

— كيف يا سيدتى ؟

— كان تدبير مولاى الملك أن يظاهر ابن المرتضى على ابن جهور ، ويجلسه بقوة جنده وسلاحه على عرش قرطبة ، ثم يتخذه وسيلة لغزو الولايات الأخرى ، ويجعل منه مُطعْماً لصيد دويلات العرب واحدة تلو واحدة . وكانت رسالتى من قشتالة إلى قرطبة لإنفاذ هذه الخطة . أفهمت أيهـا العبقرى المأفون ؟ أفهمت أنك بذكائك الخارق ولوذعيتك التي

لا تُدْرَك أضعت على الأسبان جميعاً فرصة سانحة لن يجود الزمان بمثلها ؟

فاصفرّ وجه راميرز وأكثر من بلع ريقه وقال فى توسل :

— لم أكن أعرف كل هـذا يا سيدتى ، و إنما فعلت مجتهداً ما ظننت فيه الخير لدولة الأسبان ، و إنى لأخشى أن يصل خبر فَعْلتى هذه إلى مولاى الملك فأكون من الهالكين .

— لا عليك يا ابن بترو فلن يعرف الخبر إلا أنا وأنت . والمثل الأسبانى يقول : ما أضيع الحزن على زجاج تحطم . أعندك خبر عن ابن زيدون ؟

— لا يزال سجيناً يقاسى مرّ العذاب .

— ليتنى أستطيع زيارته .

— هـذا ممكن ، فكبير السجانين صديقى ، وهو يزور حانتى بين الفينة والفينة .

— نترك هذا إلى حين .

(١٢)

كان ابن زيدون لا يزال فى سجنه يقاسى ألم الوحدة وذل الإسار ، ويبكى بُعْدَه عن ولادة ، ويندب آماله التى طارت مع الرياح . قضى فى السجن أكثر من عام يخاطب الجدران ، ويناجى القضبان ، ويشكو بثّه إلى نفسه ، وينتظر الفرج فى كل لحظة ، فيخيب أمله فى كل لحظة ، ويستقبل النهار المشرق بمثل ما يستقبل به الليل العابس . وإذا أظلمت نفس المرء فماذا يفيد الضياء ؟ وسعادة الإنسان وشقاؤه من نفسه التى بين جنبيْه ، فقد تريه الأمن خوفا ، وقد تريه البؤس نعيما .

كان يوالى إرسال قصائد الاعتذار إلى ابن جهور فما أجدى ، وكان يكرّر الاستنجاد بابنه أبى الوليد فلا يجد مجيباً ، فالتجأ آخر الأمر إلى صديقه الوزير أبى حفص بن بُرْد ، وكانت له منزلة أثيرة عند ابن جهور فكتب إليه :

ما على ظنىَ باسُ   يجرح الدهر وياسو

ربما أشرف بالمــــر   ء على الآمال ياس

ولقــد يُنجيك إغفا   ل ويُرديك احتراس

ولــكم أجدَى قعود   ولــكم أكدى التماس

وكذا الدهر إذا ما عزّ ناس ذلّ ناس

يا أبا حفص ! وما سا واك فى فهم إياس

أنا حيران ، وللأمـــر ظهور والتباس

لا يكن عهدك ورداً إنّ عهدى لك آس

وأدِرْ ذِكرِىَ كأساً ما امتطت كفَّك كاس

وعسى أن يسمح الدهــــر ، فقد طال الشماس

فما كادت تصل الأبيات إلى ابن برد حتى أسرع إليه يواسيه ويروح عنه ، ويعده بأن يعيد الكرّة على ابن جهور ، وأن يُلحف فى طلب العفو عنه ، ثم طلب إليه أن يكتب إلى عميد الجماعة رسالة يصف فيها سوء حاله فى السجن ، ويعتذر من زَلّته ، ويذكّره بسالف بلائه فى خدمته ، وإخلاصه لدولته . فكتب ابن زيدون الرسالة بعد أيام ، وبعث بها مع نائلة ، وهى من روائع النثر العربىّ جاء فيها :

« يا مولاى وسيدى الذى ودادى له ، واعتمادى عليه ، واعتدادى به ، وامتدادى منه ، ومن أبقاه الله ماضىَ حدّ العزم ، وارى زند الأمل ، ثابت عهد النعمة . إن سلبتنى أعزك الله لباس نعمائك ، وعطّلتنى من حُلِىّ إيناسك ، وأظمأتنى إلى بَرود إسعافك ، ونفضت بى كفّ حياطتك ، وغضضت عنى طرف حمايتك ، بعد أن نظر الأعمى إلى تأميلى لك ، وسمع الأصمّ ثنائى عليك ، وأحسّ الجماد باستحمادى إليك ، فلا غرو قد يَغَصّ بالماء شاربه ، ويقتل الدواء المستشفى به ، ويؤتى الحَذِر من مأمنه ، وتكون

منيّة المتمنى فى أمنيته ، والحيْن قد يسبق جهد الحريص .

كلُّ المصائبِ قد تمرُّ على الفتى   وتهونُ غيرَ شماتةِ الحسّاد »

ثم يقول :

« هذا العتب محمودٌ عواقبه ، وهذه النبوة غمرة ثم تنجلى ، وهذه النكبة سحابة صيف عن قليل تقشّع . ولن يَريبُنى من سيدى أنْ أبطأ سيبه ، أو تأخر غير ضنين غَناؤه ، فأبطأ الدلاء فيضاً أملؤها ، وأثقل السحائب مشياً أحفلها ، وألذُّ الشراب ما أصاب غليلا ، ومع اليوم غد ، ولكل أجل كتاب . »

ثم يقول :

« ما هذا الذنب الذى لم يسعه عفوك ؟ والجهل الذى لم يأت من ورائه حلمك ؟ والتطاول الذي لم يستغرقه تطوّلك ؟ والتحامل الذى لم يف به احتمالك ؟ ولا أخلو من أن أكون بريئاً فأين العدل ؟ أو مسيئاً فأين الفضل ؟

إلاّ يكن ذنبٌ فعدلُك واسعٌ   أو كان لى ذنب ففضلُك أوسعُ

حنانيك قد بلغ السيل الزُّبَى ، ونالني ما حسبي به وكفى . »

ثم يقول :

وحسبُك من حادثٍ بامرئٍ   ترى حاسديه له راحمينا

فكيف ولا ذنب إلا نميمة أهداها كاشح ؟ ونبأ جاء به فاسق ؟ وهم الهمّازون المشاءون بنميم ، والواشون الذين لا يلبثون أن يصدَعوا العصا ،

والغُواة الذين لا يتركون أديماً صحيحاً . » ويقول : « وهل لبس الصباح إلا بُرْدا طرّزته بفضائلك ؟ وتقلَّدت الجوزاء إلا عقدا فصّلته بمآثرك ؟ واستملى الربيع إلا ثناء ملأته بمحاسنك ؟ وبثّ المسك إلا حديثاً أذعته فى محامدك ؟ »

ثم يقول :

« أعيذك ونفسى من أن أشيم خُلّبا ، واستمطر جَهاما ، وأكدم فى غير مكدَم ، وأشكو شكوى الجريح إلى العِقْبان والرَخَم »

ويقول :

« لعلى ألقى العصا بذَراك ، وتستقر بى النوى فى ظلك ، وأستأنف التأدب بأدبك ، حسبما أنت خليق له وأنا منك حرىٌّ به »

يصوّر ابن زيدون لعميد الجماعة فى هذه الرسالة أشتات نفسه الحائرة ، ونوازعه الثائرة ، فهو يعتذر حينا ، ويعتِب حينا ، ثم يعترف بذنبه فى ذل واستخذاء ، ويعود فيغالى بنفسه فيرفعها فى ثقة واعتداد عن دنس الإثم واقتراف الذنوب ، ثم يثور ثورة جامحة فيمنّ على العميد سابق فضله عليه ، ثم تهزّه عاطفة الشاعر ويرى أن النثر قد يعيا عن التأثير الذى يريد ، فيصحَب الرسالة بقصيدة يقول فيها :

الهوى فى طلوع تلك النجوم … والمنى فى هبوب ذاك النسيم
سرّنا عيشُنا الرقيقُ الحواشى … لو يدوم السرور للمستديم !
وَطَرٌ ما انقضى إلى أن تقضّى … زمن ، ما ذِمامـــــه بالذميم

إذ ختام الرضا المسوّغ مسك ... ومزاج الوصال من تسنيم

أيها المؤذني بظلم الليالي ... ليس يومي بواجدٍ من ظلوم

قمر الأفق إن تأملت والشمـ ... ـس ، هما يُكسفان دون النجوم

وهو الدهر ليس ينفك ينحو ... بالمصاب العظيم نحو العظيم

بوّأ الله جهوراً شرف السو ... دد في السَرْو واللُباب الصميم

واحد سلّم الجميع له الأمـ ... ـر ، فكان الخصوص وَفْقَ العموم

أيها ذا الوزير ها أنا أشكو ... والعصا بدء قرعها للحليم

أفصبرٌ مئين خمساً من الأيـ ... ـام ، ناهيك من عذاب أليم

سَقَمٌ لا أعاد فيه وفي العا ... ئد أنس يفي ببرء السقيم

بأبي أنت ا إن تشأتك بَرْداً ... وسلاما كنار إبراهيم

وتصل الرسالة والقصيدة إلى ابن جهور فلا تتركان في نفسه من الأثر إلا مايتركه دبيب النمال في الجبال ، أو مناجاة الشعر للأطلال في الأطلال.

وبقى ابن زيدون كما هو في أسره وذله حزين النفس ، واجف القلب ، بعد أن تقطعت به الأسباب ، وجفاه الصحاب . وكانت نائلة تزوره ، وكانت ولادة لا تنقطع عنه ، فبينما كانتا عنده في أحد الأيام راعهما مابدا عليه من شحوب وذبول وقنوط من الحياة ، وحنين إلى الموت . وكان يقول ويكرر : أما لهذا الليل من آخر ؟ أما آن للطائر السجين أن يرف بجناحيه في الفضاء الطليق ؟ ألم يأن للمقبور أن يبعث فيحاسب حساباً يسيراً أو عسيراً ؟ فقالت ولادة :

— لا ينطلق الطائر إلا إذا حطم القفص . فنظرت إليها نائلة فى استنكار وقالت :

— ما هذا يا ولادة ؟ إن مما يؤلم اليائس أن يُلوّح له بأمل لا يتحقق .

— ولماذا لا يتحقق ؟

— لأن هذا السجن ليس قفصاً يحطم ، ولأن حراس الطائر غلاظ شداد .

— إن من الحيلة ما يُعجز القوة . فعجِل ابن زيدون وقال :

— وأين الحيلة يا سيدتى ؟

— هيّنة يسيرة ، وطالما فكرت فيها ، وأقلقت وسادى فى تصويرها .

— وما هى ؟

— إننا نبعث إليك بالطعام فى كل يوم ، وسيكون بين ألوانه فى الغد طبق من الفالوذج خلط به عُقّار مخدّر ، فإذا حمله إليك السجان فأظهر الرضا عنه ، وكافئه بطبق الفالوذج فيلتهمه ، وعليك الباقى .

فوثب ابن زيدون نحو ولادة يقبّلها من جبينها ويصيح :

— أنت ملَك كريم ياسيدتى ! عجباً كيف غاب عنا مثل هذه الحيلة !

فالتفتت إليه نائلة وقالت :

— وإذا تمَّ خروجك من السجن سالما فاذهب إلى دار ابنة خالى ، وهى مصاقبة لدار ابن الحناط الكفيف ، فاختف عندها حتى ندبر وسيلة للفرار من قرطبة ، وسأخبرها الليلة حتى لا تدهَش للقائك ، ولا تخش



فبينما كانتا عنده فى أحد الأيام راعهما مابدا عليه من شحوب وذبول وقنوط من الحياة

(صفحة ١٩٧)

عندها شيئاً ، فهى تعيش مع خادم عجوز بلهاء ، زادتها السن خرَفا و بلاهة. و بعد أن طال الحديث فى الفرار وعواقبه ، وفى تقصّى كل ما يزيل عنه أسباب الخطر ، ودعتاه وانصرفتا .

وجاء الغد ، وجاء السجان بالعشاء ، وكان خبيثاً لئيم الطبع ، استعار قلبه صلابته من قضبان السجن وأغلاله ، فلما رآه ابن زيدون بسط له وجهه وقال :

— ألا تزال كعهدى بك عابساً يا مخلف ؟

— وما عليك من عبوسى إذا كنت منشرح الصدر مسروراً ؟ !

— لقد وطّنت نفسى على الآلام ، ورضيت السجن منزلا ، وأنزل الله علىّ سكينة غسلت همومى ، وعادت بى إلى الإيمان الحق والخضوع لأحكام القدر .

— كلهم عندنا يعودون إلى ما عدت إليه ، فهم أول الأمر ينوحون ويصخَبون ويسخطون على الأرض والسماء ، حتى إذا عركهم السجن وأذل نفوسهم ، عادوا إلى التسليم بأحكام القدر ، ورأوا أن لا بد مما ليس منه بد .

— إن النقم يا مخلف لا تخلو فى أطوائها من نعم . فليس فى تصاريف الأيام شرّ محض ولا خير خالص . أليس من محاسن السجن أن نأمن الوشاية ، وننام ملء العيون ، لا نخاف حديث نمّام ولا وقيعة كاشح ؟ أليس من محاسن السجن أن نبتعد عن الناس وما يرتكسون فيه من شرور

وآثام ؟ أليس من محاسن السجن أن ينصرف المرء إلى ربه كما ينقطع الزهاد لعبادته فى قمم الجبال ؟ أليس ... فعجل مخلف وقال :

— كفى يا سيدى ! فقد كدت تجعل من السجون جنات تجرى من تحتها الأنهار . فضحك ابن زيدون ومدّ يده إلى مائدة الطعام وهو يقول :

— أرنى ما أحضرت إلينا اليوم يا مخلف .

— إن به ألواناً يسيل لها اللعاب .

— هذا ديك مشوى ، وهذا لحم متبّل بالأفاويه ، وهذا رقاق محشوّ بالجوز ، وهذا تين ما لقىّ ، وهذا فالوذج بالفستق . ما أحبّه إلى نفسى ! ثم ابتسم وقال : ولكننى أراك تكثر من النظر إليه يا مخلف ، فخذه بارك الله لك فيه ! فليس أشهى إلىّ من أن أشهد رجلا يأكل ما أشتهى . خذه يا مخلف ومتعنى برؤيتك وأنت تأكله . إلتهمه يامخلف فلم يوضع من قبله طعام فى بطن من هو أحقّ به منك .

وما كاد يلمح مخلف فى عين ابن زيدون أنه لا يمزح حتى وضع رأسه فى الطبق ولم يرفعه إلا والطبق أجدب من كف اللئيم . ولم تمض لحظات حتى أخذ يترنّح ويغمغم بألفاظ لم تستقم حروفها ، ثم سقط على الأرض لا يعى . فهبّ ابن زيدون مسرعا ، وجرّده من ثيابه فارتداها ، وخرج من الحجرة فى زىّ مخلف وفى مثل سَمْته وعبوسه وهيئة مشيته وحركاته ، فما كان يشك شاكّ فى ظلام السجن وغبش الليل أنه هو ، واتجه نحو الباب ، فصاح به حارس الباب :

— إلى أين يا مخلف ؟ إن موعد خروجك لم يحن بعد . فنتر ابن زيدون ذراعه نحوه كالمغضب ، فقهقه الحارس وقال :

— هكذا أنت دائماً ساخط على الدنيا .

وكان ابن زيدون قد جاوزه بعيداً فعاد الاطمئنان إلى نفسه ، وسار في سرعة يخترق دروب قرطبة وأزقتها ، حتى بلغ دار حمدانة ابنة خال نائلة فطرق الباب في وجل ورعب . ففتحت العجوز الباب وصاحت مذعورة :

اللص ! اللص ! فدفعها ابن زيدون بيده في رفق ، ودخل وأغلق الباب دونه ، وقدمت حمدانة ضاحكة من بلاهة خادمها ، ولكنها حينما رأت زي ابن زيدون لعب برأسها الشك ، ولمح ابن زيدون ذلك في وجهها ، فهمس : أنا يا سيدتي ضيف نائلة . فشدّت حمدانة على يده في بشر وترحيب ، ثم جذبته إلى حجرة من الدار منعزلة أعدّت له فيها طعاماً شهياً . ودار الحديث طويلا حول قصة سجنه وما لاقى من عنت وآلام ، ثم في طريقة خلاصه وما فيها من مغامرة وإقدام . وقضى ابن زيدون ليله قلقاً ينفّس عن نفسه بالشعر ويقول :

شحطنا وما بالدار نأيٌ ولا شحط ... وشطّ بمن نهوى المزارُ وما شطوا

أأحبابَنا ألْوَتْ بحادث عهدنا ... حوادثُ لا عقدٌ عليها ولا شرط

لعَمْرُكُمُ إنّ الزمان الذي قضى ... بِشت جميع الشمل منا لمشتطّ !

ألا هل أتى الفتيانَ أن فتاهمُ ... فريسةُ من يعدو ونُهْـزَةُ من يسطو

وأن الجواد الفائت الشأو صافنٌ ... تخوّنه شَكْلٌ وأزرى به ربط
وأن الحسام العضب ثاوٍ بجفنه ... وماذُمّ من غربَيْه قَدٌّ ولا قطّ
هرمت وما للشيب وخطٌ بمفرِقى ... ولكن لشيب الهم فى كبدى وخط
أتدنو قطوف الجنتين لمعشرٍ ... وغايتىَ السدْرُ القليلُ أو الخَمْط ؟
بلغتُ المدَى إذ قصَّروا فقلوبهم ... مكامنُ أضغانٍ أساودُها رُقط
يولّوننى عُرْض الكراهة والقِلَى ... وما دأبهم إلا النفاسةُ والغَمْط
وقد وسمونى بالتى لست أهلها ... ولم يُمْنَ أمثالى بأمثالها قطّ
فررت ، فإن قالوا : الفِرارُ إرابةٌ ... فقد فرّ موسى حين همّ به القِبْط
وإنى لراج أن تعود كبدئها ... لى الشيمة الزهراء والخلق السبط

وشاع فى الصباح خبر فرار ابن زيدون ، وقام له ابن جهور وقعد ، واجتمع الوزراء والقواد لهذا الحادث الجلل ، وجمع كبير الشرطة أعوانه وأمرهم بأن ينبثوا فى المدينة وأرباضها ، وأن يطلقوا عيونهم فى كل مكان للوقوف على موضع اختفائه . ولم يكن للناس حديث فى مجالسهم وندواتهم إلا فى فرار ابن زيدون وما صحِبه من إحكام الحيلة وإجادة التدبير، وقهقه العامة كعادتهم من غفلة المشرفين على المدينة مع ما يتبجحون به من صرامة وحزم وحذر . وانتقل الخبر من فم إلى فم ، وذعر ابن عبدوس وجماعة الناقمين من ابن زيدون للحادث . ووصل النبأ إلى عائشة فتلقته فى حيرة ووجوم . أتحزن أم تسر ؟ لا تدرى . تحزن ، لأن عدوها الذى عملت على سجنه وتعذيبه أصبح حراً طليقاً ، وتسرّ ، لأن أملا خافقاً

يخدعها بأن فراره قد يمهد لها السبيل إلى لقائه ، وأن لقاءه قد يدفعه طوعاً أو كرهاً إلى الرجوع إليها و إضفاء محبته عليها . فقابلت راميرز وقالت له :

— إن ابن زيدون فرّ من سجنه . فأجابها مسرعاً :

— حسناً فعل . وهو سيكون شجاً في حلق ابن جهور . والعرب تقول : الكلابَ على البقر !

— أيّ كلاب ؟ وأيّ بقر يا راميرز ؟

— ماذا تريدين ؟

— أريد أن أعرف مكانه دون أن أقبض عليه .

— وهل تطلبين معونتى ؟

— لا . ثم ابتسمت وقالت : لا أدرى لم أحدثك فى هذا ؟ ولكنه ضعف النساء الذى ينتابنى بين الحين والحين .

ومضت أشهر على اختفاء ابن زيدون كانت فيها عائشة تفكر فى وسائل العثور على مخبئه ، وما كاد يلتمع لها قبس من الرأى حتى قصدت فى إحدى الليالى إلى دار خادمها بلال ، فلما رآها ولم يكن متوقعاً أدركه البُهْر وأخذ لسانه يتلجلج بكلمات كان منها : سيدتى عائشة ؟ . . . ماذا أرى ؟ . . . نعم . . . أهلا بسيدتى . . . كيف بلغت بك الطريق إلى دارى ؟ ألا تخافين عيون ابن جهور ؟ . . . ما كان أسعد أيامى بك و بأمك يرحمها الله ! إنها ماتت حزناً عليك يا سيدتى .

— علمت بموتها يا بلال منذ عدت إلى قرطبة : اسمع — ووضعت

فى يديه كيساً من دنانير — أريد أن أعرف مكان اختفاء ابن زيدون .

— ابن زيدون ؟ وأين نجده.وقد عجز عن العثور به الشَرَط وجميع جواسيس الدولة ؟

— اسمع يا بلال ، إنه فى المدينة من غير شك ، ولن يستطيع مغادرتها وإلا قبض عليه حراس التخوم .

— نعم فى المدينة . نعم صحيح . ثم جرؤ على الابتسام وقال : ولكن المدينة يا سيدتى ليست حجرة أو داراً أو زقاقاً أو محلة ، وإنما هى بحر زاخر بأمم من أقطار الشرق والغرب . إن الذى يبحث عن مختف فى هذه المدينة كمن يبحث عن دينار سقط فى الوادى الكبير .

— ليس الأمر كما تظن يا بلال . وقد نوفق إذا حصرنا البحث عنه فى دائرة أصدقائه .

— أصدقاؤه لا يشون بصاحبهم .

— يا بلال ، تأن قليلا، وألصق هؤلاء الأصدقاء بابن زيدون امرأتان: ولادة ونائلة الدمشقية .

— هذا صحيح يا سيدتى .

— ولا بد أن يتردد على داريهما كيفما بالغ فى الاختفاء ، وأغلب الظن أن يكثر من زيارة ولادة . فهل تستطيع أن تحسّس منه فى دارها ؟

فصاح بلال قائلا :

— أستطيع وأستطيع ! إن جاريتها عتبة لى صديق ، وهى تطمع فى أن أكون لها بعلا .

— حسن جداً . كرّر زيارتها وتلطف ولا تشعرنّ بك أحداً ، حتى تحصل منها على ما تريد دون أن تعرف من الأمر شيئاً ، وسأزورك أو ستزورك دنانيرى مضاعفة بعد أيام . ثم مدت إليه يدها واندسّت فى الظلام كأنها طيف خيال .

وسعى بلال جاهداً ليعرف مخبأ ابن زيدون ، فتردد على عتبة وأكثر من التودد إليها ، وبذل لها الوعود البرّاقة الخاتلة ، حتى بلغ منها بعض ما يريد ، ثم طفِق ينتظر وعد عائشة بزيارته ، حتى إذا كانت ليلة حالكة السواد ، مريضة النجوم ، سمع طرقاً على بابه فأسرع للقاء عائشة محتفلا فرِحاً بما سينال من أجر ، ولكنه ما كاد يفتح الباب حتى بُهِت وذعر وكاد يسقط على الأرض مما أصابه من الهول ، فإنه ما كان يظن أن يرى عبيد الله بن يزيد صاحب المدينة بين جنده وأعوانه ، وهؤلاء لا يزورون رجلا فى جنح الظلام للسؤال عن غالى صحته ، أو للتمتع بحسن حديثه .

وقف بلال مبهوراً ، وصاح به صاحب المدينة :

— أين كنت بالأمس بعد العشاء الآخرة ؟ فتلعثم بلال وأرتج عليه باب الكلام فوقف مشدوهاً .

— أين كنت بالأمس يا رجل ؟ قل ولا تُخْفِ عنى شيئاً ، فإن جواسيسى يقرءون ما فى الصدور ويعرفون ما تخفيه السرائر .

— كنت يا سيدى . . . عند عتبة . . . عند عتبة .

— جارية ولاده بنت المستكفى ؟ وماذا كنت تصنع فى دار ولادة ؟

— أزور عتبة يا سيدى .

— تزورها فى كل ليلة ؟!

— حقاً لقد أخطأت وجاوزت الحدّ . هل شكت سيدتى ولادة من زيارتى لدارها ؟ إنى سأتزوج عتبة يا سيدى ، وقد تواثقنا على الزواج ، وإذا كان أحد لا يحب أن أزورها قبل الزواج فإنى أعاهدك ألا أطرق لها باباً .

— ليس هذا ما أقصد يا رجل . ألم تقابل ولادة في إحدى زوراتك؟

— لا يا سيدى ، وأنَّى لمثلى أن يقابل مثلها ؟

— ألم تحمل منها رسالة إلى صديق أو تحضر إليها رسالة من صديق ؟

— أىُّ صديق يا سيدى ؟

— لا شأن لك بهذا يا رجل ، وإياك أن تتباله فإننا لسنا من الغفلة بحيث نصدق ما تقول !

— أقسم بالله يا سيدى إنى لا صلة لى بسيدتى ولادة، وإنى لا أعرف من أمر الرسائل التى تذكرها شيئاً .

— اعلم يا رجل أنك إذا خطوت مرة أخرى نحو دار ولادة كان دمك جُبارا .

— عَهْدُ الله يا سيدى ألا يرانى أحد من رجالك مارًّا بدارها !

فأطال إليه صاحب المدينة النظر فى شك وتردد ، و بين تصديق وتكذيب ، ثم انصرف . و بقى بلال خافق القلب مرتعد الأوصال ، يلعن الشرطة ورجالها ، واللحظة التى زارته فيها عائشة فنصبته هدفا للشكوك ، وجعلت داره مغدّى ومَراحا لأعوان السلطان كلما حلا لهم أن يخلعوا قلبه من مكانه .

لم تمسّ يده فى هذه الليلة طعاما ، وأخذ يبسط فراشه فى تكاسل ورعب ، وهو على يقين من أن النوم لن يطرق له جفنا . و بينما هو يتقلّب على الفراش ، والوهم يرسُمُ له من التهاويل ما يزلزل فؤاد الشجاع ، إذا طرق خفيف على الباب فأنصت مستعيذاً بالله من الشيطان الرجيم ، ومن شرّ رجال الشرطة ، وقام وهو يقول لنفسه : عادوا ثانية للقبض علىّ و إلقائى فى غيابات السجون ، لأنى رأيت فى عين كبيرهم أنه فى شك من أمرى ، ولن أملك إلا التسليم ، فإن ظلم هؤلاء ليس له من مردّ .

وفتح الباب فإذا عائشة بوجهها المؤتلق ، وثغرها الباسم ، تحيِّيه ، وتمدّ إليه يدا كانت فى يده الجافية السوداء كقطعة من الزُبد فى جَفْنة من القار . همس بلال قائلا والرعب لم يفارقه :

— أهلا بسيدتى عائشة ! هل قابلت صاحب المدينة بالطريق ؟

— من صاحب المدينة ؟ أنت تحلُم يا بلال .

— لا ياسيدتى . إنى يقظان ، هذه يدى أهزّها ، وهذا جسمى لا أزال أراه مرتعدا .

— ماذا بك يا بلال ؟

— الذى بى ياسيدتى أن صاحب المدينة زارنى منذ ساعة .

— وهل هذا كل ما يهولك ؟ إن صاحب المدينة لا يزور الناس دائما ليقتلهم ، وقد يكون من متممات بحثه أن يهتدى بسؤال هذا أو ذاك .

— إن نظراته مخيفة يا سيدتى ، وإنى لا أحب مقابلة أحد من هؤلاء ولو سألنى عن الطر ق .

— هوّن عليك يا بلال . عم سألك ؟

— سألنى عن أسباب ترددى على دار سيدتى ولادة .

— آه فهمت . إنهم يرقُبون دارها لعلهم يصلون إلى موطن اختفاء ابن زيدون : وهم يسلكون الطريق التى أسلكها ، ولكنى سأبلغ الغاية قبلهم . ماذا وراءك من أخبار عتبة ؟

ولمح بلال أنها تحمل فى يدها كيسين فأطال النظر إليهما وقال :

— من أخبار عتبة ؟

— نعم يا بلال من أخبار عتبة . وألقت فى يده الكيسين فسمع لهما وسوسة ورنينا طار لهما لبه فقال :

— علمت من عتبة أن الوزير أبا حفص بن برد يزور ولادة فى كل خميس بعد الهزيع الأول من الليل ومعه رجل ملثّم ، وأنهم يختلون فى غرفة بعيدة عن الخدم ، وأن الرجلين ينصرفان قبل انبثاق الفجر .

— حسن يا بلال ، ثم أسرعت وقالت :

— وماذا فعلت بعد ذلك يا بلال ؟

— كنت وراء جدار ، حتى إذا غادر الرجلان الدار تبعتهما من بعيد في حيطة وحذر ، فلما فصل ابن برد ليذهب إلى داره واصل الرجل الملثم السير حتى بلغ خِطّة جند الشام فدخل داراً تقرب من مسجد الشهداء .

— مرحَى يا بلال ! لقد عثرنا على الدينار الضائع فى الوادى الكبير . إن الرجل الملثم هو ابن زيدون من غير شك ، وسينالك منى أضعاف ما نالك من مال عند ما أقتنص هذا الطائر النفور . عم مساء يا بلال . ثم انفلتت نحو الباب مرحة جذلَى ، كأنما سيقت إليها الدنيا بحذافيرها .

وجاء الصباح ، وانقضى النهار وأقبل الليل ، ومرّت منه زُلَف ، وكانت عائشة فى هذا الحين تسير و بلال خلفها نحو خِطّة الشام ، بين خوف وتوجس و يأس وأمل ، حتى إذا بلغت دار حمدانة مالت نحوه وقالت :

— قف خلف هذا الجدار يا بلال ، وسأدخل الدار فأمكث بها قليلا أو كثيراً ، فإذا سمعتنى أهتف باسمك فادع رجال الشرطة ، وناد بأعلى صوتك بأن ابن زيدون مختف بهذه الدار .

ثم طرقت الباب ففتحت لها العجوز مرتاعة ، ووثبت عائشة إلى فناء الدار وقالت :

أريد لقاء السيد الذى يقيم عندكم .

وتنبهت حمدانة من نومها فذهبت لتستجلى الخبر ، واستيقظ ابن زيدون على أصوات مختلطة فيها غضب ، وفيها استنكار وفيها سخرية ، ففتح باب

حجرته قليلا ، ولحقته عائشة فصاحت به :

قضى الأمر يا أبا الوليد ، و بلغ الكتاب أجله ، وأُخذت الطرق على الفريسة ، ووقع البلبل الغرّيد فى الفخ ، وليس لك إلا أن تلقى السلاح عاجزاً مستنيباً . ثم وثبت نحو حجرته فدخلتها وأغلقت الباب ، وقالت فى هدوء كأن الموقف وماحوله من أحداث وخطوب لم يترك فى أعصابها أثرا:

— اجلس يا أبا الوليد ، فإننا قد نتحدث طويلا ، وقد تحتاج إلى كل ما منحك الله من عقل وحكمة وصدق أناة ، لتخرج من هذا الأمر الجلل كريما سليما دون أن يصيبك من أوضاره رشاش ، أو يمسك خطر . أنصت إلىّ أبا الوليد ، فقد كنت منذ أزمان تحنّ إلى حديثى ، وترتاح إلى أنغام صوتى ، كنت فى ذلك الحين شابا مكتمل الرجولة ، وافر العقل ، سديد الرأى ، لم تلعب بفؤادك الحسان ، ولم يخدعك الطلاء الكاذب ، والجمال المصنوع ، والكلام المتكسر المصوغ ، ولم تقتنصك الحبائل المدفونة فى التراب ، ولم تلعب بك الآمال المضِلّة التى أسخطتك على حياتك الهادئة الناعمة ، لتدفعك إلى حياة موهومة فيها مناصب ، وفيها جاه وصولة ، وفيها عز وسلطان ، والتى لم تفتأ أن أردتك فى الهاوية ، وأوردتك ظلمات السجون .

كنت تحبنى يا أبا الوليد ، وتريد أن تكون لى بعلا ، وكنت ولا أزال بك مفتونة ، و بحبك ضنينة ، وعليك غيوراً ، وكنا نعيش فى دوحة هذا الحب طائرين غردين ، تنبسط أمامهما الحياة بحدائقها الغُلْب ، ومروجها الخضر ، وأزهارها الباسمات ، وأنهارها الجاريات ، لتصوِّر ما فى نفسيهما

من قناعة ورضا ولذة ونعيم ، ولـكن بومة شريرة تزيت بزِىّ الطاووس ، وتصنعت صوت العندليب، حامت حول عشنا يوما ، فأفسدت كل شىء ، وجرّتك بخيط كاذب من الأمل، ولون خدّاع من الجمال إلى تدمير سعادتك وهلاك نفسك .

أنصت إلىّ يا أبا الوليد ، إنى لن أسلوك إذا سلوتنى ، ولن أهجرك إذا هجرتنى ، وسأعمل وأعمل حتى نصبح زوجين سعيدين ، فلا تظن أنك تستطيع الخلاص من يدى . إنك لى . و إننى لك . وليس فى الأرض من قوة تحول بينى و بينك . و إذا حاول الموت أن يفرّقنا فسأموت معك ، وسأرى فى الموت هناء وراحة .

أنصت إلىّ يا أبا الوليد وكن عاقلا ، لقد جرّبت الناس والأيام ، فهل رأيت أوفى منى عهداً ، أو أصدق حبّا ؟ نعم إنى كدت لك عند ابن جهور، وطوّحت بك فى غيابة السجن ، ولـكنى أقسم إنى فعلت ما فعلت وأنت أعزّ الناس علىّ، وأحبّهم إلى نفسى . إن الحب مجنون يا أبا الوليد ، و إذا اشتد لم يعرف ماذا يأتى وماذا يدع ، والغيرة نار مشتعلة الأوار تلتهم كل شىء . ألم تسمع بذلك الشاعر المشرقى الذى قتل حبيبته لولهه بها وشدة غيرته عليها من أن تنالها عين ناظر ، أو يصل إلى أذنها حديث عاشق .

كنت أحبك يا أبا الوليد حبّا عاصفاً ، وكنت أغار عليك فى الصباح من الضياء ، وفى المساء من الظلام ، فاعذرنى يا أبا الوليد واغفر لى .

كان الغيظ يحتدم فى صدر ابن زيدون، والخوف من العودة إلى السجن

يزيده ارتباكا ، وكانت لتلك المفاجأة صرعة بددت نفسه وأطارت صوابه فقال فى صوت أجشّ حزين :

— أما الغفران فقد غفرت لك ، ولن أحمل لك فى نفسى ضِغْنا أو حفيظة ، وإذا كان لنا صلة وداد فى الماضى فإنى سأحرص على ذكراها ، ولكن الأحوال تتبدل والقلب يتقلّب و

لا يلبَث القرناء أن يتفرقوا ليلٌ يكرُّ عليهمُ ونهار

وخير لنا يا سيدتى وقد طار من بيننا الحب ، أن نضع مكانه صداقة نقية كريمة ، هى بنا أليق ، وبذكرياتنا القديمة أجدر .

— إن حبّنا لم يطر يا أحمد .

— قولى ما شئت يا سيدتى .

— لا تقل « يا سيدتى » قلْ « يا عائشة » .

— قولى ما شئت يا عائشة ، فإن قلبي إذا انصرف عن شىء عجز أهل الأرض عن إكراهه عليه .

— دعه لى يا أحمد وأنا أعرف كيف أروضه ، وكيف أعيده إلى سالف عهده ، دعه لى يا أحمد ، وهلمّ بنا نفِرّ من هذا البلد المشئوم لنعيش فى أى بلد آخر زوجين سعيدين .

— إن قلبي ليس بين جنبيّ .

— آه إنه عند ولادة أيها الأحمق ! لقد كنت أريد لك الخير كله ، كنت أريد أن أنقذك من ابن جهور ، وكنت أريد أن أنقذك من ولاده ،

ولكنك كالفراشة الخرقاء تسقط على النار فلا تفارقها حتى تحترق . إن صيحة منى الآن تجمع عليك العسس ورجال الشرطة ، وتزجّ بك فى ظلمات السجون . قلها كلمة واحدة أتريد أن تكون لى زوجا ؟

— لا .

— فصاحت عائشة : يا بلال ! وما كاد بلال يسمع نداءها حتى صرخ بأعلى صوته : اقبضوا على ابن زيدون ! اقبضوا على ابن زيدن ! وسمع أعوان الوالى صوته فاندفعوا نحو الدار فى لغط وصياح ، وأقبل الناس ليقفوا على جليّة الأمر ، وقال أحد الجنود : أين ابن زيدون ؟ فأشار بلال إلى دار حمدانة ، وتكاثر الجند على الباب فخلعوه ، واندفعوا فى فناء الدار كأنهم الأتىّ الجارف ، وتسلّلت عائشة من الباب ، واندسّت بين الجمع المحتشد تبحث عن بلال لتبادر معه الفرار . وما كاد الجند يقبضون على ابن زيدون حتى سمعوا نداء من مئذنة مسجد الشهداء ، فتسمّعوا فإذا المؤذن يقول :

سلام على الإسلام بعد ابن جهور ! سلام على الحق والعدل بعد ابن جهور ! سلام على الجهاد فى سبيل الله بعد ابن جهور ! أيها المسلمون مات ابن جهور وصعِدت روحه الطاهرة إلى بارئها الساعة راضية مرضية . أيها القرطبيون ! مات خادم الدين ، وحامى المسلمين ، فترحموا على تلك النفس الزكية ، واضرعوا إلى الله أن يُنزلها عنده فى جنات النعيم . أيها القرطبيون ! مات ابن جهور وخلفه ابنه أبو الوليد محمد ، وهو من تعرفون حزمه وعزمه ودينه وغيرته على الإسلام ، فادعوا له بالعز والتوفيق .

وما كاد ابن زيدون يسمع الدعاء حتى صاح بالجند : أدركوا المرأة الاسبانية ، أدركوا جاسوسة الإفرنجة . ثم جذب رئيسهم من ذراعه ، وأشار بيده إلى المرأة وكانت قد ابتعدت عن الدار ، فكرّ نحوها الجنود ، وقبضوا عليهم ، ثم اتجه ابن زيدون إلى رئيس الجند وقال :

— والآن تستطيع أن تشدّ وثاقى إذا أردت .

فقال الجندى متهكما :

— وإذا لم أرد ؟

— كان ذلك خيراً لك وأدعى إلى مكافأتك .

— كيف ؟

— لأنى كنت طريد ابن جهور ، وهو قد لاقى ربه كما سمعت من نداء المؤذن . أما خليفته أبو الوليد فأحبُّ الناس لى ، وأعطفهم علىّ ، وقد بذل جهد طاقته لتخليصى من السجن أيام أبيه فلم يستطع .

— عذراً يا سيدى فإنى لا أعرف ذلك ، ولكنى أمام شخص يقال إنه فرّ من سجنه ، ولا أملك إلا أن أذهب به إلى صاحب المدينة ليرى فيه رأيه .

— افعل ما شئت أيها الجندى الشجاع ، ولكن احذر من أن تُفلت من يدك هذه المرأة ، فإنها أضرّ على الدولة من جميع الأسبان فى الشمال . ثم انطلقوا جميعاً إلى دار عميد الجماعة الجديد .

وكان ابن زيدون وهو فى الطريق يغمغم بأبيات من الشعر ازدحمت

بصدره تطلب متنفساً، فلما مثل أمام أبى الوليد بن جهور، قام له وأخذ يعانقه مداولا بين الترحيب والاعتذار له عما ناله من ضر أيام أبيه ، ثم شدّ على يديه وهو يقول : لقد عفا عنك أبى قبل موته ، دخلت عليه فى مرضته فأحسنت فيك القول ، وذكرت ما أصابك من ضعف النفس والجسد ، وألححت عليه فى ألاّ يجعل إهدار حياتك آخر ما يتقدم به إلى ربه . فقال فى صوت خافت : إن ابن زيدون كوكب الأندلس ، والكواكب لا تطفأ بالأفواه ، وقد تمرّ السحب فتحجب من ضيائها ، ثم تنقشع . فأسرعت أقول : أعفوت عنه يا أبى ؟ فهزّ رأسه فيما يشبه الرضا وقال : ومن أنا يا ولدى حتى أعفو عنه ؟ الله يعفو عنه ويعفو عنا جميعاً . ولم أرد أن أثقل عليه بعد أن عرفت حسن رأيه فيك ، ورجوت أن يُبلّ من مرضه بعد أيام ، وأن يطلق سراحك بنفسه ، ولكن المنية فاجأتنا فيه يا أبا الوليد .

فاتجه ابن زيدون إلى السماء يستمطر الرحمات على الكريم الراحل ، ويعتذر عنه بأنه لم يعمل إلا ما كان يراه حقاً وصواباً ، وبأنه أنصت إلى الوشاة فزينوا له الباطل ، وأدخلوا عليه من زخارف القول ما لم يستطع له تكذيبا . ثم هنأ الحاكم الجديد ودعا له بالتوفيق والسداد ، ومدّ يده فأخرج من كمه رقعة ثم أنشد :

ألم تر أن الشمس قد ضمها القبر
وأنْ قد كفانا فقدَنا القمرَ البدرُ



وما كاد الجند يقبضون على ابن زيدون حتى سمعوا نداء من مئذنة مسجد الشهداء

(صفحة ٢١٤)

وأن الحيا إن كان أقلع صَوْبُه
فقد فاض للآمال فى إثره البحر
إساءةُ دهرٍ أحسن الفعلَ بعدها
وذنبُ زمانٍ جاء يتبعه العذر
فلا يتهنَّ الكاشحون فما دجَى
لنا الليـــلُ إلاّ ريثما طلع الفجر
وإن يك ولَّى جهورٌ فمحمدٌ
خليفتُه العـدلُ الرضا وابنُه البَرّ
عزاء فدتك النفس عنه فإن ثوَى
فإنك لا الوانى ولا الضَرِع الغُمْر
لك الخيرُ إنى واثقٌ بك شاكرٌ
لمْسَنى أياديك التى كفرُها الكفر
فصدِّق ظنوناً لى وفىّ فإننى
لأهلُ اليدِ البيضاءِ منك ولا فخر
ومن يك للدنيـــــا وللوفر سعيُه
فتقريبُك الدنيا وإقبالك الوفر

فطرب أبو الوليد للمديح ، وقام فأجلس الشاعر إلى جانبه ، وبذل له من صنوف التكريم ما ملأ نفسه ثقة وسروراً .

وهنا اتجه ابن زيدون نحو عائشة وقال :

— هذه — يامولاى — عائشة بنت غالب جاسوسة ملك الأسبان التى وصمها أبوك بالنار ونفاها إلى الشمال ، عادت اليوم إلى قرطبة لتتجسّس للأسبان ، ولتبثّ الفتنة فى صفوف المسلمين .

فاتجه أبو الوليد إليها وقال غاضباً :

— متى وصلت إلى قرطبة أيتها المرأة ؟

— منذ شهور .

— ولم جئت ؟

— لا أدرى .

— ومن الذى ينفق عليك ؟

— أهل الخير والإحسان .

فغضب أبو الوليد ودعا عبيد الله بن يزيد صاحب المدينة وقال :

— اسجن هذه المرأة فى المكان الذى كان يسجن فيه أبو الوليد بن زيدون جزاء وفاقاً لـكل ما اقترفت من إثم وخيانة .

وابتسم ابن زيدون لصاحب المدينة وهمس فى أذنه :

قل لخلف السجان أن يحذر هذه المرأة فإنها عظيمة الدهاء ، لها فى الختل أفانين لم يهتد لمثلها إبليس اللعين ، وقل له إن ابن زيدون يقرئك السلام ويوصيك أن تبتعد عن أكل الفالوذج ولو خلط بفستق من الجنة !

(١٣)

كان لقاء ابن زيدون لولادة فى فضاء الحرية و بعد انقشاع الهموم لقاء الطائر يعود إلى إلفه بعد أن ظلّ طويلا يتخبَّطه الفخ ، و يعضّ حديده جناحه .أو لقاء الصبح الباسم بالأمل ، لدنِف طال به ليل الشكوك ، وأقضّت فراشه الآلام . كان لقاء اضطربت فيه العواطف ،واختلطت طرائق التعبير، ففيه ضحك ، وفيه بكاء ، وفيه لذة ، وفيه ألم، وفيه رضا ، وفيه سخط . والعاطفة إذا قويت جاوزت حدّها ، فانقلبت إلى ضدها . وللنفوس لغة مألوفة فى إظهار ما يجيش بها، ولكنها إذا تملكتها عاطفة شديدة عاتية نبذت لغتها زاعمة أنها لا تفى ببثّ ما فيها ، ولجأت إلى النقيض ، فبكت للسرور ، وضحكت عند ازدحام المصائب . وربما كان من أسباب اختلاج العواطف أن النفس تذكر عند السرور ما مرّ بها من أحزان ، وعند اللذة ما عانته من ألم ، فتهمّ أن تعبِّر عن العاطفتين فى آن ، فتتغلَّب أقواهما أثراً ، وأكثرهما عن النفس تفريجاً .

كان لقاء عجيباً لو حاول القلم وصفه لعجز القلم . نعم إنهما كانا يلتقيان ، ولم يغلق باب السجن يوما فى وجه ولادة ، ولكن لقاء السجون خير منه الافتراق. لقاء أوله أسف ، وآخره ألم . لقاء تحيط به القضبان ، وتطل عليه

أعين الجواسيس . إنه فى الحق لم يكن لقاء ولـكنه كان إثارة للأشجان ، وتنبيهاً لراقد الهموم .

تـكلم الشوق فى هذا اللقاء صامتاً فأطال وأسهب ، وطافت الذكريات عزيزة محبوبة رائعة الألوان ذهبية الحواشي ، ولمعت الأمال برّاقة فتفتحت لها النفوس ، وانبسطت الوجوه ، ثم أخذ ابن زيدون يصف حفاوة أبى الوليد بن جهور به ، واحتفاظه بمودته . وإلحاحه عليه فى أن يبقى فى خدمته عزيز الجانب ملحوظ المكانة . فأطرقت ولادة كالمفكرة ، وقالت :

كل هذا حسن يا أحمد . ولـكن احذره فإن الولد صورة من الوالد . وأبو الوليد ورث أباه فى كل شىء . وزاده عنفوان الشباب غرورا لم يكن بين صفات أبيه . إن أعداءك لم يناموا عنك طرفة عين يا أبا الوليد ، وكأنى بابن عبدوس وابن المـكرى يجمعان اليوم رأسيهما فى دسيسة تعود بك إلى السجن . أو تلقى بك فى مهاوى الحتوف ، فليس من الهين عليهما أن تبعث من القبر المظلم الذى قذفاك فيه سليما ناشطاً ، تنفض عن أثوابك التراب فى مرح وغبطة . وليس من الهين عليهما أن يرياك وقد عدت الى مكانتك عند الأمير تأمر وتنهى ، وتقاد إليك النجائب ، وتسير بك المواكب . وليس من الهين عليهما أن تتألّق عبقريتك بدار الحكم فيفضح ضوؤها تلك القناديل المريضة ، والسرج الخافتة . ثم ابتسمت فى استحياء وقالت : ثم إنه ليس من الهين عليهما أن ينتصر الحبّ على الدسائس ، وأن يجمع الله شتيتين لم يكن لهما فى الحياة

من مأرب إلا أن يفرّقاهما . لقد انتهينا من عائشة بنت غالب ، وطواها السجن كما يطوى الخضم أشلاء الغريق ، وكانت خصما لدوداً ، وعدواً مثابراً ، وكان لها من الدهاء ما لا تنفع معه الرقى ، ولا يفيد الحذر ، ولكن لا يزال لك بين جنبات قرطبة أعداء وحساد لا يقلون عن عائشة مكراً ومِحالا . ولقد كنت فيما مضى يا أبا الوليد جريئاً غير هياب ، سريعا إلى الثقة بمن حولك ، قليل الاعتداد بما يكون وراء الكلام من عواقب ، فكبا بك الجواد دون الشوط ، ووقفت بك العجلة إلى المجد دون الغاية ، وهوت بك النمائم إلى هاوية بعيدة القرار ، وأريدك اليوم أن تكون أشدّ حذراً ، وأكثر صمتا ، وأبعد عن قرناء السوء ، وأقوى على الأيام تجربة ومراسا .

إن الفتن فى قرطبة فى تأجج واضطرام، فدعنا نكن حولها من المشاهدين دون أن نكون لها حطبا ، وإذا كان لك رأى فيما يجب أن يكون عليه الحكم فبالله عليك دعه الآن ، وهلمّ بنا إلى حياة هادئة حلوة المجتنَى ، يرِفّ فوقها جناحان من أمن وسكينة . فنظر إليها ابن زيدون نظرة ساهمة حزينة وقال :

ومن الذى يراك يا سيدتى ولا يختطفك ليفرّ بك إلى قمة جبل بعيد عن دسائس البشر ونمائمهم ؟ إن للعيش فى ظلالك معنى ليس فى جنات النعيم، ولكن ماذا أفعل يا سيدتى فى نفس جموح طموح لا يلين لها زمام ، ولا تذِلّ لقائد ؟ لقد خلقت للمجد ولعظائم الأمور ، فإذا ثارت نفسى

إلى مطلب ركبت إليه أسنّة الرماح ، ولم أبال بما يملأ طريقى من أشراك وحبائل ، وسخرت من الكاشحين ، وغبّرت فى وجوه الحاسدين ، و إن شيئاً واحداً هو الذى يغضّ من جماحى ، ويخفف من غلوائى . أتعرفين ما هو ؟ فابتسمت ولادة وقالت :

— أعرف . و إنى أستحلفك بحق هذا الحب أن تطامن من نفسك قليلا ، وأن تتركنا نعيش فى سلامة وهدوء بال زوجين سعيدين . اهجر هذه المطامح البعيدة أبا الوليد التى ستوردنا موارد التلف .

— إلاّ مطمحى الأسمى ، فإنى سأعمل له أو أموت دونه ، ولن أستحق أن أكون بعلا لأكرم نساء قرطبة إلا إذا ظفرت به يدى .

— أى مطمح ؟

— أن أعيد الدولة العربية بالأندلس إلى سالف مجدها أيام عبد الرحمن الداخل والناصر والمنصور بن أبى عامر . يجب أن يتحد العرب ، ويجب أن تجمعهم عروة لا تنفصم ، ويجب أن تتجمع دويلات الأندلس فى دولة عربية موحّدة يخفق فوقها علم واحد يصور وحدة الكلمة ، ووحدة القوة ، ووحدة الغاية . فلقد قالوا قديماً ، وكان قولهم حقا : إنما يأكل الذئب من الغنم القاصية . أتعرفين يا سيدتى أننا لم ينفعنا إلا تفرّق كلمة ملوك الإفرنجة ، وهم ولله الحمد على نعمائه دائماً فى شجار وشقاق وتنافس ، ولو لا ذلك ما كنت بجانبك اليوم فى مدينة قرطبة ، وربما كنا نكون تائهين فى صحراء مراكش ، نحسد رعاة الإبل على ما منحهم الله من دار ووطن .

ولكن عراك الإفرنجة لن يطول ، وسوف يدفعهم حب الغلب ، ويحفزهم طلب الثأر إلى توحيد الكلمة ونسيان الأحقاد والوثوب على العرب من كل مكان ، فإذا لم نأخذ الأهبة للهجمة الكبرى ، ونعدّ العُدة للداهية العظمى ، ذهب كل شيء من أيدينا . فتنهدت ولادة وقالت : لن تجد اليوم من أبناء الخلائف من أمية من يعيد لك أيام الناصر ، ولن تجد بين الأمراء من يعيد لك أيام الناصر ، وهذا الأمر لا يصلح إلا بما صلح به أوله ، ذلك بأن ينبع من أرض الأندلس رجل له عزيمة عبد الرحمن الداخل وصرامته وعبقريته ، فيجمع الأواصر ، ويوحّد الكلمة ، ويستميل القلوب ، ويردّ الدعاة المتهافتين على الحكم إلى أجحارهم . ولكن أين هذا الرجل الآن يا أبا الوليد بعد أن أقفرت الأندلس من الرجال ؟ فأطرق ابن زيدون طويلا ثم رفع رأسه وقال :

— بعد أن مات ابن المرتضى فليس لى أمل إلا فى رجل واحد ، ولكنه أمل ضعيف خائر .

— من هو ؟

— إنى أنظر إلى أشبيلية .

— إلى بنى عباد ؟

— ربما .

— إنهم طبل أجوف .

— ولكنهم خير الشر .

— أفى الشر خيار ؟

— نعم إذا أجدب الزمان ، وقلّت الأعوان . وبينما هما فى الحديث إذ دخلت نائلة فقبّلت ابن زيدون فى جبينه فعل الأم الرءوم ، وانطلقت على طريقتها فى سيل من الحديث لم يترك كلمة لقائل . ثم صاحت :

— أسمعتما بالنبأ العجيب ؟ فقالت ولادة :

— هاتى يا جهينة الأخبار هاتى .

— لقد ولّى أبو الوليد بن جهور صفيّة وخليله ابن السقاء الإشراف على شئون الدولة ، وجمع فى يديه كل أزمّة المملكة ، يصرفها كيف شاء .

فصاح ابن زيدون :

— هذا أول البلاء ونذير الزوال ، إن ابن السقاء رجل واسع مدى العقل ، كبير الآمال ، ولكن كبار العقول بعيدى الآمال كثيراً ما يكونون خطراً على الدولة . إنه رجل متسلق هجّام بعيد الحيلة ، لا يتعفف عن جريمة إذا كان يصل بها إلى غايته . إنه يقطع اليد التى امتدت لمعونته بعد أن ينال منها مأربا . فقالت نائلة :

— لا تبالغ يا أبا الوليد .

— ستعلمين نبأه بعد حين .

— إنه أرسله اليوم للسفارة بينه و بين ابن عباد .

— ثعلب يلتقى بذئب !

— ومن الفريسة ؟

— قرطبة المسكينة .

— لا تكن متطيّرا ، فالدنيا لا تزال بخير . ثم هرولت إلى الباب وهى تتجه نحو ولادة وتقول : الدنيا بخير ما دام فيها حبّ وأمل .

وعاش ابن زيدون فى كنف أبى الوليد بن جهور أول الأمر هانئاً سعيداً ، وعاد إليه ما كان من نفوذ وعلو مكانة ، وكان يجمعهما المساء فى ندوة ولادة بين أخدان من الشعراء والأدباء ، فيطوون الليل بين سمر وطرب وفكاهة .

وترامت الأيام ، وكرّت الليالى ، وأخذ شغف ابن جهور بابن زيدون يهدأ قليلا و يعدو عليه السأم و يصيبه الملال . واستمرّ أعداء ابن زيدون يرسلون الأخلوقة إثر الأخلوقة ، والنمّة وراء النمّة ، وكانوا من اللباقة فى الكذب والبراعة فى الدسّ بحيث ينقلون الخُطا فيما همّوا به من الفساد وئيدة وئيدة ، حتى لا يشعر من يسعون عنده بأنهم يتغفّلونه أو يستغلون ثقته .

بعث ابن جهور ابن زيدون للسفارة بينه و بين إدريس الحسنى بمالقه ، فأحتفى به الحسنى مقدّراً عظيم منزلته ورفيع أدبه ، وأنزله خير منزل ، وأجزل له الصلات ، وأجرى عليه من الخدمة ما لم يجره قبله على عظيم . ثم أنس بمجلسه ، وشغف بالاستماع إلى أدبه ، وفتن بروائع أخباره و بدائع نوادره ، وألحّ فى أن يطيل ثواءه عنده ، وتمنّى لو جعل مالقة دار إقامته ، واختار من مناصبها أعلاها قدراً وأبعدها نفوذا ، فقالت

نفس ابن زيدون إليه ، وهفت إلى كريم وعوده ، وذكر أعداءه بقرطبة ، وذكر دالّة ابن جهور عليه ، وذكر أنه يعيش فى كنفه كما يعيش راكب البحر ، لا يفتأ فى خوف وحذر وإن سكنت الريح وصحّت السماء . ولكنه ذكر أيضاً ولادة ، وذكر أن العيش بدونها لا يطيب ، فنفض عنه الرغبة فى البقاء ، ورأى أن قرطبة جنة نعيمة وإن حُفّت بالنار من كل جانب .

ولما طالت إقامته بمالقه دخل ابن عبدوس وابن المكرى على ابن جهور ذات صباح ، فقال ابن عبدوس :

— هل وصل إلى سمع مولاى أن ابن زيدون عزم آخر الأمر على الإقامة بمالقة ؟

— لا . وكيف يتاح لوزير فى دولة أن يكون في خدمة دولة أخرى تنافسها وتضمر لها العداء ؟ فقال ابن المكرى :

— إنه يا مولاى قد يُسدى إلى قرطبة من الخدم وهو بمالقة ما لا يستطيعه هنا .

— إن القائد الحذِر لا يبتعد عن ميدانه . ولقد سقطت علينا أخبار من مالقة تدل على أن الرجل ألقى زمامه للحسنى يصرفه كيف يشاء . فقال ابن عبدوس :

— علمت أنه يعمل معه على إعادة قرطبة لبنى الحسن بن على .

فظهر الغضب على وجه ابن جهور وقال :

— لا يا أبا عامر إنه لن يتدلّى إلى هذا الدرك ، ولن يستطيع أعدي

أعدائه أن يقول إنه يفرّط مثقال خردلة فى وطنه الذى يفديه بروحه . إن ابن زيدون إذا جرُّد من كل صفة من صفات الرجولة والكرامة ، فلن يستطيع أحد أن يرميه بخيانة وطنه . ثم إنه لا يجهل ما أصاب قرطبة على أيدى الحسنيّين من كوارث وفتن حاطمة ، ولن ينسى أهل قرطبة تلك السنين السبع الشداد التى دمّر فيها الحسنيون قصور الزهراء ، وفتكوا بالناس ، ونهبوا كل شىء ، وسلطوا البربر فانبسطوا فى قرطبة يقتلون ويأسرون ، إلى أن أنقذ أبى البلاد من شرهم ، وردّ الأمر إلى بنى أمية . لا يا ابن عبدوس ، إن أبا الوليد لا يبيع بلاده لأحد ، فكيف يبيعها لهؤلاء المرَدة الطغاة ؟

فقال ابن المكرى :

— كنت أعتقد كل هذا يا سيدى ، ولكن الأخبار التى تحملها إلينا ريح مالقة زلزلت يقيني ، ووضعت مكانه حيرة وشكوكا . وإنى أرى أن يتحصن مولاى بسوء الظن ، فإنه أسلم عاقبة وأدنى إلى الحيطة والحذر .

— أىُّ حيطة وأىُّ حذر ؟ إن الرجل من هذه الناحية فوق مطار الظنون . فأسرع ابن عبدوس وقال مبتسما :

— إن القلوب تتقلب يا سيدى ، والطموح والآمال الكاذبة قد تعصف بالمرء فتخدعه عن نفسه ، وتزعم له أن الخير لا ينال إلا بالشر ، وأن الحق لا يمشى إلا على قدمين من الباطل ، وإلا فلماذا كلما قابلت ابن ذكوان أو ثابتا الغافقى أو عمارا الباجى ، وهؤلاء حملة رسالته وموطن

أسراره، تسللوا لِواذا ، وصرفوا وجوههم عنى فى خوف الجبان وحذر اللئيم ؟ لماذا كلما سألت أحدهم عن ابن زيدون وعن طول غيبته بمالقة تردّد وتلعثم واصفر وجهه وبلع ريقه وأدركه البُهْر ؟ لا يا مولاى ، إن ترك النار تدِبّ فى الهشيم تهاون واستهداف للخطر ، وإن السكوت على الجريمة جريمة . وأسرع ابن المكرى فقال :

— لقد علمت أنه بعث برسالة إلى خادمه علىّ أمره فيها أن يلحق به بمالقة مع عبيده وأهل بيته ، ولكنى غير واثق بهذا الخبر .

فتحرك ابن جهور فى مجلسه ، وقد بدا على وجهه القلق ، وطلب من رئيس كتّابه أن يبعث رسالة إلى ابن زيدون يستعجل قفوله ، ويصرفه عن السفارة .

وقفل ابن زيدون إلى قرطبة حزيناً كاسف البال ، لأنه علم أن الحيّات بقرطبة عادت تهزّ رءوسها ، وأن عناصر الشرّ التى خمدت حينا أخذت تتجمّع من جديد لتفعل أفاعيلها ، وأنه أصبح بقرطبة بين فكّى أسد لا يبعد أن يحلو له يوماً أن يحرّك ما ضغيه .

عاد ابن زيدون إلى قرطبة ، وقابل ابن جهور فعتب عليه عتباً خفيف المسّ خفىّ الإشارة، تتخلّله الأفاكيه،وتخفف من وقعه البسمات ، فخرج من لدنه وهو يعلم أن ابتساماته أشبه بالبروق التى تسبق الصواعق ، وأن وراء هذا اللطف أحابيل تنصب ، وقضاء يدبر. وقابل ولادة ونائلة ونفض إليهما جليّة أمره ، وما يجيش بصدره من مخاوف ، ثم أخرج من جيبه رسالة

بعث بها إليه المعتضد بن عبَّاد يدعوه فيها إلى حضرته بإشبيلية ، ويعده بأرفع المناصب وأسمى المراتب . فقالت نائلة :

— إن ابن عباد داهية ماكر ، وأخشى أن يتخذ منك أحبولة لمآربه.

فقالت ولادة :

— وما مآربه يا تُرى ؟

— أن ينال قرطبة . إنه مجنون بشىء يسمّى قرطبة . أتعلمين أنه قتل بيديه ابنه إسماعيل ، لأنه دعاه إلى غزو قرطبة فتردّد واعتذر لقـلّة الرجال والعتاد ؟

— إنه قتله حينما قبض عليه وهو يتآمر مع طائفة من الجند على قتله .

— ولِمَ تآمر على قتله يا فتاة ؟ تآمر على قتله لأنه عرف أنه بعد أن أبى أن يغزو له قرطبة مقتول لا محالة . وقال ابن زيدون :

— وما عيب الرجل إذا أراد امتلاك قرطبة ؟ إنه أقوى أمراء الأندلس وهو قمين بأن يملك جميع ولاياتها ويجعل منها دولة تهابها الإفرنجة ويخشى بأسها شذّاذ العرب والبربر . إن هذا الرجل لا يبرح من بالى كلما خطرت به فكرة جمع كلمة العرب . فعجلت نائلة تقول :

— لا تبثّ هـذا السر لأحد ، وإلا عدنا إلى مصائب الأغلال والسجون . ثم ضحكت وقالت : ولسنا نستطيع أن نغرى مخلفاً بأكل الفالوذج فى كل مرة !

وانفض المجلس ، وأقام ابن زيدون شهراً يهيئ فيه لفراره ، وعزمت ولادة ونائلة أن تلحقا به بأشبيلية .

وفى إحدى الليـالى انطلق ابن زيدون نحو إشبيلية بجواده فى خوف وتوجّس كما ينطلق السهم ، ولفَّه الليل كأنه طيف نائم ، أو خيال شاعر .

وأصبحت المدينـة ولا حديث لها إلا فرار ابن زيدون ، والتقى ابن عبدوس بابن المكرى آسفيْن فرحين ، لأنهما كانا يريدان القضاء عليه والتنكيل به ، ولكنهما رضيا آخر الأمر بأن انفسح أمامهما الطريق وخلا لهما الميدان . وأرسل ابن جهور جنوده حول قرطبة للبحث عنه والقبض عليه ولو غاص فى الماء ، أو طار فى الهواء ، ولكنهم لم يجدوا له أثراً بعد أن سلكوا كل مسلك ، وقلبوا للبحث عنه كل حجر .

ومضت أشهر أوشك فيها الناس أن ينسوا فرار ابن زيدون ، فأزمعت ولادة ونائلة الرحيل إلى إشبيلية ، ولكن جواسيس ابن عبدوس أوصلوا إليه الخبر فنقله إلى ابن جهور وأغراه بمنعهما من السفر ، فأرسل اليهما صاحب المدينة ينذرهما بسوء العاقبة إذا غادرتا قرطبة ، ووضع حول داريهما الأرصاد والعيون .

(١٤)

بلغ ابن زيدون إشبيلية بعد أيام ، وكانت فى ذلك العهد من أعظم مدن الدنيا بهجة ورُواء وطيب أرض واعتدال جوّ واتساع رُقعة ، وهى على الضفة اليسرى من الوادى الكبير الذى يصعد المدّ فيه كل يوم نحو اثنين وسبعين ميلا ، فيسقى الرياض والحدائق ، ثم ينحسر عنهـا كما ينحسر السحاب فى الليلة المزهرة عن صفحة السماء . وبها جبل الشرف ، وهو أحمر التربة ، يمتدّ من الشمال إلى الجنوب نحو أربعين ميلا ، لا تكاد تسقط أشعة الشمس على بقعة من أرضه ، لالتفاف أشجار الزيتون والتين به .

وبإشبيلية أسواق قائمة ، وتجارات رابحة ، وقصور سامقة ، وبساتين ناضرة . وبأهلها يضرب المثل فى الخلاعة والترف والمجون حتى قيل : إنه كلما مات عالم بإشبيلية حملت كتبه لتباع بقرطبة ، وكلما مات مطرب بقرطبة حملت آلاته لتباع بإشبيلية .

ما بلغ ابن زيدون المدينة حتى قصد لتوّته قصر المعتضد ، وهو قصر فخم يطلّ على النهر ، فسيح الأرجاء سامق البنـاء ، كأن لقبابه حديثاً لا ينقطع مع السماء . وخير لنا ألا يجرؤ قلمنا على وصفه ، فإنه يكفى أن نقول : إنه قصر بنى عباد ، وبنو عباد هؤلاء خُلقوا وفى دمهم الانفراد

بالعظمة ، والغيرة من أن يسبقهم فى فخامة الملك وجلالة السلطان سابق ، ثم إن من طبائعهم السرف والافتنان فى النعيم والتمتع بلذائذ الحياة .

استأذن ابن زيدون على المعتضد ، وكان يجلس فى قاعته الكبرى التى يستقبل فيها الوزارء والسفراء وكبار رجال الدولة ، فلم يصل إلى حضرته إلا بعد جهد ولأى ، فقد أخذ يتلقفه عبد أسود ، ليسلمه إلى خادم صقلبي ليسير به إلى بعض كبار القصر ، ثم إلى ذى الوزارتين أبى على بن جبلة ، كأنه كرة يقذف بها لاعب للاعب . وحينما رآه ابن جبلة رحّب به وعانقه وأظهر له من الود والحفاوة ما يرتاح لها قلب الكريم . ثم دخل به إلى المعتضد وكان جالساً على كرسى عال تحيط به الوسائد ، ويقوم إلى جانبيه عن يمين وشمال عبدان لا يكاد الناظر يرى منهما إلا لهيب عينيهما لكثرة ما تدجّجا به من سلاح .

وكان المعتضد فى نحو الخامسة والأربعين ، مديد القامة جهم الوجه ، براق العينين ، يكاد سنا برقهما يذهب بالأبصار . وكان على كبريائه وغروره داهية حاد الذكاء ، باقعة فى السياسة ، شديد البطش جباراً . كان أسداً يفترس وهو رابض ، وثعلباً يعرف متى يثب ومتى يفرّ ، وكان كثير الأطماع بعيد منال الآمال ، لا يكاد يستقرّ له سيف فى غمد ، أو يُلقى عن جواد له لجام ، فهو دائماً مع من حوله من الوزراء فى صدام وعراكٍ وحرب ضروس.

دخل ابن زيدون فحيّاه الأمير فى عظمة الملوك وسطوة الجبابرة ، وتصدّق عليه بابتسامة ذابلة ، وكلمات هادئة فى الترحيب بمقدَمه ، وكأن ناطق

حاله كان يقول : هذا كل ما أستطيع أن أتبسط فيه مع مثلك ، فاحمد الله عليه ، فإنى لا أجود به على أحد . وأخرج ابن زيدون من كمّه قصيدة كان أعدّها لمدحه فى الطريق جاء فيها :

للحبِّ فى تلك مَرادٌ لو ساعف الـكلِفَ المشوقَ مُرادُ
من مبلغ عنى الأحبةَ إذ أبت ذكراهم أن يطمئن مِهاد ؟
إن أغترب ، فمواقعَ الـكرم الذى فى الغرب شِمْتُ بروقَه ، أرتاد
أو أنأ عن صِيدِ الملوك بجانبى فهم العبيـد مليـكُهم عبّـاد
المجد عذر فى الفراق لمن نأى ليرى المصانعَ منه كيف تشاء
فى آل عباد حططتُ فأعصمت همى بحيث أنافت الأطواد
أهلُ المناذرة الذين هم الرُبا فوق الملوك ، إذ الملوك وِهاد
بيت تودُّ الشهب فى أفلاكها لو أنهـا لبنائه أوتاد
نفسى فداؤك أيها الملك الذى زُهرُ النجوم لوجهه حسَّاد !
تبدو عليك من الوسامة حُلّةٌ يهفو إليهـا بالنفوس وداد
لم تشف منك العينَ أولُ نظرةٍ لولا المهـابة راجعت تزداد
فلئن فخرتُ بما بلغتُ لقلّ لى ألّا يكون من النجوم عَتاد
مهما امتدحتُ سواك قبلُ فإنما مدحى إلى مدحى لك استطراد

فاهتز المعتضد للمديح وزاد فى الثناء عليه والترحيب به ، وخلع عليه منصب الوزارة ، وأمر ابن جبلة أن يهيّئ له دارا تليق بمنزلته ، وأن يُعدّ له بها من الخدم والعبيد ما يوائم جلال منصبه .

وعاش ابن زيدون فى كنف المعتضد عظيم الجاه مسموع الكلمة نافذ الرأى ، وأخذ إقبال الأمير عليه ورعاؤه له يزداد مع الأيام شيئاً فشيئاً كلما ظهر نبوغه فى حل المعضلات ، و بدا مضاؤه فى تصريف الأمور .

وتحدثت حسان المدينة بقدوم ابن زيدون ، وودت كل ذات وجه صبيح أن تسعد بأبيات من غزله تباهى بها صويحباتها ، وتُدلّ بها على خطّابها ، فقد سبقه إلى إشبيلية شعره فى ولادة ، فرددته جنباتها ، وأنشده المنشدون ، وغنّى به المغنّون ، ولكن شاعرنا جاوز الآن مرحلة الشباب ،وعرّى أفراس الصبا ورواحله ، ولم يعد بقلبه متسع لنزيل جديد بعد أن شغله حب ولادة ولم يترك فى إحدى زواياه مكاناً خالياً . لم ينس ابن زيدون عهد ولادة ولم يزده تنائى الديار إلا شغفاً بها ، وهياماً بذكراها وكان إذا طواه الليل وقف بنافذة داره ، ولمح البارق المؤتلق فى شمال الأفق وتلقّى الريح السارية من نحو قرطبة بليلة شذيّة ، فهاجت بلابله ، وثارت شاعريته فقال :

أضحى التنائى بديلا منْ تدانينا
وناب عن طيب لُقيانا تجافينا

إن الزمان الذى ما زال يضحكنا
أنساً بقربهم قد عاد يبكينا

غيظ العدا من تساقينا الهوى فدعوا
بأن نَغَصّ فقال الدهر آمينا

فانحلّ ما كان معقوداً بأنفسنا
وانبتّ ما كان موصولا بأيدينا
وقد نكون وما يُخشَى تفرّقنا
فاليوم نحن وما يُرجَى تلاقينا
لم نعتقد بعدكم إلا الوفاء لكم
رأيا ، ولم نتقلّد غيرَه دينا
بنتم وبنا فما ابتلّت جوانحنا
شوقاً إليكم ، ولا جفّت مآقينا
نكاد حين تناجيكم ضمائرنا
يقضي علينا الأسى لولا تأسينا
حالت لفقدكم أيامنا فغدت
سودا ، وكانت بكم بيضاً ليالينا
إذ جانب العيش طَلْق من تألّفنا
ومرتع اللهو صافٍ من تصافينا
ليُسْقَ عهدُكم عهدُ السرور فما
كنتم لأرواحنا إلا رياحينا
والله ما طلبت أهواؤنا بدلاً
منكم ، ولا انصرفت عنكم أمانينا

يا ساريَ البرق غادِ القصرَ واسقِ به
من كان صِرْف الهوى والودِّ يسقينا
ربيبَ مُلْكٍ كأنّ الله أنشأه
مسكا ، وقدّر إنشاء الورى طينا
يا روضةً طالما أجنتْ لواحظنا
وردا ، جلاه الصبا غضّا ونسْرينا
ويا حياةً تملينا بزهرتها
فى وشى نُعْمَى سحبنا ذيلَه حينا
لسنا نسميك إجلالا وتكرمة
فقدرُكِ المعتلى عن ذاك يُغنينا

وأظلّه عيد الأضحى وهو بعيد عن مغانى هواه وملاعبِ صباه ، فتوالت عليه الذكريات ، وزاد به الحنين ، واستبد به الشوق ، فردد فى همهمة الحزين ، وترنيم الطائر السجين :

خليليّ لا فطرٌ يسرُّ ولا أضحى
فما حال مَن أمسى مشوقا كما أضحى ؟
ألا هل إلى الزهراء أوْبةُ نازحٍ
تقضّى تنائيها مدامعَه نزْحَا
محل ارتياحٍ يُذْكِرُ الخُلْدَ طيبُه
إذا عزّ أن يصدَى الفتى فيه أو يضحى

وحمل إليه البريد خبر موت نائلة فذهبت نفسه عليها حسرات ، وتقطعت زفرات ، وبكى فيها الوفاء والحنان والحب السماوى النقىّ الطاهر وأنشد :

لرزئكِ تنهلُّ الدموعُ فمثـــله
إذا حلّ وَدَّ القلبُ لو كان مَدْمَعا

لقد أجهش الإخلاص بالأمس باكيا
عليكِ كما حنّ الوفاء فرجّعـــا

ودنيا وجدنا العيش فى غفلاتهـــا
طريقاً إلى وِرْدِ المنيةِ مهيعا

نُعلَّلُ فيهـــا بالمنى فتغــرُّنا
بوارق ليس الآلُ فيهـا بأخدعا

وكانت الرسل بينه و بين ولادة لا ينقطع لها مجىء وذهاب ، كأنها وشيعة الحائك لا تـكاد تلتقى بيمينه حتى تعود إلى شماله ، ولكن ماذا تعمل الرسل ، وماذا تجدى الرسائل ، وحبيبته حبيسة عند ابن جهور ، ربيطة بقرطبة ، لا تستطيع منها فكاكا ؟ قاتل الله ابن جهور ! ولعن الله الأيام السود التى نصبته عميداً للجماعة وسيداً مطاعاً بين ساداتها وكبرائها ! لقد بذل نفسه فى خدمته فما أجدى، وخلع عليه من المديح أثواباً يبلى الدهر ولا تبلى ، ثم يجىء آخر الأمر فيحول بينه و بين ريحانة حياته وخاتمة آماله .

بنى جهور أحرقتُمُ بجفـائكم حياتى ولـكنّ المـدائح تعبَقُ

تعدُّوننى كالعنبر الورد إنما تطيب لكم أنفاسُه حين يُحْرَق

وطالما همّت ولادة باللحاق به بإشبيلية تحت ستار الليل ، فكان ابن عبدوس يفشى سرّ مؤامرتها ، ويحول بينها و بين السفر .

عاش ابن زيدون بإشبيلية سنوات قلق النفس مضطرب الخاطر ، لم ترتح نفسه للمعتضد و إن أغدق عليه ، ولم يطمئن له قلبه و إن توالت مواهبه ، لأنه كان من الصنف الذى يعطى من غير أريحية ، و يبتسم من غير حبّ ، و يسأل عنك من غير شوق ، و يجاملك فى غير مودة . صنف تشعر وأنت تجالسه بأنك تحت كابوس مخيف لأنه يراك دونه ، و يريد أن يكون لطيفاً ، و يريد أن يكون ظريفاً ، ولكن شتان بين الخلق والتخلق ، وشتان بين الروح الخفيفة المرحة والروح التى تريد أن تكون خفيفة وتريد أن تكون مرحة . ومثل هذا الصنف قد يمدحك وقد يثنى عليك ، ولكن مديحه يطِنّ فى أذنك كما يطن مديح السيد لعبده ، وقد يطرح معك الكلفة ، و يتبسط فى الحديث ، ولكنه يحرص دائماً على أن يشعرك فى غضون كل هذا أنه إنما يتصدق عليك بتواضعه ، و يتخذ منك وسيلة للاستراحة من عظمته التى ضاق بها صدره .

لكل هذا أبى ابن زيدون أن يعرض على المعتضد أمنيته التى لاقى فى سبيلها عذاب الهون وآلام الحبس والتشريد . أبى أن يدعوه إلي توحيد دويلات العرب بالأندلس لأنه رأى فيه جباراً يضع السيف فى موضع الندى ، ومتكبراً صلفاً لا يدين إلا بسياسة العنف والجبروت ، لذلك كتم

سره فى صدره ، ولم يومئ به لأحد لا فى صراحة ولا فى تلويح . ولم يكن له من سلوى فى غربته إلا فى محمد بن عبـاد ولى عهد المملكة ، فقد كان شاباً طموحاً ، تزدحم نفسه بالآمال الكبار ، وكان إلى بطولته الكامنة مرِحاً مولعاً باللهو والشراب ، وكانت له مجالس يجتمع بها ابن زيدون وابن عمار وابن مرتين ، وكانت هذه المجالس صورة من العبث الأندلسى الذى قضى على دولة العرب ، وأمات فى شبانها النخوة والإقدام وصدق العزيمة .

ومرّت الأيام ، وتعاقبت السنوات ، فلحق المعتضد بربه ، وشغلت الرهبة منه قلوب الناس عن الحزن عليه ، وأكْد ابن زيدون قريحته فبضّت له بأبيات سقيمة فى رثائه . وخلف المعتمد أباه ، واستوى على عرش إشبيلية ، فاستبشر الناس وتمنوا على الله لو صدقت فيه المخايل . وكان أديباً شاعراً فأقبل على ابن زيدون ووالى عليه نعمـه ، فملأ قلوب حاسديه عليه حقداً ، وتألب عليه نفر كان يحمل لواءهم ابن عمار وابن مرتين ، فما برحوا يدسّون له عند المعتمد حتى إنهم زيّنوا لمغنيته « صبح » أن تغنيه :

يأيهـــــا الملكُ العلىُّ الأعظمُ
اقطع وريدَىْ كلِّ باغٍ يلؤمُ
واحسم بسيفك كلَّ داء منـافق
يُبدى الجميلَ وضـدَّ ذلك يكتم

فبدا الغضب على وجه المعتمد وصاح بابن عمار :

— ماذا تقصد هذه الجارية ؟ فابتسم ابن عمار فى خبث ودهاء وقال :

— لا أدرى يا مولاى من تقصد على التحقيق ، ولـكنها تردّد صدَى ما تتحدث به المجالس والأندية بإشبيلية .

— و بأىّ شىء تتحدث هذه الأندية ؟

— أعفنى يا مولاى فقد يكون حديثها عن أقرب الناس إليك ، وأحظاهم عندك .

— من هو ؟ صرّح و إلا سبق كلتى إليك سيفى !

— هو ابن زيدون يا مولاى .

— ابن زيدون ؟

— نعم يا مولاى ، فإنهم ينسبون إليه بيتين قالهما عند ما بلغه نعىُ مولاى المعتضد .

— ما هما ؟

— يقولون إنه قال :

لقـد سرّنى أن النَعِىَّ موكّـلُ بطاغية قد حُمَّ منـه حِمامُ

تجنّب صوبُ الغيث قبرَك جافياً ومرّت عليه المزن وهى جَهـام

فقهقه المعتمد فى سخرية واستخفاف وصاح : الآن عرفت سخف النمائم وما يمكن أن تنفثه سموم الوشايات ! هذان البيتان قلتهما أنا حينما علمت بموت ابن ذى النون صاحب طليطلة ، وابن زيدون برىء منهما كبراءتى من كل أعدائه ومنافسيه .

وعلم ابن زيدون بالخبر فنظم قصيدة بارعة يمدح بها المعتمد ويندّد بحساده منها :

قل للبغاة المُنْبضين قِسيَّهم ستروْن مَنْ تُصميه تلك الأسهمُ !
ما كان حلم محمد ليجيله عن عهده دَغِلُ الضمير مذمَّم

وزادت منزلة ابن زيدون عند المعتمد علاء ورفعة ، فاهتبل فرصة خلوته به ليلة ، وأخذ يحضّه فى إغراء واستهواء على أن يعيد لدولة العرب مجدها ، ويجدد شبابها ، ويذكّره بما كان لها من الحول والصول ، ثم يعود إلى ذكر ما ارتكست فيه من الضعف بعد أن فصمت عروتها ، ثم يصيح فى ألم وحسرة : انظر يا مولاى إلى هؤلاء الذين سموا أنفسهم أمراء وحدثنى بحقك عمن تراه منهم جديراً بالرياسة . ابن هود ذلك الغادر ؟ أم ابن الأفطس الذى يقضى ليله ونهاره فى اللهو والطرب ؟ أم ابن ذى النون الذى أصبح سيفا فى يد ملك الأسبان ؟ أم ابن باديس البربرى الجاهل ؟ منْ من هؤلاء يا مولاى يصلح لقيادة العرب وتوحيد الكلمة ؟ لم يبق إلا أنت لرأب الصدع وجمع الشمل، فاحمل العبء ثقيلا لتكتب فى سجل العظماء ، وليدوِّى ذكرك فى أجواء التاريخ كل صباح ومساء . ثم إنك لم تكن دخيلا فى الملك ، ولا لصيقاً فى الرياسة ، وإنك لخمى يا مولاى ، إنك من بنى المنذر بن ماء السماء ملك العرب وسيد ساداتها .

كان المعتمد يصغى وغرائز العظمة تتوثب فى نفسه ، فمال على ابن زيدون وقال :

— وما الطريق إلى هذه القمة الشامخة وهذا الأمل البعيد ؟

— الطريق يا مولاى أن تستولى على قرطبة أولا وأن تجعلها قصبة ملكك ، ثم تغير منها على هذه الدويلات واحدة فى إثر واحدة ، والنصر يا مولاى يجلب النصر ، والرعب إذا استولى على قلوب أعدائك سجن سيوفهم فى أغمادها .

— إن قرطبة الآن فى يد هذا الطاغية الفاجر حريز بن عكاشة ، فقد استولى عليها بعد أن رحل عنها المأمون بن ذى النون بجنوده ، وقد علمت أن عبد الملك بن جهور يقاسى الآن من ابن عكاشة ما هو شرٌّ من الموت وأنكى من الذل والإسار .

— نعم يا مولاى . والرأى أن يتقدم مولاى بجيشه إلى قرطبة ، وأن يذيع قبل مقدمه أنه إنما يزحف لإنقاذها من ابن عكاشة وإعادتها إلى عبد الملك بن جهور ، ولا بدّ أن يكون لمولاى بين وزراء قرطبة وعظمائها من يمهدون لهذه الحيلة حتى لا يجد الجيش من القرطبيين مقاومة أو دفعا .

— إن رجلنا هناك الوزير ابن السقاء ، وهو أخلص الناس لنا وأحرصهم على خدمتنا .

— حسن يا مولاى ، فلنبعث إليه رسولا الليلة ، ولنعدّ الجيش فى أيام لننقضّ به على قرطبة .

واقتنع المعتمد بالرأى ، وسار الرسول ، وأعدّ الجيش وكان فى مقدمته المعتمد وابن زيدون ، وبلغ الجنود أسوار قرطبة فدخلوها وقد فتحت

أمامهم الأبواب ، وذللت لهم السبل ، وقتل المعتمد ابن عكاشة وأباد جيشه، وظن عبد الملك أن الأمر انتهى عند هذا الحد ، وأن المعتمد سيعود بجيشه إلى إشبيلية،ولـكن المعتمد لم يفعل شيئاً من هذا ، بل قبض علي عبدالملك وعلى إخوته وسائر أهل بيته وأودعهم غيابات السجون .

وسُرّ ابن زيدون بلقاء ولادة ، فبكيا معاً من شدة سرورهما باللقاء ، وبكيا معا لأن نائلة لم تكن معهما بعد أن عادت إليهما الأيام .

التقى ابن زيدون بولادة ولـكن بعد أن فات الفوت ، وذهبت بشبابه السنون ، ولوت قناته كوارث الأيام ، ونيّفت سنه على الثامنة والستين .

فكان كالمتمنى أن يرى فلقاً   من الصباح ، فلما أن رآه عمى

عاد ابن زيدون إلى قرطبة ، ولـكن لم يعد إليه هناء قرطبة وطيب أيام قرطبة ، فقد لبث أشهراً يعانى آلام الأمراض وآلام الخيبة ، لأنه رأى بعد طول التجربة أن المعتمد لا يصلح لما كان يرجى منه من خطيرات الأمور .

واشتد فى إحدى الليالى به المرض ، فجلست ولادة حول سريره باكية نادبة ، وهو يجود بنفسه ، ويلفظ أنفاساً قصاراً كأنها خفقات السراج آخر الليل ، ويردّد :

ألم يأنِ أن يبكى الغمامُ على مثلى   ويطلبَ ثأرى البرقُ منصلِتَ النصل
وهلاّ أقامت أنجمُ الليـل مأتماً   لتندُبَ فى الآفاق ماضاع من فضلى

وما زال يكرّر البيتين حتى أدركته غشية أوردته الردَى ، ولم تجعل ليومه غدا .

١٩٤٩/٢٠٤٦



الثمن ٢٥